رواية

لوران غودّيه

شمس آل سكورتا

ترجمة بسّام حجّار

مكتبة بغداد

دار الآداب

لوران غوده

شمس آل سكورتا

ترجمة: بسام حجّار

رواية

دار الآداب ـ بيروت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شمس آل سكورتا

لوران غوده/مؤلِّف فرنسي

ترجمة: بسام حجّار

الطبعة الأولى عام 2005

حقوق الطبع محفوظة

إلى إليو،
حفنةٌ من شمسِ تلك البقاع
تجري في دَمِك
فعسى أن تُنيرَ بَصَرَك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نسير، ذاتَ مساء، بمحاذاةِ رَبْوَة
صامِتَيْن. في ظلّ الغَسَقِ الزائل،
ابن عمّي عملاقٌ مُسربَلٌ بالأبيض،
يسيرُ بخطوةٍ مطمئنّة، أسمر الطّلعة،
سَكوتًا. في الصمتِ تكمن قوّتنا
لا بدّ من أنّ أحد أجدادنا كان وحيدًا
ـ رجلاً مرموقًا محاطًا بالحمقى،
أو شقيًّا مسّه العَتَه ـ
لكي يُلقّن أحفادَه صمتًا كهذا من دون قَعْر.

[تشيزاري بافيزي: «بحار الجنوب»، من مجموعته «أشغال تَعَب»]

https://telegram.me/maktabatbaghdad

I

أحجار القَدَرِ الساخنة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كأنَّ الهاجِرةَ تَشُقُّ الأرض. لا نَسَم يُرعِشُ أعطافَ الزيتون. كلّ شيء ساكن. أريجُ التلال يفنى بَدَدًا. والحَجرُ يئنّ لشدّة الحرّ. كان شهر آب يُرخي ثقلَه على جبالِ غارغانو[1] بِصَلَفِ سيّدٍ. إذ لا يخطر ببال أحد أنّ هذه البقاع عَرَفَت يومًا هطول المطَر، وأنّ ماءً سَقَت حقولاً ورَوَت، يومًا، أشجار الزيتون. لا يخطر ببال أحد أنّ حياةً، للحيوان أو النبات، قد وجدت ـ تحت تلك السماء اليابسة ـ ما يغذّيها. كانت الساعة الثانية بعد الظهر، وكانت الأرضُ نَهْبًا للاحتراق.

على دربٍ ترابي كان حمارٌ يسير متباطئًا. يسلك المنعطفات صاغرًا. لا شيءَ يغلب عناده. لا الهواء الحارق الذي يتنشّقه، ولا الحصباء المسنّنة التي تنخر حوافره. يسير قُدُمًا، وراكِبُهُ أشبه بِخَيَّالٍ منذورٍ لِعقابٍ مزمن. لا يحرّك الرجلُ ساكنًا، كأنّه خُبِلَ من وطأة الحرّ، تاركًا لدابّته مهمّة أن تبلغ بهما، هما الاثنان، نهايةَ ذلك الدرب. على مهلٍ، مترًا بعد متر، كان الحمار، بسعيه البطيء، يطوي المسافةَ كيلومتراتٍ إثر كيلومترات، فيما الخيّالُ يغمغمُ بكلماتٍ سرعان ما يبخّرها

(١) سلسلة جبال في منطقة بوليا (Puglia) بجنوب إيطاليا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

القيظ: «لن يُثنيني شيءٌ... للشمسِ أن تقتل سحالي التلال، لكنّني سأصمد. لقد انتظرتُ طويلاً... للأرضِ أن تصدر فحيحًا ولشعري أن يشتعل، إنّي سائرٌ في طريقي حتّى النهاية».

هكذا انقضت الساعات وسطَ لهيب يُبدّد الألوان. ثمّ أخيرًا، وراء أحد المنعطفات، لاحَ البحر من بعيد. «لقد بلغنا طَرفَ العالم، قال الرّجل في سرّه. خمسة عشر عامًا وأنا أحلم بهذه اللحظة».

كان البحرُ هناك، مثل بِركةٍ راكدة المياه لا نَفْعَ منها لو لم تعكِس صفحتها وهجَ الشمس. لم يعبر دربه دسكرة أو قرية، ولم يلتقِ دربًا آخر، بل كان يتطاول قُدُمًا عبر بقاع غير مأهولة. وبدا أنّ ظهور هذا البحر الراكد، المتوهّج حَرًّا، هو اليقين بأنّ الدرب لا يفضي إلى مكان. غير أنّ الحمار يتابع طريقَه، ولن يتوانى، لو أمره صاحبه بذلك، أن يُخوّض في المياهِ بخطوهِ المتثاقلِ ذاته. كان الراكبُ لا يحرّك ساكنًا، إذ ألمّ به دوارٌ خفيف. لعلّه أخطأ الطريق، فلا شيء يلوح، في الأفق، إلاّ التلال والبحر وقد تداخلت تخومها. «لقد سلكت الدربَ الخاطئ، قال في سرّه. فلو كنتُ على الدرب الصحيح للاحت لناظري القريةُ منذ بعض الوقت. اللّهمّ إلاّ إذا انكفأت مبتعدةً. بلى. لابدّ أنّها استشعرت قدومي إليها فانكفأت إلى عرض البحر لكي لا أصلها. لو يقتضي الأمر أخوّض في المياه ولا أستسلم. إلى النهاية. إنّي أسيرُ قُدُمًا، ساعيًا وراء ثأري».

بلغ الحمارُ قمّةَ ما بدا أنّه آخر تلّة في العالم. وعندئذٍ رأيا مونتيبوتشيو. فتبسّم الرجل. كانت القرية باديةً للعيان بأكملها. قرية بيضاء صغيرة، منازل متلاصقة فوقَ أنفِ الجبلِ المطلّ على السكون العميق للمياه. لابدّ أنّ ذلك الحضور الإنسيّ المفاجئ، وسط القفر الشاسع، بدا مضحكًا بعض الشيء في نظرِ الحمار، غير أنّ الحمار لم يضحك، وتابع طريقَه.

عندما حاذى البيوت الأولى عند أطراف القرية، غمغم الرجل في سرّه قائلاً: «إذا صادفتُ أحدًا منهم وحاول منعي من المرور، فسأسحقه بقبضتي». وراحَ يُراقب، بيقظةٍ، كلّ عطفةٍ وركن وناصية. فاطمأنّ. لقد أحسنَ في اختياره ساعةَ الوصول. ففي ساعة مماثلة تكون القرية غارقةً في سباتِ الموت. الطرقات مقفرة، والنوافذ مغلقة، وحتّى الكلاب متوارية. فلو زلزلت الأرض في ساعات القيلولة لما خرجَ أحدٌ من بيته. لطالما تردّدت في القرية حكاية الرجلِ الذي تأخّر، ذات يوم، في حقلِه حتّى وقتٍ مماثلٍ، فما كادَ يعبر الساحة، في وسط القرية إلى أطراف المنازل الظليلة حتّى أفقدته الشمس عقله. كأنّ أشعّتها ألهبت دماغَه. وكان أهل مونتيبوتشيو يؤمنون جميعًا بصحّة تلك الحكاية، إذ رسخ في أذهانهم أن اجتياز الساحة، على الرغم من ضيقِ مساحتها، في مثلِ تلك الساعة، يعرّض المرء للموت المحتّم.

كان الحمار وراكبُه يصعدان على مهلٍ ما كان يُعرف، آنذاك، أي سنة ١٨٧٥، بشارع «نووفا» ـ والذي سيغدو فيما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بعد «باحة غاريبالدي». وكان واضحًا أنّ راكب الحمار يعرف وجهته. لم يلمحه أحدٌ، ولم يصادف في طريقه حتّى قطة هزيلة من تلك القطط التي تتكاثر عادةً بين أقذارِ المجاري. لم يسعَ إلى سقيفة تظلّل حماره أو إلى الجلوس على أحد المقاعِد. كان يتابع تقدّمه عنيدًا يزيده السير عنادًا.

«لم يتغيّر شيء، غمغم في سرّه قائلاً. الأزقّة القذرة نفسها. وواجهات البيوت المتسخة نفسها».

في تلك الأثناء لمحه الأب زامبانيلّي، وكان كاهن مونتيبوتشيو، الذي يناديه الجميع دون جورجيو، قد نسي كتابَ الصلاةِ خاصّته عند قطعة الأرض الصغيرة الملاصقة للكنيسة والتي جعلها جنينة لزرعِ أنواع البقول. كان عمل فيها لساعتين عند الصباح وخيّل إليهِ أنّه ترك الكتاب هناك، بقربِ تخشيبة الأدوات، على كرسيّ الخشب حيث وضعه. خرج كما يخرجُ المرء في عزّ العاصفة، مُداريًا، مُطرِقًا، مُغمضًا عينيه، مُصمّمًا على الفراغ من مهمّته الطارئة بسرعة لكي لا يُعرّض جمجمته للقيظ الذي يسبّب الجنون. وهناك لمح الحمار وراكبه سالكين شارع «نووفا». جمد دون جورجيو هنيهاتٍ في مكانه، وبحركة عفوية ارتسم بشارة الصليب، ثمّ عاد أدراجه للاحتماء من الشمسِ عند باب كنيسته الخشبي الضخم. لكنّ المستغرَب حقًّا ليس فقط امتناعه عن قرع الجرس تحذيرًا أو إغفاله سؤال الوافد المجهول عمّن يكون وما الغرض من مجيئه (فالمسافرون نادرون ودون جورجيو يعرف أهل القرية واحدًا واحدًا

وبالاسم)، بل تناسيه الأمر تمامًا لدى عودته إلى صومعته، حيث استلقى على فراشه وغرق في سبات عميق خالٍ من أحلام القيلولة الصيفية. لقد ارتسم بشارة الصليب قُبالة ذاك الخيّال كأنّما أراد أن يبدّد وهمًا. لم يتعرّف دون جورجيو على لوتشيانو مَسْكالزوني. وكيف له أن يتعرّف عليه؟ إذ لم يبقَ في هيئة الرجلِ شيءٌ ممّا كانَ عليه في السابق. كان على مشارفِ الأربعين، لكنّ ضمور وجنتيه جعله أشبه برجلٍ عجوز.

طافَ لوتشيانو مَسْكالزوني عِبرَ أزقّة القرية القديمة النائمة. «لقد استغرق الأمر بعض الوقت، ولكنّني عدتُ. ها أنذا. مازلتم غافلين عن ذلك لأنّكم نيام. أسير بمحاذاة بيوتكم. أعبر تحت نوافذكم. أنتم غافلون عمّا يجري. ها أنذا، لقد جئتُ طَلَبًا للسَداد». طافَ في الأرجاء حتّى توقّف حماره، فجأة، كأنّ الدابّة العجوز أدركت، منذ البداية، أنّهما بلغا غاية رحلتهما، وأنّها بلغت خاتمةَ اصطبارها على لهيب الشمس. توقّف الحمار أمام منزل آل بيسكوتي لا يحرّك ساكنًا. فقفز الرجلُ عن ظهره برشاقة عجيبة وطرقَ الباب. «ها أنذا مجدّدًا، قال في سرّه. تبدّدت خمس عشرة سنة للتوّ». انقضت هنيهات كأنّها دهرٌ ولا جواب. همّ لوتشيانو بطرقِ الباب مرّة ثانية غير أنّ الباب فُتِحَ على مهل. أطلّت من صَدعهِ امرأةٌ على مشارف الأربعين، ولبثت واقفة أمامه، برداء النوم. راحت تتفرّس في وجهه من دون أن تنبس بكلمة. لم تنمّ ملامح وجهها عن ردّ فعل. لا الخشية ولا البهجة ولا المفاجأة. كانت تحدّق مباشرةً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في عينيه كأنّها تستعدّ لما سيلي تلك اللحظة. ولبث لوتشيانو لا يحرّك ساكنًا. بدا كمن ينتظر بادرةً من المرأة الماثلة أمامه، حركة ما، أو عبوسًا، أو تقطيب حاجبين. انتظر حتّى سرى خَدَرٌ في جسمه. «إذا حاولت أن تغلق الباب، قال في سرّه، أو إذا بدرت منها محاولة للتراجع، سوف أقتحم الباب وأغتصبها». كان يفترسها بنظراته متأهّبًا لأيّ بادرة قد تحطّم الصمت المخيّم عليهما. «مازالت أجمل ممّا كنت أتوقّع. لن أموت اليوم عبثًا». كان يتخيّل جسدها تحت المبذل، فتزداد شهوته تأجّجًا. لَبِثت صامتة، مُفسِحةً للماضي أن يطفو مجدّدًا على صفحة الذاكرة. عرفت الرجل الماثل أمامها. ووجوده هنا، على عتبة دارها، لغز لم تحاول حتّى أن تفسّره. فقط استسلمت لرياح الماضي تعصف بكيانها مجدّدًا. لوتشيانو مسكالزوني. إنّه هو حتمًا. بعد خمس عشرة سنة. كانت ترمقه بنظرات خالية من أيّ حقدٍ أو حبّ. تحدّقُ كمن يحدّقُ في قَدَرِه. هي مُلْكٌ له، ولن تقوى على التمنّع. هي مُلْكٌ له منذ زمن بعيد. ولأنّه عاد بعد خمس عشرة سنة طارقًا بابَها، سوفَ تُعطيه ما جاء لأجله، مهما كان. ستقول له بلى خُذ، هنا، على العتبة، ما تشاء.

لكي تحطّم حاجز الصمت والجمود الذي أحاط بهما، أرخت يدها عن مقبض الباب. وكانت تلك بادرة منها كافية لإيقاظ لوتشيانو من ذهوله، إذ بات يقرأ في قسمات وجهها أنّها هنا، وأنّها ليست خائفة، وأنّه سينال منها ما يشتهي. فدخل

مُسرعًا كأنّه لا يريدُ أن يُخلّفَ أثرًا في الهواء.

كان رجل يكسوه الغبار والقذارة يدخلُ بيت آل بيسكوتي في ساعةٍ تحلم فيها السحالي بأنّها أسماك، ولا تملك فيها الأحجارُ من يواسي وحدتها.

دخل لوتشيانو منزلَ آل بيسكوتي، وسيدفع حياته ثمنًا لفعلته. كان يعلم ذلك جيّدًا، يعلم أنّه حالما يغادر هذا المنزل يكون الناس قد خرجوا مجدّدًا إلى الطرقات، والحياة استأنفت مجراها بِسُنَنِها وصراعاتها، وأنّه سيدفع الثمن. يعلم أنّهم سيتعرّفون عليه، وأنّهم سيقتلونه. فالعودة إلى هذا المكان، إلى هذه القرية، والدخول إلى هذا البيت، أشبه بملاقاة موتِه. لقد سبق له أن فكّر في كلّ هذا، واختار أن يصل في ساعةٍ مماثلة من قيظ النهار حيث تعمى القطط، حتّى القطط، من وهجِ الشمس، لأنّه يعلم يقينًا أنّه ما كان ليبلغ الساحة لو أنّ الناس لم يهجروا الطرقات. كان يُدرك ذلك جيّدًا، ولم يُثنِه يقين الفاجعة عن مطلبِه. دخلَ البيت.

استغرقه اعتياد العتمة الغالبة في الأرجاء بعض الوقت. كانت قد أولته ظهرها وتقدّمتهُ، فتبعها عبر رواقٍ حسبَ أنّه بلا نهاية. ثمّ دخلا حجرة ضيّقة، لا أثر لصوت من حولهما. وبدت له طراوة الجدران أشبه بلمسة منعشة. احتضنها عندئذٍ بين ذراعيه. لبثت على صمتها. نزع عنها ملابسها. وعندما رأتها عيناهُ عارية، على هذا النحو، أمامه، لم يستطع إلاّ أن يهمسَ قائلاً:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«فيلومينا . . .». سرت رعشةٌ في جسمها. لم يُعرها بالاً. كان في أوجِ شهوته. مُنصرفًا إلى فعلته التي طالما أقسم أنّه سيرتكبها، ذاتَ يوم. كان يعيش اللحظة التي طالما تخيّلها. خمس عشرة سنة وهو نزيل السجن لا يفكّر إلاّ بها. ويقينُه أنّه حالما ينزع عنها ملابسها، سوف تستبدّ به نشوةٌ أحرّ من نشوة الأجساد بما لا يُقاس. نشوة الثأر. غير أنّه كان مخطئًا. لم يكن ثَمَّ ثأرٌ. لم يكن سوى ثديين ثقيلين في راحتيه، ولم يكن سوى عطر امرأة يغمره، عطر امرأة مُسكِر ودافئ. كم اشتهى هذه اللحظة التي يغرقُ الآن في لجّتها، ويستسلمُ لخَدَرِها غافلاً عن العالم، غافلاً عن الشمس، وعن الثأر وعن نظرة القرية الحاقدة.

عندما ولجها فوق ملاءات السرير الكبير الباردة، أنّت كعذراء، باسمةً بذهولٍ ونشوة، مُستسْلِمةً، صاغِرة.

لطالما اشتُهِرَ لوتشيانو مسكالزوني، كما يردّد أهلُ الناحيةِ وهم يبصقون على الأرض تطيّرًا، بأنّه رجل «شقيّ». كان يتعيّشُ بالنهبِ وسرقة المواشي وسلبِ المسافرين. وقد يكون أزهقَ أرواحًا بائسةً على دروبِ غارغانو، غير أنّ الأمرَ غير مؤكّد. رُويَت عنه أخبارٌ كثيرة لا سبيل للتحقّق من صحّتها، لكنّ المؤكّد هو أنّه انغمسَ في «حياة السوء»، وأنّ السلامةَ كانت تقضي بالابتعادِ عن طريقه.

أوان مجده، أي لمّا بلغت به سيرة الخِسّة أوجها، كان يتردّد على مونتيبوتشيو. لم يكن من أهلِ القرية، لكنّه شُغِفَ بالمكان وراح يصرف فيه معظم أوقاته، وهناك التقى فيلومينا بيسكوتي. أصبحت الفتاة التي تنتمي إلى أسرةٍ متواضعة، ولكن كريمة المحتد، هوسًا يعشّش في رأسه. كان يعلم حقّ العلم أنّ سُمعتَه سوف تحول دون ظفَرِه بها، فإذا به يزداد اشتهاءً لها كما قد يشتهي أهل الخِسّة امرأة متمنّعة، أي أن يحظى بها ولو ليلة واحدة: كانت تلك الأمنية تضفي على عينيه بريقًا غريبًا في الأمسيات الحارّة، غير أنّ القَدَر حالَ دون تمام رغبته الفجّة تلك. فذاتَ صباح عاديّ طوّقه خمسةٌ من رجال الشرطة في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

النُزل الذي كان يقيم فيه، واقتيد على الفور. ثمّ حكم عليه بالسجن لمدّة خمس عشرة سنة. ولم تلبث مونتيبوتشيو أن نسيته، سعيدةً لتخلّصها، أخيرًا، من طينة الأوباش هذه التي تحاصرُ بنات الناحيةِ بنظراتها السقيمة.

وجد لوتشيانو مسكالزوني في فترة السجن متسعًا للتأمّل في مجرى حياته السابقة. لقد صرفها في أعمال لصوصيّة تافهة. والمحصّلة؟ لا شيء. ما الذي خَبِره في حياته وقد يبقى له ذكرى في أيّام سجنه؟ لا شيء. حياة بأكملها انقضت عَبَثًا ولأغراضٍ عابثة. لم يَصْبُ خلالها إلى شيء، ولم يؤلمه فوات شيء، لأنّه لم يسعَ يومًا وراء شيء. وتدريجًا، مع مرور الوقت، تراءى له، في صحراء الضجرِ التي صارَ إليها وجوده، أنّ اشتياقه لفيلومينا بيسكوتي هو إنقاذ لما تبقّى. وعندما كانت تسري به رعشةٌ وهو يتبعها على طرقات القرية، كان يشعر بأنّه يحيا حتّى الاختناق. وكان في ذلك العِوَضَ الذي يغني عمّا تبقّى. لذا، بلى، عاهد نفسَه أنّه، فور خروجه من السجن، سوف يسعى لإشباعِ رغبته العنيفة تلك، الرغبة الوحيدة التي لم يعرف يومًا سواها، ومهما كان الثمن. أن يحظى بفيلومينا بيسكوتي، وبعدها سيّان أن يموت. أمّا ما تبقّى، كلّ ما تبقّى، فلا يعنيه بشيء على الإطلاق.

غادر لوتشيانو مسكالزوني منزل فيلومينا بيسكوتي من دون أن يتبادلا كلمة واحدة. استلقيا جنبًا إلى جنب، مُستَسْلِمَيْن لعَياءِ الحبّ. كان قد غفا قرير العين كما لم يغف منذ زمنٍ بعيد. نومٌ هانئٌ أغرق في سباته الجسدَ كلّه. سكينةٌ عميقةٌ للحواسّ، قيلولةُ يُسْرٍ، لا تنغّصها خشيةٌ.

أمام الباب وجد حمارَه مازالَ محمّلاً بغبار السفر. كان يعلم في تلك اللحظة أنّ العدّ العكسي قد بدأ، وأنّه مقبلٌ على حتفِه من دون تردّد. انخفضت حرارة الجوّ على نحوٍ ملحوظٍ ودبّت الحياة مجدّدًا في أرجاء القرية. على عتبات المنازل المجاورة جلست عجائز صغيرات القامة متّشحاتٍ بالسواد على مقاعد مخلّعة يتبادلنَ أطراف الحديث همسًا، حائرات بأمرِ الحمار وأمرِ وجوده المستهجَن، متسائلاتٍ عمّن يكون صاحبه. وسرعان ما أسدلَ عليهنّ ظهورُ لوتشيانو ستارة من الصمتِ المشوب بالذهول. ضحكَ في سرّه. كلّ الأمور جرت كما توقّع أن تجري، ولم يخب ظنّه. «حمقى مونتيبوتشيو هؤلاء مازالوا على حالهم، قال في سرّه. ماذا يدور في خَلَدهم؟ أيظنّون أنّني خائف منهم؟ وأنّني سأحاول الآن أن أنجوَ بنفسي؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ما عدتُ أخشى أحدًا. سوف يقتلونني اليوم. غير أنّ هذا لا يُرهبني. اجتزتُ مسافةً طويلةً من أجل هذا. لا أحد يستطيع أن يمسّني بسوء. ولكن هل بمقدورهم أن يدركوا ذلك على الأقلّ؟ لقد جاوَزَ جسمي كلّ الأذيّة التي قد تناله منهم. انتشيتُ في أحضانِ هذه المرأة. انتشيتُ. والأحرى أن ينتهي كلّ شيء عند هذا الحدّ، لأنّ الحياة، من الآن فصاعدًا، ستغدو فاسدةَ الطَّعمِ كئيبةً كتُمالةِ القنّينة». وبينما الأفكار تراوده وتعتمل في رأسه، ارتأى أن يستفزّ الجارات، تحدّيًا، لكي يثبت لهنّ أنّه لا يخشى شيئًا: فراح يزرّ فتحة سرواله، متفاخرًا، على العتبة. ثمّ امتطى حماره سالكًا طريق العودة. من الوراء كانت تتناهى إلى مسامعه تعليقات العجائز المهتاجة. لقد وُلِدَ الخَبَرُ وراح ينتشر ويفشو من منزلٍ إلى آخر، ومن مصطبةٍ إلى شرفة، تتناقله الأفواه العاجزة الخالية من الأسنان. راحت الشائعة تكبر من وراء ظهره. اجتاز ساحة مونتيبوتشيو مجدّدًا. كانت مناضد المقاهي قد أخرِجَت إلى الهواء الطلقِ، ورجالٌ، هنا وهناك، يتسامرون. صمت الجميع لدى مروره بهم. كانت جلبة الأصوات تتعاظم وراء ظهرِه. مَن يكون هذا؟ من أين أتى؟ إلى أن تعرّف عليه البعض وسط ذهول الأعين التي لا تصدّق ما تراه. لوتشيانو مسكالزوني. «أجل. بشحمِه ولَحمِه، أجاب في سرّه أمام الأوجه الممتقعة ذهولاً. لا تتعبوا أنفسكم بالتحديق على هذا النحو. هذا أنا. صدّقوا. وافعلوا، الآن، ما تحرّقتم زمنًا لفعله أو دعوني وشأني ولكن لا تحملقوا على هذا النحوِ بعيونكم الغبيّة. إنّي أشقّ طريقي بين صفوفكم. متمهّلاً. لا أسعى إلى الفرار. أنتم ذباب. ذباب ضخم ودميم. أَذبُكم

بظاهر يدي». كان لوتشيانو يتابع طريقه هابطًا شارعَ «نووفا». يواكبه حشدٌ صامتٌ. رجال مونتيبوتشيو، وقد غادروا مصاطبَ المقاهي، والنساءُ وقد وقفنَ على الشرفات، ينادون بأعلى الصوت: «لوتشيانو مسكالزوني؟ هل هذا أنت؟». «لوتشيانو؟ لقد تجرّأتَ يا ابنَ الخنزيرة أن تعود إلى هذه الديار». «لوتشيانو، ارفع رأسَكَ المقرونَ قليلاً لكي أرى إذا كان هذا أنتَ حقًّا». كان يتقدّمُ متمهّلاً، غير آبهٍ، محدّقًا في الأفقِ البعيد، مُقطّبًا. «سوف تولول النسوة، قالَ في سرّه. وينهالُ الرجال بما ملكت أيديهم. أعلم كلّ هذا». كان الحشد يزداد هياجًا. نحو عشرين رجلاً باتوا سائرين في أعقابه. وعلى طول شارع «نووفا» نساءٌ ينادينه من أعلى الشرفاتِ أو عند عتبات البيوت، وأولادهنّ يتزاحمن بين سيقانهنّ، ويسارعن إلى الارتسام بشارة الصليب إذا مرّ بهنّ. عندما مرّ من أمام الكنيسة، في الموضع الذي صادفَ فيه دون جورجيو قبل ساعاتٍ قليلة، علا صوتٌ غلبَ على الأصوات الأخرى قائلاً: «مسكالزوني، هذا يوم حَتْفِك». عندها فقط استدارَ ملتفتًا نحوَ ذاك الصوت وتسنّى لأهل القرية جميعًا أن يلمحوا على شفتيه ابتسامة التحدّي المفزعة التي جمّدت أوصالهم. كانت تلك الابتسامة تنبئهم بأنّه يعلم. وأنّه، على الرّغم من ذلك، يحتقرهم، وأنّه ظفر بما جاء لأجله، وأنّه سيحمل معه هذه المتعة إلى القبر. بعض الأولاد ممّن أفزعتهم بسمةُ المسافر الهازئة، جعلوا ينتحبون. وبصوتٍ واحدٍ، صاحت الأمّهات بما يشبه صياح التعزيم: «إنّه الشيطان»!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بلغ أخيرًا طرفَ القرية، وتراءى آخر منازلها على بعدِ أمتار. ثمّ لا شيء سوى ذلك الدرب المترب الطويل بين أشجار الزيتون المتعرّج بعيدًا بين التلال.

إذا بنفرٍ من الرجال يعترضون طريقه على نحوٍ مباغت. كانوا مسلّحين بمعول ومعازق. عابسين. متلاصقين أحدهم بالآخر. أوقف لوتشيانو مسكالزوني حماره، ورانَ صمتٌ عميق. لم يحرّك أحدٌ منهم ساكنًا. «إذًا، هنا سأموت. قبالةَ المنزل الأخير في مونتيبوتشيو. أيّهم سينقضّ عليّ أوّلاً؟» شعرَ باختلاج حسرةٍ تسري في جنَبِ الحمار، فربّت على كاهلِه بمثابة إجابة. «هل سيمنّ هؤلاء القرويّون البائسون على حماري بقربة ماء بعد إجهازهم عليّ؟» واستقام في وضعتِه محملقًا في الرجال من دون حِراك. النساء من حولهم سَكَتنَ. ولبث الجميع بلا حراك. رائحته حرّيفة نغزت أنفه: آخر الروائح التي اشتمّها رائحة الطماطم المجفّفة النفّاذة. كانت النساء قد نصبنَ على الشرفات ألواحًا خشبيّة فرشَت عليها ثمار الطماطم بعد أن شُقّت كلّ منها إلى أربع قطع. كانت الشمس تيبّسها، فتذوي وتنكمش بمضيّ الساعات، كأنّها حشرات، وتنبعث منها رائحة حرّيفة حامضة. «الطماطم التي تجفّ على الشرفات سوف يُكتب لها البقاء من بعدي».

فجأةً ضربه حجرٌ عند قمّة رأسه. لم يقوَ على الالتفاتِ نحو مصدر الحجر. وبذلَ جهدًا لكي لا يقع عن ظهر حماره. «هكذا إذًا، قالَ في سرّه منتهزًا ما تبقّى له من هنيهات، هكذا

سيقتلونني إذًا. رجمًا كالمنبوذ». حجرٌ ثانٍ أصابه عند الصدغ. فترنح، هذه المرّة، من قوّة الضربة. ثمّ وقعَ فوق الترابِ وقد علقت رِجلاهُ في الرِكاب. سالت الدماء غاشيةً عينيه. كان صياح النسوة مازال يتردّد من حوله. وحَميّة الرجال تزداد استعارًا. كلٌّ يلتقط حجرًا. والكلُّ متحرّقٌ لرجمه. وابلٌ من الأحجار أمطر جسمَه. كان يحسّ بأحجار النَجعِ الساخنة وهي تطحن عظامَه. ملتهبةً لاتزال من سعير الشمسِ ناثرةً في الأرجاءِ شميمَ التلال اليابس. كان قميصه مبلّلاً بدماء حارّة ولزجة. «إنّي طريح الأرض. لا أقاوم. هيّا ارجموا. ارجموا. لن تقتلوا فيّ شيئًا لم يكن مقتولاً من قبل. ارجموا. خارت قواي. ودمي ينزفُ هاربًا. مَن منكم سيرمي الحجر الأخير؟». الغريب أنّ الحجرَ الأخير لم يأت. حَسِبَ لبرهةٍ أنّ الرجال، لفرطِ قسوتهم، يودّون أن يطولَ احتضاره، غير أنّه كان مخطئًا في حسبانِه. إذ هرع الكاهن ليقفَ حائلاً بين الرجال وفريستهم. كان ينعتهم بالوحوش ويأمرهم بالكفّ عمّا يفعلون. ومالبثَ لوتشيانو أن شعرَ بوجوده راكعًا بقربه، وأنفاسُه الهامسةُ تتردّد في أذنيه: «أنا هنا، يا بُنيّ. أنا هنا. أصمد. دون جورجيو سيُعنى بأمرك». لم يُستأنف قذفُ الحجارة وكان لوتشيانو مسكالزوني يودّ لو يبعد الكاهنَ عنه لكي يُجهز أهل مونتيبوتشيو عليه، غير أنّ قواه الخائرة حالت دون ذلك. لم يكن تدخّل الكاهن مجديًا، إلاّ لإطالة أمدِ احتضاره. فليرجمه الحشد بِغِلّ وقسوة، ولتطأ جسدَه الأقدامُ، ولينتهِ الأمر. هذا ما أراد أن يقوله لدون جورجيو غير أنّه لم يقوَ على النُطق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لو لم يقف كاهن مونتيبوتشيو حائلاً بين الحشدِ والضحيّة، لمات لوتشيانو مسكالزوني قرير العين. مبتسمًا. كالفاتِحِ المكلّل بالظفرِ الذي قضى في ساحة الوغى. غير أنّ احتضاره طالَ بعض الشيء. كانت حياته تنسلّ منه رويدًا وتسنّى له أن يسمعَ ما كان أحرى به ألاّ يسمعه أبدًا.

إذ حالَ الكاهنُ دون تماديهم بفعلتهم، راح القرويّون الذين احتشدوا حول الجسد الدامي يمطرونه بالسُباب والشتائم. كان لوتشيانو لايزال قادرًا على سماع أصواتهم كأنّها آخر أصداء هذا العالم. «لعلّ هذا يُنسيك الرغبة في العودة إلى القرية مجدّدًا». لقد حذّرناك يا لوتشيانو، من أنّ هذا اليوم هو يوم حتفك. ثمّ تناهت إلى سمعه تلك العبارة التي ارتجّت لها الأرضُ من تحته: «إيماكولاتا هي آخر امرأة تغتصبُها، يا ابن الخنزيرة». سَرتْ رعدة في جسد لوتشيانو الخائر. وخلف أجفانه المطبقة ترنّحت روحُه. إيماكولاتا؟ لماذا قالوا إيماكولاتا؟ مَن تكون هذه المرأة؟ لقد ضاجع فيلومينا. وتتالت صور الماضي أمام عينيه. إيماكولاتا. فيلومينا. كانت صور الماضي تختلط بضحكات الحشد الكاسرة. مَثُلَ كلّ شيء أمام عينيه. وأدرك حقيقة الأمر. وبينما واصل الرجال، من حوله، حَفلَ شماتتهم، كان هو يفكّر:

«تفصيل بسيط حال دون موتي قرير العين... بالكاد هنيهة. هنيهةٌ زائدة... لقد أحسستُ بوقع الأحجار على جسدي. كان إحساسًا محبّبًا إلى نفسي... فعلى هذا النحو أردتُ أن تجري الأمور. الدماء التي تسيل. الحياة التي تنسلّ هاربةً. وبَسمَتي،

إلى النهاية، لكي أغيظهم... كاد المؤمّلُ أن يكون حقيقةً لكنّ الحياة واجهتني بعثرة أخيرة... أسمع ضحكاتهم من حولي. رجال مونتيبوتشيو يضحكون. ويضحك التراب الذي يشرب دمي. الحمار يضحك، والكلابُ تضحك أيضًا. هوذا لوتشيانو مسكالزوني الذي كان يظنّ أنّه يضاجع فيلومينا ففضّ بكارة أختها. هوذا لوتشيانو مسكالزوني الذي كان يعتقد أنّه سيموت مظفرًا وإذا به يرقد ها هنا، فوق الترابِ وعلى وجهه ارتسمت تشنّجات المهزلة... جعلني القَدَرُ ألعوبته. مُستمتعًا. والشمسُ تضحكُ من هفوتي... عبثًا أهدرتُ حياتي. عبثًا أهدرتُ موتي... أنا لوتشيانو مسكالزوني، إني أبصقُ على القَدَر الذي يهزأ بمصائر البشر».

كانت إيماكولاتا هي فعلاً المرأة التي ضاجعها لوتشيانو. فقد توفيت فيلومينا بيسكوتي جرّاء انسداد رئوي بعيد اعتقال مسكالزوني. وانتقلت شقيقتها الصغرى، إيماكولاتا، آخر الأحياء من آلِ بيسكوتي، للعيشِ في منزل العائلة. انقضى زمنٌ طويل. سنوات السجن الخمس عشرة. ومع الوقت كانت إيماكولاتا تزداد شبهًا بأختها. وصارت قسمات وجهها هي القسمات التي كان وجه فيلومينا ليكتسبها لو قيض لها أن تتقدّم في السنّ. بقيت إيماكولاتا عانسًا. وبدا لها أنّ الحياة تخلّت عنها وأنّها لن تعرف تبدّلاً في حياتها إلاّ تعاقبَ الفصول. خلال أعوامها العجاف تلك، كانت تفكّر أحيانًا في ذلك الرجل الذي ثابرَ، وهي طفلة بعدُ، على التودّد لشقيقتها البكر، ولطالما سَرَت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نشوة في جسمها كلّما فعلت. كان مُرعبًا. بَسمةُ الأشقياء على شفتيه لا تفارق مخيّلتها. وذكراهُ أشبه بِسَكرةِ الهِياج.

عندما فتحت الباب، بعد خمس عشرة سنة، ورأت ذاكَ الرجل ماثلاً أمامها صامتًا، أيقنت أنّه ينبغي لها، بطبيعة الحال، أن ترضخ لمشيئة القَدَر العمياء. كان الشقيّ هناك. قبالتها. وهي هناك لم تَنَل من تجاربِ الحياةِ شيئًا. سكرة الحواس ملء يديها. فيما بعد، عندما وقفت أمامه عاريةً في الحجرة، وراح يردّد اسم أختها همسًا، امتقعَ وجهها. وأدركت فجأة أنّه يحسبها الأخرى. فاحتارت لهنيهات في أمرها. هل ينبغي لها أن تصدّه؟ أن تكشف له الحقيقة؟ لا، لن تفعل. كانَ هناك، أمامها. وإذا كان ظنّه بأنّها أختها سيضاعف متعته، فهي مستعدّة تمامًا لأن تمنحه هذا الترف، من دون رياء. كانت ترضخ لكلّ ما يبتغيه، فقط، لتكون امرأةَ رجُلٍ، ولو مرّة واحدة في حياتها.

كان دون جورجيو قد شرع بتلاوة صلوات المسحة الأخيرة على المحتضِر. غير أنّ لوتشيانو لم يكن مصغيًا، فقد كان الغيظُ يعمي ما تبقّى من بصيرته.

«أنا لوتشيانو مسكالزوني أموتُ مُهانًا. صرفتُ عمري بأكمله لكي أشهدَ هذه المهزلة. ومع ذلك، لن يُغيّر هذا من الأمر شيئًا. فيلومينا أو إيماكولاتا. ما الفرق. لقد نلتُ مبتغاي. مَن يستطيع أن يفهم ما جرى؟... لقد سكنت هذه المرأة خيالي طيلة خمسة عشر عامًا. ولخمسة عشر عامًا لازمني حلمُ هذه المضاجعة ومقدار اللذّة التي ستوفّرها لي. فور خروجي من السجن، فعلت

ما كان ينبغي لي أن أفعل. قصدتُ ذلك المنزل، وضاجعتُ المرأة التي وجدتها فيه. كان ينبغي أن أفعل. خمسة عشر عامًا وأنا لا أفكّر إلاّ في هذا. لكنّ القدر شاء أن يسخر منّي، فمن يستطيع أن يعاند القَدَر؟ ليسَ في طاقتي أن أعكسَ مجرى الأنهر أو أن أخمدَ ضياء الأنجم... كُنتُ إنسانًا. واكتفيتُ بما يسع الإنسانَ لا أكثر. ذهبتُ إلى هناك، وطرقت الباب وضاجعت المرأة التي فتحت لي الباب... لم أكن سوى إنسان. أمّا أن يسخر القدر منّي، فأمرٌ لا أستطيع ردّه... أنا لوتشيانو مسكالزوني، ها أنذا أهبطُ إلى أعماقِ الموتِ لكي أزجرَ عن مسامعي أصداء العالم الذي يهزأ بي...».

ماتَ قبل أن يُنهي الكاهن صلاته. وكان ليضحك لو أنّه علم، قبل موته، بما ستنجبه أحداث ذلك النهار.

حبلت إيماكولاتا بيسكوتي. وستلد المسكينة ابنًا. ومع هذا الابن تولد سلالة آل مسكالزوني. من غلطة، من سوء تفاهم، من أب شقيّ قُتِلَ بعدَ ساعتين من إنزاله البذرةَ، ومن عانسٍ احتضنت رجلاً للمرّة الأولى في حياتها. هكذا ولدت أسرة مسكالزوني، من صلبِ رجلٍ ارتكب هفوةً، ومن رحم امرأة تغاضت عن تلك الكذبة لأنّ الرغبة عصفت بكيانها.

كانت سلالة ستولد في ذلك اليوم الحارق، لأنّ القدر شاء أن يلهوَ بمصائر البشر، كما تلهوَ القطط أحيانًا، من أطرافِ قوائمها، بالعصافير الجريحة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الريحُ تعصفُ. يُميّلُ هبوبُها العشبَ اليابسَ سويّةَ الأرضِ ويُعوِلُ بين الأحجار. هبوبٌ حارّ يجرفُ معهُ أصداء صخبِ القرية والروائح البحريّة. إنّي عجوزٌ وجسمي يُصدِرُ طقطقةً كجذوع الأشجارِ إذ تعصفُ بها الرياح. يُرهقني تعبي. الريح تعصفُ بي فأتكئ عليكَ كي لا ترنّح قامتي العثراتُ. بلُطفٍ تجعلُ ذِراعَكَ متكأً. مازلتَ أنتَ في شرخِ الشباب. أتحسّس العافية المطمئنّة لجسدك. سنمضي حتّى النهاية. ولن يُقعدني تَعَبٌ مادمتَ سَنَدي. تصفر الريحُ في أذنيّ وتودي ببعض أقوالي. لا تسمع جيّدًا ما أقول. لا تقلق. إنّما ذلك من حسنِ طالعي. فالأجدر أن تودي الريح ببعضِ أقوالي. يُسرٌ ما بعده يُسر بالنسبة لي أن تودي الريح ببعض ما أقول. لم أعتد الكلام. أنا من آلِ سكورتا. أنا وإخواني كنّا أولاد البكماء وكان أهل مونتيبوتشيو يجمعون على نعتنا بالصموتين.

أعلمُ أنّك تغالبُ دهشتَكَ إذ تسمعني مسترسلةً في الكلام. إنّها المرّة الأولى التي أحكي فيها منذ زمن، زمنٍ بعيد. لقد قَدِمتَ إلى مونتيبوتشيو منذ عشرين عامًا، وربّما أكثر، ولطالما وجدتني مقيمةً على صمتي. وظَنَنتَ، كما يظنّ أهل مونتيبوتشيو، أنّني غُصتُ في مياه الشيخوخة الجليديّة وأنّني

أبدًا لن أعود منها. وإذا بي آتي إليك هذا الصباح، وأستأذنكَ بالحديث معك، فَتعجبُ لسؤالي. كأنّ كلبًا أو جدار بيتٍ جعلَ يتكلّمُ فجأة. لم تكن تحسب أنّ مثل هذا الأمر ممكن. ولذلك قبلتَ بهذا الموعد. أردتَ أن تعرف ما الذي تودّ كارميلا العجوز أن تقوله، وأردتَ أن تعرف لماذا أتيت بك إلى هنا، في ساعات الليل. تجعلُ ذراعَكَ متكأً لي فأسلكُ بكَ هذا الدرب الترابي. ابتعدنا عن الكنيسة التي أصبحت إلى يسارنا. وغادرنا حدود القرية فازددتَ فضولاً. أشكرك على ما تبديه من فضول، يا دون سالفاتوري، فهو يحثّني على المضيّ قُدمًا.

سأخبرك لِمَ عاودتني الرغبةُ في الكلام. فذلك لأنّي بدأتُ، منذ الأمس، أفقد رشدي. لا تضحك. ما الذي يدعوكَ إلى الضحك؟ أنتَ تعتقد أنّ المرءَ لا يمتلك من صفاء الذهنِ ما يدعوه إلى القول إنّه بدأ يفقد رشده فيما هو يفقده حقًّا. ولكنّك مخطئ. على فراش موته قال أبي: «إنّي أحتضر»، ومات. إنّي أفقد رشدي. بدأ الأمر أمسِ. وباتت أيّامي معدودة. أمسِ، كنت أستعيد مجريات حياتي، كما اعتدت أن أفعل غالبًا. ولم أفلح في استذكار اسم رجلٍ كنتُ قد عرفتهُ جيّدًا فيما مضى. أفكّر فيه كلّ يوم تقريبًا منذ ستّين عامًا. أمسِ، نسيت اسمه. إذ استحالت ذاكرتي، لهنيهاتٍ، مساحةً بيضاء لا شأن لي بها. لم يدم الأمر طويلاً. وعاد الاسمُ كأنّه انبثق فجأة من غور سحيق. كورني. كان الرجل يُدعى كورني. لقد تذكّرت الاسم ولكن لمجرّد أنّني نسيته، ولو هنيهات، فهذا يعني أنّ ذهني بات مشوّشًا وأنّ كلّ شيء سيغيبُ عنه شيئًا فشيئًا. أعلم ذلك. لهذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جئت إليك هذا الصباح. إذ ينبغي لي أن أتكلّم قبل أن يطوي النسيانُ كلّ شيء. ولهذا أحضرتُ لك معي هذه الهدية. إنّه شيء أودّ أن تحتفظ به. وسأحدّثك عنه. سأحكي لك حكايته. أودّ منكَ أن تعلّقه على جناح الكنيسة، وسط النُذور. شيء له صلة بكورني. وأفضل مكان لَه هو أن يعلّق على جدار الكنيسة. لم أعد قادرة على الاحتفاظ به في منزلي، فقد أستيقظ ذات يوم غافلةً تمامًا عن قصّته وعن الشخص الذي اقتنيته لأجله. أودّ أن تحتفظ به في الكنيسة، وأن تعطيه إلى حفيدتي آنا، عند بلوغها سنّ الرشد. عندها أكون قد متّ أو جُنِنت. سوف تنفّذ وصيّتي وعندها أكون كمن يخاطبها عبر السنين. هاكَ. هذا هو. إنّه لوحٌ صغير من الخَشَب عَمِلتُ على بريه وصقلِه وكَسوِهِ باللكّ. في وسطه ثُبّتت تذكرة سفر بالباخرة، قديمة، نابولي ـ نيويورك، وتحت التذكرة، مدالية نحاسيّة حفرَت عليها عبارة تقول: «إلى كورني، الذي أرشد خطانا عبر شوارع نيويورك.» أنتَ الآن مؤتَمَنٌ عليها. فلا تنسَ. إنّي أتركها لآنا.

سأتكلّم يا دون سالفاتوري. ولكن ثمّة أمر أخير. لقد أحضرتُ معي سجائرَ لكي تدخّنَ بجانبي. أعشق رائحة التبغ. دخّن، أرجوك. سوف تحمل الريح الدخانَ إلى سماء المقبرة. أمواتي يعشقون رائحة التبغ. دخّن، يا دون سالفاتوري. فإن فعلتَ جلبتَ لكلينا الراحة والطمأنينة. سيجارة من أجل آلِ سكورتا.

أخشى الكلام. الهواء منعش، والسماء حانيةٌ كأنّها تصغي إلينا. دَعني أظنّ أنّني أتحدّث إليها وأنّك تكاد لا تسمع ما أقول.

II

لعنة روكو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على أثرِ تلك الولادة، لم تستعد إيماكولاتا عافيتها. كأنّ المخاضَ استنفدَ كلّ ما لتلك الفتاة العانس من قوّة. فالولادة حدثٌ يفوق طاقة ذلك الكائن التَعِس الذي عوّدته الحياة على السكونِ الضحلِ لسنواتها العجاف. واستسلمَ جسمُها في الأيّام التي تلت الوَضْع. كان نحولها المتزايد باديًا للعيان. تلازمُ فراشَها طوال النهار. وبين الفَيْنة والفَينة، تلقي بنظراتٍ خائفة على مهدِ الرضيع الذي لا تدري ماذا تفعل به. لم يكن في ما تبقّى لها من الوقتِ متّسعٌ، فبالكاد سمّت وليدها: روكو. ولم تفعل سوى ذلك. كونها أمًّا صالحةً أو أمًّا طالحةً لم تكن مسألةً ملحّة لديها. الأمر أبسط من ذلك بكثير: ثمّة كائنٌ بجانبها، لا يكفّ عن الحركة في القماط. كائنٌ لا يعرف إلاّ التطلّبَ، وهي لا تعرفُ، ببساطة، كيف تلبّي هذه الشهيّة التي لا تشبع. كان أبسط الحلول هو أن تموت ـ وهذا ما فعلته، ذات يومٍ مكفهرّ من أيّام أيلول.

استدعيَ دون جورجيو للسهرِ، على جري العادة، على جثمان العانس الراحلة طوال الليل. وكانت جارات لها قد تطوّعنَ لغسلها وإلباسها. نُقِل روكو الرضيع إلى الحجرة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المجاورة وانقضى الليل بين صلواتٍ وكبوات. وعند ساعات الصباح الأولى جاء أربعة فتيان لحملِ الجثمان ـ كان يكفي اثنان منهم لشدّة هزالها، لكنّ دون جورجيو أصرّ على ذلك مراعاةً للأصول ـ، وعلى الأثر اقتربت مجموعة النائحات من الأب زاماريلي وسألته إحداهنّ:

«إذًا، يا أبتي، هل ستتولّى الأمر بنفسك؟»

لم يفهم دون جورجيو القصدَ ممّا تقول.

«أن أتولّى ماذا؟ سأل قائلاً.

ـ أنتَ تعلم جيّدًا، يا أبتي.

ـ عمّ تتكلمين؟ قال الكاهن وقد عيل صبرُه.

ـ إماتة الطفل... هل ستتولّى الأمر بنفسك؟»

لَبِثَ الكاهنُ مذهولاً، عاجزًا عن النطقِ. وحيال صمته هذا، استجمعت العجوز كلَّ ما ملكت من الجرأة لتشرح له بأنّ القرية ارتأت بأنّ إهلاك الطفل هو أفضل الحلول. لقد ولد هذا الطفل من صُلبِ شقيّ، وأمّه توفيت للتوّ. ففي كلّ هذا علامة تشي بأنّ الربّ يقتصّ من ذاك الجُماع المخالف للطبيعة. فالأحرى أن يُقتَل الرضيع الذي كان، بأيّةَ حال، قد ولجَ الحياة من البابِ الخطأ. وبديهيّ جدًّا أن يقرّر أهل القرية أنّه، هو، دون جورجيو، أفضل من يقوم بهذه المهمّة، لأنّ في ذلك البرهان على أنّ إزهاق روح الطفل ليس من قبيل الثأر أو الجريمة، فيدا الكاهن طاهرتان، وإذا فعل فإنّما يعيدُ إلى الربّ طِرحًا لا محلّ له في هذا العالم. بذلت العجوز ما وسِعها لكي

تُخرجَ شرحَها المُسهَبَ بالقَدَرِ الأكبر من البراءة وحسن النيّة الظاهرين، بينما دون جورجيو يمتقعُ من شدّة الغضب وينطلقُ مسرعًا إلى ساحة القرية حيث يعلو صياحُه.

«أنتم عصبةٌ من الكفّار! لمجرّد أن تتبادر إلى أذهانكم مثل هذه الفكرة المقيتة لهوَ دليل على أنّ الشيطانَ يُقيمُ في وسطكم. إنّ ابن إيماكولاتا هو خَلق الله. وأكثر من أيّ واحد منكم. خَلق الله، هل تسمعون جيّدًا؟ ولتنزل عليكم اللعنات لو مسستم شعرةً من رأسه! أنتم تدّعون أنّكم مسيحيّون، لكنّكم لستم سوى بهائم. وتستحقّون أن أدعكم لقذارتكم وأن يقتصّ الربّ منكم. سوف يبقى هذا الطفلُ في حِمايَ، هل تسمعون؟ ومن يجرؤ على المساس بشعرةٍ من رأسِه لن ينجو من غضبِ الله. إنّ روائح القذارة والجهل تنبعث من هذه القرية بأسرها. عودوا إلى حقولِكم، واشْقوا كالكلاب لأنّكم لا تجيدون إلاّ كدّ الشقاء، واشكروا الربّ لأنّه يمنّ عليكم بالمطر بين الفينة والفينة، لأنّ المطر، حتّى المطر، كثير عليكم».

عندما أنهى كلامه، تركَ دون جورجيو أهلَ مونتيبوتشيو لذهولهم وعاد أدراجه لكي يُحضِر الطفل. وفي اليوم ذاته، نقله إلى سان جوكوندو، أقرب القرى المجاورة شمالاً، على الساحل. لطالما فرّقت العداوة بين القريتين، ولطالما خاضت الزمر المتناحرة من الجانبين معارك أسطوريّة فيما بينها. كان الصيّادون يتقاتلون في عرض البحر، إذ يتبادلون تمزيق الشِباك ونهبَ صَيْدِ اليوم. أودعَ الطفلَ لدى زوجين من الصيّادين وعاد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى رعيّته. وعندما أعربت روحٌ بائسة، ذات يوم أحد، عند ساحة القرية، عن قلقها حيال مصير الطفل، أجاب الكاهن قائلاً:

«وما شأنك أنتَ، أيّها المقرون؟ لقد كنتَ أوّل المتحمّسين لقتله، تأتيني اليوم قلقًا على مصيره؟ لقد حملته إلى أهلِ سان جوكوندو، لأنّ النَفَرَ منهم بألفٍ من أمثالكم».

طوال شهرٍ، رفض دون جورجيو أن يقيم قدّاسًا لأهل القرية. فلا قدّاس ولا مُناولة ولا اعتراف. «سأقوم بواجبي كاملاً عندما أرى مسيحيين في هذه القرية»، كان يقول لهم.

لكنْ مع الوقت خفّت نقمة دون جورجيو على الأهلين. وكان أهل مونتيبوتشيو يتزاحمون، كلّ يوم، وَجِلينَ كالتلاميذ بعد القَصاص، أمام باب الكنيسة. كانت القرية تنتظر، ذليلة، حتّى حلول **أحد الموتى**، ففتح الكاهن باب الكنيسة على مصراعيه، وقرعت الأجراس للمرّة الأولى إثر انقطاع طويل. «برغم كلّ شيء لا أستطيع أن أعاقب الموتى لخسّةِ أحفادهم»، غمغم دون جورجيو قائلاً. وأقيم القدّاس.

كَبُرَ روكو وصار رجلاً. كان قد حظيَ بكنيةٍ جديدة ـ مركّبةٍ من كنية والده وكنية الزوجين اللذين ربّياه ـ، كنية جديدة سرعان ما رسخت في أذهانِ الناس جميعًا في ناحية غارغانو: روكو سكورتا مسكالزوني. كان والده شقيًّا جوّابَ أفقٍ يتعيّش على السلبِ وأعمال اللصوصيّة الوضيعة، أمّا هو فكان قاطع طريق بما للكلمة من معنى. لم يعد إلى مونيبوتشيو إلاّ حين بلغ السنّ التي تمكّنه من زرعِ الرعبِ في أرجائها. كان يهاجم القرويين في حقولهم، يسرق الماشية، ويغتال الموسَرين الضالّين على الدروب. كان ينهب المزارع ويفرض الإتاوات على الصيّادين والباعة. هُرِعَ عددٌ من رجال الشرطة لمطاردته ولكنْ سرعان ما عُثِرَ على جثثهم على قارعة الطرقِ وقد أصيبوا برصاصةٍ في الرأس، ونُزعت عنهم سراويلهم أو علّقوا كالدمى على أشجار الصبّار. كان عنيفًا طمّاعًا. وقيل إنّه امتلكَ عشرين امرأة. عندما عظُمَ صيته ورسخَ، وتسيّد على المنطقة كما يتولّى سيّدٌ شعبَه، عاد إلى مونتيبوتشيو كأنّه لم يرتكب فاحشةً من قبل، حاسِرَ الوجه مرفوع الرأس. منذ عشرين عامًا لم تتغيّر مسالكها. بقي كلّ شيء على حاله في مونتيبوتشيو. ومازالت القرية الصغيرة على حالها، حفنة من البيوت المتجاورة المتلاصقة، سلالم طويلة تمتدّ متعرّجةً باتجاه البحر، وألف دربٍ محتمل عبر أزقّتها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المتشابكة. كان العجَائزُ يقطعون المسافة بين الميناء والقرية، هبوطًا أو صعودًا على السلالم، على إيقاعِ سير البغال البطيء إذ تقتصد البغالُ جهدها المبذول تحت الشمس الحارقة، بينما زرافات من الأولاد المتراكضين يهبطون الأدراج ويتسلّقونها بلا كلَل. كانت القرية تتأمّل البحرَ، وواجهةُ الكنيسة مطلّة على الموج، وكانت الرياح والشمس تصقلُ بعذوبةٍ رخامَ الأزقّة عامًا بعد عام. أقامَ روكو عند مرتفعات القرية. استولى على مساحةٍ شاسعة يشقّ الوصول إليها، وأنشأ عليها دارةً جميلة ومزرعةً مترامية. كان روكو سكورتا مسكالزوني قد غدا رجلاً ثريًّا. وإذا أتاه مَن يتوسّل إليه أحيانًا أن يعفوَ عن أهل القريةِ وأن يفرض ما يفرضه على القرى المجاورة، جاء جوابه على الدوام: «اخرس أيّها الفاسق. أنا قصاصكم».

ذاتَ شتاءٍ، قصَدَ روكو دون جورجيو. كان مصحوبًا برجلين عبوسين وصَبيّة بدت سمات الخوف على وجهها. كان الرجلان مسلّحين بغدّارات وبواريد. نادى روكو الكاهنَ وعندما خرج الأخير لملاقاته طلبَ منه أن يُزوّجه. فانصاع دون جورجيو لطلبه. وعندما سأل، في سياقِ المراسم، عن اسم الفتاة، شعر روكو بالحَرَج وهمَسَ مبتسمًا: «لا أدري، يا أبتي». ولمّا وقفَ الكاهنُ مذهولاً متسائلاً عمّا إذا كانت المراسم التي يؤديّها ليست في الحقيقة سوى تكريسٍ بالزواج لعمليّة اختطاف، أردف روكو قائلاً: «إنها صمّاء بكماء.

ـ أما من كنية؟ ألحّ دون جورجيو قائلاً.

ـ وما الفرق، أجاب روكو، عمّا قليل ستغدو من آل سكورتا مسكالزوني».

تابع الكاهنُ المراسمَ مُرتابًا في أنّ ما يفعله قد يكون خطيئة مميتة سيحاسبُه الربّ عليها. لكنّه بارك الزواج وأنهى المراسم بـ «آمين» متهدّجة كأنّه ينطقُ بالدعاءِ «يا ربّ» راميًا نرد الطالع على طاولة القمار.

لمّا همّت المجموعة بركوبِ مطاياها عائدةً أدراجها، استجمع دون جورجيو كلّ جرأته ونادى العريسَ الشاب قائلاً:

«روكو، ابقَ معي قليلاً. أودّ أن أتحدّث إليك».

رانَ صمتٌ مطبق. ثمّ أشار روكو على مرافقيه أن يغادرا مصطحبين عروسه. كان دون جورجيو قد استعاد في الأثناء شجاعته وصفاء ذهنه. شيء ما يُثير الحَيرةَ في شخصيّة هذا الشاب، شيء ما يُنبئه بأنّ الكلام معه قد يكون مجديًا. فهذا الشقيّ الذي يزرع الرعب في أرجاء المنطقة حَرصَ على التعاطي معه باحترام بالغ، باحترامٍ مشوبٍ بالخشونة لكنّه صادق بالتأكيد.

«أنا وأنت نعلم حقّ العلم كيف تحيا، قال الأب زامبانيلي. المنطقة بأسرها تتحدّث عن جرائمك. يمتقع الرجال لرؤيتك وترتسم النساء بشارة الصليب لدى سماع اسمك. تثير الرعب والفزع حيثما تذهب. فلماذا يا روكو تصرّ على إرهاب أهل مونتيبوتشيو؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ أنا مجنون، يا أبتي، أجاب الرجل.

ـ مجنون؟

ـ أنا ابن زنا، بائس ومجنون، بلى. وأنت أدرى بذلك. أنا ثمرة جُماعٍ بين جثّة وعجوز. لقد سخر الله منّي.

ـ الله لا يسخر من خلقِه، يا بنيّ.

ـ لقد خلقني بالعَكس، يا أبتي. لن تعترف بذلك لأنّك راعي الكنيسة، ولكنّك مقتنع بذلك، شأن الآخرين جميعًا. أنا مجنون. أجل. إنّي بهيمةٌ ما كان لها أن تولد.

ـ أنت ذكيّ. وبإمكانك أن تفرض احترامك على الناس بوسائل أخرى.

ـ أنا اليوم ثريّ يا أبتي. أوسع ثراءً من أيّ وغد من أوغاد مونتيبوتشيو، وهم يحترمونني لهذا السبب. غني أخيفهم، بلى، ولكنّ الخوف ليس هو المهمّ. ففي قرارة أنفسهم ليس الخوف هو ما يبدونه، بل الحسد والاحترام. لأنّني ثريّ. هذا ما يخلب ألبابهم. المال. المال. وأنا أملك من المال أكثر ممّا يملكون مجتمعين.

ـ أنت تملك كلّ هذا المال لأنّك سلبتهم مالهم.

ـ وأنت تطلب منّي أن أدع قرويي مونتيبوتشيو وشأنهم، لكنّك تجهلُ تمامًا كيف أفعل لأنّك لا تجد سببًا مقنعًا لذلك. أنت محقّ تمامًا، يا أبتي. ما من سبب يدعوني إلى العفو عنهم. لقد أرادوا قتلي وأنا طفل. إنّي قصاصهم. لا أكثر ولا أقلّ.

ـ إذًا، ما كان ينبغي لي أن أحولَ دون قتلك في ذلك

الوقت، أجابه الكاهن ـ الذي طالما أرّقته هذه الخاطرة. إذا كنت اليوم تسلب وتغتال كما يحلو لك، فكأنّني أنا من يسلب ويغتال. لقد أنقذت حياتك لكي تقترف كلّ هذه الذنوب.

ـ ليس لك يا أبتي أن تملي عليّ ما ينبغي لي أن أفعل.

ـ إنّي أشير عليك بما يأمرك الربّ أن تفعل.

ـ فليعاقبني إذا كانت حياتي مساسًا بمشيئته. ليخلّص مونتيبوتشيو من وجودي.

ـ روكو...

ـ البلايا، يا دون جورجيو. اسأل ربّك لِمَ يبتلي الأرض أحيانًا بالحرائق أو بالجفاف. أنا وباء، يا أبتي. لا أكثر ولا أقلّ. سرب جراد. زلزال، أو مرض مُعدٍ. أنقاض على أنقاض. أنا مجنون. مسعور. أنا الملاريا. الجوع. اسأل ربّك. أنا هنا. وهذا ما سأفعله ما كُتِبَ لي البقاء».

صمت روكو وامتطى حصانه ثمّ غادر. في الليلة نفسها، راح الأب زامبانيلّي، في عزلة صومعته، يدعو الله بكلّ حرارة إيمانه أن يملأ قلبَه بنورِ اليقين. يُريد أن يعلم إذا كان أحسنَ التصرّف عندما حال دون قتل الطفل. وتوسّل الجوابَ في صلواته غير أنّه لم يسمع إلاّ صمت السماء.

في مونتيبوتشيو تعاظمت أسطورة روكو سكورتا مسكالزوني. قيل إنّه إذا اتخذَ امرأةً خرساء كزوجةٍ له ـ خرساء لا تتمتّع حتّى بأيّ صفة من صفات الحُسن ـ ، فإنّما ذلك لكي يشبع غرائزه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحيوانيّة. لكي لا تقوى على الصراخ إذا ضربها أو اغتصبها. وقيل أيضًا إنّه اختار هذه المخلوقة البائسة لكي لا تسمع شيئًا ممّا يخطّط له في الخفاء، ولكي لا تفشي ما تعرفه عنه. خرساء، بلى، لكي يطمئنّ إلى كونها عاجزة عن خيانته. فمثلُ هذا التفكير خليقٌ بشيطان على شاكلته.

ولكن كان على أهل مونتيبوتشيو الإقرار أيضًا بأنّ روكو لم يتعرّض لأيّ منهم بسوء منذ زواجه. فقد وسّع دائرة نشاطه فشملت مناطق أخرى بعيدة في أنحاء بوليا. واستعادت مونتيبوتشيو بعض الهدوء والطمأنينة، مفاخرةً أحيانًا بإيوائها عَلَمًا مثله. ولم يغفل دون جورجيو عن التضرّع إلى الربّ شاكرًا صنيعه في إعادة الطمأنينة إلى القرية، معتبرًا أنّ في ذلك استجابة صريحة لصلواته.

أنجبَ روكو من الخرساء ثلاثة أولاد: دومينيكو، جيوسيبّي وكارميلا. وما عاد أهل مونتيبوتشيو يصادفونه إلاّ فيما ندر. فقد صار جوّابَ آفاقٍ يسعى إلى توسيع رقعة نفوذه بين المناطق، ولا يعود إلى مزرعته، إذا عاد إليها، إلاّ تحت جنحِ الظلام. فتلوحُ عندئذ أنوار الشموع، من بعيد، عبر النوافذ، وتتناهى أصداء الضحكات وصخب المآدب التي تستمرّ بضعة أيّام قبل أن يخيّم السكون مجدّدًا. كان روكو لا ينزل إلى القرية إطلاقًا. وتردّدت مرارًا شائعاتٌ عن مقتله أو اعتقاله، غير أنّها سرعان ما تُدحَضُ بولادةِ أحد أبنائه. كان روكو حيًّا يُرزَق، والبرهان على ذلك أنّ الخرساء تأتي إلى القرية لشراء حاجيّاتها فيتبعها الصِبيةُ في أزقّة البلدة القديمة. كان روكو حاضرًا بينهم ولكن كظلّ. غرباء يجتازون القرية أحيانًا صامتينَ. يجرّون بغالاً محمّلة بصناديق وبضائع. كانت كلّ هذه الخيرات تعبر أمام أعينهم باتجاه الدارة الساكنة عند قمّة الهضبة. روكو مازال حيًّا يُرزق، بالتأكيد، ما دامت قوافل الغنائم والمسروقات تعبر القرية نحو مكان إقامته.

أمّا أولاد آلِ سكورتا فكانوا يمضون معظم أوقاتهم في القرية، وإن كانوا يواجهونَ فيها بنوعٍ من العَزلِ المهذّب. كان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الناسُ لا يتعاطون معهم إلاّ بتحفّظ. ويوعزون إلى أولادهم ألاّ يشاركوهم ألعابهم. فكم ردّدت نساء مونتيبوتشيو على مسامع أولادهنّ: «يجب ألاّ تلعبوا مع هؤلاء الأولاد». وعندما يسألَ أحدهم لسذاجته عن السبب يُقال له: «إنّهم من آل مسكالزوني». رضخ الأولاد، في آخر الأمر، وتقبّلوا الوضع كما هو. فقد لاحظوا أنّه كلّما اقترب أحدهم مبديًا رغبته في مشاركتهم اللعبَ، ظهرت له امرأة، لا أحد يعرف من أين، وعاجلته بصفعةٍ ثمّ جرّته من ساعده صائحةً متوعّدة: «يا كيس القذارة، ألم تسمع ما أوصيتك به؟» فيبتعد المسكينُ باكيًا. لذلك كانوا يحرصون على اللعب بعيدًا عن آل سكورتا.

الولد الوحيد الذي اختلط بالمجموعة الصغيرة كان يُدعى رفايلي، وكان الجميع ينادونه باسم التحبّب: فايلوك. كان ابن عائلة صيّادين من أهل مونتيبوتشيو الفقراء. غدا رفايلي صديقًا لأولاد سكورتا لا يفترق عنهم متجاهلاً تحذير والديه، وكان والده يسأله لدى عودته مساءً مع مَن تسكّع طيلة النهار، ودائمًا يجيبُ: «مع أصدقائي». لذا كان والده يوسعه ضربًا كلّ مساء ويلعن السماء التي رزقته ولدًا جحودًا كولدِه هذا. أمّا إذا تغيّب الأب، فكانت الأم هي التي تطرح السؤال المعتاد، وتوسعه الضرب المبرح إيّاه. بقي رفايلي شهرًا على هذه الحال، ينالُ كلّ مساءٍ جزاءَ عصيانه، غير أنّ الولد كان مقيمًا على وفائه لا يجد ما يفعله سحابةَ نهاره إلاّ بصحبة رفاقه. وبمضيّ الشهر تعب والداه من تأديبه وكفّا عن السؤال. ألغيا من حسابهما أنّ لهما ابنًا، مُسلّمَيْن بأنّ لا رجاءَ يُرجى من ذريّتهما. باتت أمّه تنعته بالشقيّ، وتخاطبه إذا جلسوا إلى مائدة الطعام قائلةً:

«ناولني الخبز أيّها الشقيّ،» وكانت تعني ما تقول وليس من قبيل السخرية أو الدعابة، بل كأنّها تناديه باسمه. فقد ضلّ الولد سواء السبيل والأحرى ألاّ يحظى منها بمعاملة الأمّ لولدها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذات يوم من شهر شباط عام ١٩٢٨، ظهر روكو فجأةً في السوق. جاء برفقة الخرساء وأولاده الثلاثة، وقد ارتدوا جميعًا ملابس تليقُ بأيّام الآحاد والأعياد. أذهل ظهوره المفاجئ القرية بأسرها. فمنذ مدّة لم يلمحه أحد، وإذا به قد جاوز الخمسين من عمره، قويّ البنية، أرخى لحيته المشذّبة التي خالطها الشيب فحجبت خدّيه الضامرين. نظرته لم تتبدّل. فمازالت تشي، بين الفينة والفينة، بالحمّى التي تعتمل فيها. بدا أنيق المظهر نبيلَ الطلعة. أمضى النهار كلّه في القرية، متنقّلاً من مقهىً إلى مقهى، متقبّلاً الهدايا التي قدّمت إليه، مُستمعًا إلى مطالب الناس، هادئًا كأنّ ازدراءه لأهل القرية قد تبدّد فجأة. كان روكو هناك، متنقّلاً بين مناضد الباعة ـ فيما الجميع ينظرون ويردّدون، في سرّهم، إنّه، برغم كلّ شيء، قد يكون أصلح الناس لتولي منصب العمدة.

انقضى النهار بسرعة، وتساقط رذاذ مطر بارد على أرضيّة الباحة. عاد آل سكورتا مسكالزوني إلى دارتهم ـ مخلّفين وراءهم حيرة القرويين حيال هذا الظهور المفاجئ. ومع حلول الليل راح المطر يهطلُ بغزارة. اشتدّ البردُ وهاج البحر،

وراحت الأمواج تتلاطمُ غامرةً صخور الجرف.

كان دون جورجيو قد تناول للتوّ طعام العشاء المكوّن من حساء البطاطا. لقد شاخَ هو أيضًا، وانحنى ظهره، وبات محظورًا عليه أن يقوم بأشغاله المعتادة ـ كأن ينكش قطعة الأرض التي يزرعها بالبقول، أو يقوم بأعمال النجارة والترميم التي تتطلّبها كنيسته. نحُل جسمه حتّى الهزال، كأنّ الموت قبل أن يخطف الناسَ يحتاج إلى تخفيف أوزانهم. كان عجوزًا لكنّ أبناء رعيّته أقاموا على احترامه حتّى إذا سمع أحدهم باحتمال أن يُستبدَل بكاهن آخر تطيّر وقالَ تُفًّا.

طُرقَ بابُ الكنيسة، فأجفل دون جورجيو. اعتقد في البداية أنّه متوهّم ـ وأنّ الطرقَ سببه المطر الغزير ـ لكنْ سرعان ما عَنُفَ الطرقُ متتابعًا، فقفز من فراشه ظنًّا منه أنّهم ربّما أتوا في طلبه من أجلِ محتَضِرٍ ينتظر المسحة الأخيرة.

فوجئ بروكو سكورتا منتصبًا عند الباب، وقد بلّله المطر من رأسه حتّى قدميه. لبث دون جورجيو في مكانه، هنيهاتٍ، لا يحرّك ساكنًا، متفرّسًا في وجهِ الرجل الذي بدّلت السنوات من ملامحه. لقد عرفه على الفور، لكنّه أراد أن يتأمّل في صنيع الزمن ـ كما يُمعَن النظرُ في صنيع صائغ.

«أبتي، قال روكو أخيرًا.

ـ هيّا أدخل، أدخل، أجاب دون جورجيو. ما الذي أتى بك؟»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حدّق روكو في عيني الكاهن العجوز مباشرة وبصوت رقيق لا يخلو من الحزم، أجاب قائلاً:

«لقد جئتُ لأعترف».

هكذا بدأت، في كنيسة مونتيبوتشيو، جلسة الاعتراف، وجهًا لوجه، بين دون جورجيو وروكو سكورتا مسكالزوني. بمضيّ خمسين عامًا على توسّط الأوّل لإنقاذ حياة الثاني، وبعد أن فرّقت الأيّام بينهما منذ أن عقد الكاهن قرانه على زوجته الخرساء. وبدا أنّ الليل الطويل لن يتّسع لما بين الرجلين من كلام.

«مستحيل، أجاب دون جورجيو.

ـ يا أبتي...

ـ لا.

ـ يا أبتي، ردّد روكو بنبرة حازمة، بعد فراغي من حديثي إليك، سأعود إلى داري، حيث سأستلقي على الفراش وأموت. صدّقني. إنّي أخبرك بما سيكون، لا تسألني لماذا. هذا ما سيكون. لقد دنت ساعتي. أعلم ذلك. ها أنذا أمامك وأريد أن تسمعني لأنّك خادم الربّ ولا يسعك أن تقوم مقامه».

لبث دون جورجيو مشدوهًا لما تنمّ عنه عبارات محدّثه من هدوءٍ وحزم، ولم يبقَ أمامه إلاّ أن يرضخ لمطلبه. ركع روكو في شبه العتمة المخيّمة على أرجاء الكنيسة وتلا «أبانا» مطرقًا خاشعًا، ثمّ نظر إلى الكاهن وشرع في الكلام. روى كلّ شيء، كلّ جريمة من جرائمه، كلّ إساءة. لم يخفِ تفصيلاً. لقد قتل،

ونهب، واغتصب امرأةَ قريبه. عاشَ زارعًا النار والرعب. وحياته كلّها عبارة عن سرقات وأعمال عنف. لم يكن دون جورجيو قادرًا على تمييز ملامح وجهه بسبب العتمة، غير أنّه استسلم لنبرة صوته وإيقاعه، متقبّلاً تلك السلسلة الطويلة من الخطايا والجرائم التي تخرج متتابعةً من فم هذا الرجل. كان ينبغي له أن يسمع كلّ شيء. ولساعات راح روكو سكورتا مسكالزوني يفصّل لائحة جرائمه الطويلة. عندما فرغ من كلامه، شعر الكاهن بما يشبه الدوار. كان الصمت قد أطبق عليهما مجدّدًا، واحتار الكاهن في أمره. فما الذي قد يقوله أو يفعله بعد تلك الأهوال التي سمعها؟ سرت رعدة في يديه.

«لقد سمعتك، يا بنيّ، غمغمَ آخر الأمر قائلاً، وما كنت لأحسب أنّني ذات يوم سأسمع مثل هذا الكابوس. لقد جئتني وأصغيت إليك. فلا سلطة لي تخوّلني رفض الإصغاء لخلقِ الله، أمّا أن أحلّك من خطاياك فهو أمرٌ ليس بيدي. أنا لا أستطيع أن أمنحك الغفران، سوف تقابل ربّك، يا بنيّ، وسوف تواجه غضبه.

ـ إني بَشَرٌ»، أجاب روكو قائلاً. ولم يدر دون جورجيو إذا كان يعني بقوله هذا إنّه لا يخشى شيئًا أو إنّه يسأل الغفران. كان الكاهن العجوز متعبًا، فنهض. كان متقزّزًا ممّا سمعه ويرغب في الانفراد بنفسه، لكن صوت روكو تناهى إليه مجدّدًا.

ـ «لم أنهِ كلامي بعدُ، يا أبتي.

ـ ماذا هناك بعدُ؟ سأل دون جورجيو.

ـ أودّ أن أتركَ هبةً للكنيسة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ أيّة هبة؟

ـ كل شيء، يا أبتي. كلّ ما أملك، كلّ الثروة المتراكمة على مرّ السنين، كلّ ما يجعل منّي أنا اليوم الرجل الأوسع ثراءً في مونتيبوتشيو.

ـ لن أقبل شيئًا منك. مالُك يقطر دمًا. فكيف تجرؤ حتّى على التفوّه بمثلِ هذا الطلب؟ بعد هذا الذي سمعته منك، أعد المال لمن سلبتهم إيّاه إذا كان الندم يقضّ مضجعك.

ـ أنت تعلم جيّدًا أنّ هذا الأمر مستحيل. فمعظم الذين سلبتهم أموالهم ماتوا. أمّا الآخرون، فكيف لي أن أجدهم؟

ـ عليك إذًا أن توزّع هذا المال على أهل مونتيبوتشيو، على الفقراء، على الصيادين وأسَرِهم.

ـ هذا ما أفعله حين أهبك المال. فأنت الكنيسة وأهل مونتيبوتشيو جميعًا هم أولادك. ولك أنتَ أن توزّع المال عليهم. لو وهبتُ أنا هذا المال، في حياتي، لكنت بذلك أهبُ الناسَ مالاً حرامًا وأجعلهم بفعلتي هذه شركاء في جرائمي. أمّا إذا فعلت أنت، فالأمر يختلف كلّ الاختلاف. بين يديك أنت يصبح هذا المال مباركًا».

ما سرّ هذا الرجل؟ كان دون جورجيو يردّد في سرّه وقد أذهله ما سمعه من روكو. ذكاء، ووضوح، والقائل لصّ أمّيّ. عندها راح يفكّر في ما كان ليصبح عليه روكو سكورتا لو اختلفت الظروف. رجلاً محبّبًا إلى النفس، جذّابًا، وفي عينيه ذاك البريق الذي يدعوك إلى اتباعه ولو إلى آخر الأرض.

ـ «وماذا عن أولادك؟ أردف الكاهن قائلاً. بذلك تضيف إلى قائمة جرائمك جريمة أخرى هي حرمان أولادك من الميراث؟»

ابتسم روكو وأجاب بهدوء.

«ليس أحسن الهبات أن تورّث أولادك مالاً حرامًا. فذلك أشبه بحثّهم على اعتياد الخطيئة».

كانت الحجّة مقنعة، لا بل مُفحِمة. وشعر دون جورجيو بأنّ ما يدور بينهما ليس أكثر من تمارين بلاغيّة على استنباط الحجّة والحجّة المقابلة. كان روكو يستعرض الحجّة مبتسمًا، ما يعني أنّه لا يؤمن بما يقوله.

ـ «ما هو دافعك الحقيقي؟» سأل الكاهن بنبرة صارمة لا تخلو من بعض الحَنَق.

عندئذٍ قهقه روكو ضاحكًا. وكان ضحكه مسموعًا ومتصلاً فامتقع وجه الكاهن العجوز. كان يضحك كشيطان.

«دون جورجيو، قال روكو بين قهقهتين، دعني أموت محتفظًا ببعض أسراري».

لن ينسى الأب زامبانيلي هذه الضحكة لما تبقّى من عمره. ضحكة هي بمثابة اعتراف بكلّ شيء. رغبة في الانتقام، كالهاوية، لا تشبع. ولو كان باستطاعة روكو أن يُهلِكَ معه عائلته لما تردّد. فكلّ ما تربطه به صلة ينبغي أن يموت معه. كانت تلك الضحكة هي جنون رجلٍ يبتر أصابعَ يديه. ضحكة الجريمة المرتكبة في حقّ الذات.

«هل أنتَ مُدركٌ تمامًا لما تعرّضهم له بعد موتك؟ سأل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكاهنُ مرّة أخرى، رغبةً منه في استنفادِ موضوع نقاشهما.

ـ أجل، أجاب روكو ببرودة، أعرّضهم للعيش، من دون راحة».

شعر دون جورجيو بتعبِ المهزومين.

«ليكن، قال. أنا أقبل الهبة. كلّ ما تملك. ثروتك بأكملها. ليكن. ولكن لا تحسب أنّك بذلك سوف تحظى بالغفران.

ـ لا يا أبتي. إنّي لا أشتري راحتي. فما من راحة لي. مقابل الثروة أريد شيئًا آخر.

ـ ماذا؟ سأل الكاهن وقد وهَنت قواه تمامًا.

ـ إنّي أهب الكنيسة أكبر ثروة عرفتها مونتيبوتشيو. ومقابلها، أطلب أن يحظى أفراد عائلتي، مهما بلغ بهم العَوَز من الآن فصاعدًا، بجنازات تليق بالأمراء. هذا كلّ ما أطلبه. سوف يعيش آل سكورتا، من بعدي، في العَوَز والبؤس لأنّني لا أترك لهم مالاً. ولكنّهم سيحظون بجنازات فخمة لم يحظَ بها سواهم. وعلى الكنيسة التي أهبها كلّ ما أملك أن تعمل على تنفيذ هذه الوصيّة. فلتدفنّا، واحدًا تلو الآخر، بمواكب جنائزيّة. ولا تأخذ مطلبي هذا على محمل السوء يا دون جورجيو، فليس الغرور ما يحدوني إلى ذلك. بل من أجل مونتيبوتشيو. سوف أنشئ سلالةً من الفقراء المُعدمين، وسوف يُلاقون الازدراء. إنّي أعرف أهل مونتيبوتشيو حقّ المعرفة. إنّهم لا يُجِلّون إلاّ المال. فسُدّ أشداقهم بدفنكَ الفقراء منهم بمراسم تليق بالأسياد. «**الآخِرون هم الأوّلون**». فليصحّ ذلك

في مونتيبوتشيو على الأقلّ. من جيلٍ إلى جيل. ولتوفّ الكنيسةُ عهدها، ولينحنِ أهل مونتيبوتشيو أمام جنازة آل مسكالزوني».

كانت عينا روكو تلمعان بذلك البريق الذي يوحي بأنّ شيئًا لن يقاوم سطوته. ذهب الكاهن العجوز لإحضار ورقة ودوّن على الورقة شروط الاتفاق. وعندما جفّ حبر الاتفاق أعطى روكو الورقة وارتسم بشارة الصليب قائلاً: «على هذا كان العهد بيننا».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت الشمسُ تُلهِبُ واجهة الكنيسة منذ بعض الوقت، وطوفانُ النورِ يغمر البِقاع. وكان روكو سكورتا ودون جورجيو قد أمضيا ليلتهما وهما يتحدّثان، ثمّ افترقا بصمت، من دون عناق، كأنّهما سيلتقيان مجدّدًا في الليلة نفسها.

عاد روكو إلى دارته. كانت عائلته قد استيقظت منذ بعض الوقت. لم ينبس بحرف. مرّر أصابع يده عبر شعر ابنته، كارميلا الصغيرة، التي فاجأتها لمسةُ الحنان غير المألوفة تلك ورمقته بنظراتٍ متنبّهة، ثمّ أوى إلى فراشه. ولم ينهض بعدها. رفض أن يستدعوا طبيبًا لأجله. وعندما أدركت الخرساء أنّ النهاية وشيكة، وهمّت باستدعاء الكاهن، استوقفها ممسكًا بذراعها وقال لها: «دعي دون جورجيو نائمًا. لقد أمضى ليلةً عصيبة». لكنّه وافق، بمشقّة كبيرة، أن تأتي زوجته بعجوزين تشاركانها السهرَ بقربه. العجوزان هما اللتان أذاعتا الخَبَر.. «روكو سكورتا يحتضر. روكو سكورتا على فراش الموت». لم يصدّق أهل القرية في البداية. فكلّهم يذكرون أنّهم رأوه أمسِ أنيقًا مُقبلاً على الناس وفي تمام عافيته. فكيف استطاع الموت أن يتسرّبَ إلى عظامِه بهذه السرعة؟

سرى الخَبَرُ في النواحي. وفي آخر الأمر، قرّر أهل

مونتيبوتشيو، بداعي الفضول، الصعود إلى دارة آل سكورتا لكي يتبيّنوا حقيقة الأمر. كان عدد كبير من الفضوليين يتدافعون حول المنزل في صفّ طويلٍ يطوّقه، ولم يلبث أكثرهم فضولاً أن دخلوا المنزل قبل أن يتبعهم جميع الباقين. جمهرةٌ من الفضوليين أمّت المنزل ولا أحد يدري إذا قَدِموا تكريمًا للميت أم، على العكس، للتثبّتِ، شأن الشامتين، من أنّ الرجل يُحتَضَر فعلاً.

عندما رأى روكو جمهرة الفضوليين، أنهضَ جذعه عن السرير واستوى جالسًا. بذل آخرَ ما تبقّى له من قوّة. كان وجهه شاحبًا أبيضَ، وجسمُه هزيلاً ضامرًا. راح يتأمّل الناس من حوله، واحتقنت عيناه بشرَر الغضب، فجَمُد الجميع لا يحرّك أحدٌ منهم ساكنًا. عندئذ شرع المحتضر في الكلام:

«إني موشكٌ على ولوج القبر. قائمة جرائمي هي أذيال طويلة أجرجرها خلف عقبيّ. أنا روكو سكورتا مسكالزوني. أبتسم بكلّ فخر. تتوقّعون منّي ندمًا على ذنوبي. تتوقّعون أن أركع على ركبتيّ داعيًا مُستَغفرًا. أن أتوسّل رحمة الإله الربّ طالبًا الغفران ممن أسأت إليهم. أقولُ لكم تُفًّا. إنّ رحمة الله مياه وديعة يغسل بها الجبناء وجوههم. أنا لا أطلب شيئًا. وأعلم جيّدًا ماذا أصنع. أعلم ما الأفكار التي تراودكم. تذهبون إلى كنائسكم. وتشاهدون لوحات جهنّم الجداريّة التي رُسِمت خصّيصًا لمخاطبة عقولكم الساذجة، حيث صغار الشيطان يجرّون الأرواحَ المدنّسة من أرجلها، وحيث المسوخ المقرونة، المفلوقة الرأس، ذات أظلاف الكَبش، تمزّقُ بغبطةٍ أجساد أهل النار، تخوزقهم، تنهشهم، وتلوي عظامهم كأنّهم دمى. يسأل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الملعونون الغفرانَ، يركعون، يتوسّلون كالنسوة. غير أنّ الشياطين ذوي العيون البهيميّة لا يعرفون الرحمة. وهذا ما يُثلِج صدوركم، لأنّ الأمور ينبغي أن تكون على هذا المنوال. يُعجِبُكم ما ترونه فيها لأنّكم تؤمنون بأنّها تجسّد العدل والإنصاف. إنّي موشكٌ على ولوج القبر، وأنتم تعتقدون أنّني مقبلٌ على السقوط المتمادي في لجّة الصراخ والعذاب هذين. سوف يُبتلى روكو قريبًا بمثل عذاب اللوحات الجداريّة التي نراها في كنائسنا، تقولون في قرارة أنفسكم. وإلى أبد الآبدين. ومع ذلك لا أرتعد. أطالعكم بابتسامة؛ تلك الابتسامة التي طالما جمّدت الدماء في عروقكم، حين كنت لا أزال حيًّا. أنا لا أخشى جدارياتكم. وصغار الشياطين لم تسكن ليالي يومًا. ارتكبت الذنوب، قتلتُ ونهبت. فَمَن ردّ عنكم قضاء يدي؟ ومَن أعدمَني ليُنجّي الأرضَ من وجودي؟ لا أحد. لَبِثَت الغيومُ عابرةً سماءها، وكانت مشرقةً تلك الأيّام التي لُطّخت يداي فيها بالدماء. كانت مشرقةً بذاك النور الذي يلوحُ ميثاقًا بين العالم وبين الربّ. أيّ ميثاق ممكن في عالم أعيش فيه؟ كلاّ، السماء خاوية وأستطيع أن أموت متبسّمًا. أنا مسخ بخمسِ قوائم. لي عينا ضَبْع ويدا قاتل. حيثُ أكون ينكفئ الله. لقد أخلى السُبُلَ التي سلكتها، كما أخليتم أنتم أزقّة مونتيبوتشيو، متشبّثين بأولادكم بين أحضانكم. المطر يتساقط اليوم، وإنّي أغادر العالم غير آبهٍ. لقد سكرتُ، وانتشيت، وجشأتُ في صمتِ الكنائس. التهمت بنهم كلّ ما طاولته يداي. وينبغي لليوم أن يكون يوم عيد. كان ينبغي للسماء أن تشرع بابها وأن تصدح جوقة الملائكة بالأبواق مرنّمة، احتفاءً بنبأ موتي، ولكن لم

يحدث شيء من هذا. إنّها تمطر. كأنّ الله حزين لغيابي. ترهات. لقد طال عمري لأنّ العالم على صورتي. كلّ ما فيه يمثلُ رأسًا على عقب. أنا إنسان. لا رجاء لي. آكلُ ما أستطيع. روكو سكورتا مسكالزوني. وأنتم يا مَن تحتقرونني، وتتوقّعون لي أبشع العذاب، جعلتكم الأيّام معجَبين باسمي إذا نطقتم به. لأنّكم إذا بصقتم على جرائمي، فلن تقمعوا في قرارة أنفسكم ذلك الاحترام العريق المقيت الذي يكنّه الإنسان للذهب. أجل. أنا أملك ذهبًا، أكثر ممّا يملك أيٌّ منكم. أملك ذهبًا، ولا أورث شيئًا. سوف تضمحلّ معي سكاكيني وضحكات المغتصب التي هي ضحكاتي. لقد فعلتُ ما كان يحلو لي أن أفعل، طوال حياتي. أنا روكو سكورتا مسكالزوني. فابتهجوا، إنّي موشكٌ على الموت».

عندما أنهى عبارته الأخيرة، تهالك فوقَ الفراش. خارت قواه. ماتَ ولم يغمض عينيه. في غمرة الصمت الذي خيّم على أهل مونتيبوتشيو المذهولين. لم يطلق حشرجةً. لم يئنّ. ماتَ وبقيت عيناه شاخصتين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تَقرّر أن يجرى الدفنُ في اليوم التالي. وكان اليوم التالي مفاجأةً لم يسبق لمونتيبوتشيو أن شهدت مثلها من قبل. من أعالي مزرعة آل سكورتا كانت تتناهى إلى المسامع ألحان موسيقى جنائزيّة، وسرعان ما شاهد الأهالي موكبًا حزينًا يتقدّمه الكاهن العجوز زامبانيلي وهو يُرجّح بيده مبخرةً أنيقة من الفضّة تشيع في أزقّة البلدة رائحةً ثقيلةً ومقدّسة. كان النعش محمولاً على أكفّ ستة رجال، وقد أخرِجَ للمناسبة تمثال شفيع القرية، القدّيس إيليّا، الذي حمله عشرة رجال آخرين. كانت الجوقة تعزف أكثر أناشيد البلاد حزنًا على وقعِ أقدام المسيرة المتباطئة. لم يسبق لأحد من أهل مونتيبوتشيو أن دُفِنَ على هذا النحو من قبل. اجتاز الموكب الباحة صعودًا وتوقّف عند الساحة لبعض الوقت، ثمّ سلك الأزقّة القديمة الضيّقة في مسار دائري قبل أن يعود أدراجه إلى الساحة حيث توقّف لبعض الوقتِ مرّة ثانية، ثم عاد إلى الباحة مجدّدًا لكي يلجَ أخيرًا باب الكنيسة. إثر قدّاسٍ مقتضبٍ أعلن خلاله الكاهن أنّ روكو سكورتا مسكالزوني قد وهبَ الكنيسة ثروتَه ـ ما أثار هرجًا من الذهول والتعليقات ـ، انطلق الموكب مجدّدًا على وقعِ الأبواق والصنوج. كان قرع الأجراس يوقّع ألحان الجوقة الحزينة. كلّ أهل القرية احتشدوا هناك. وفي أذهان الجميع تتردّد الأسئلة

نفسها مرارًا وتكرارًا: هل الهبة تشمل ثروته كلّها فعلاً؟ وما مقدارها؟ ماذا سيصنع الكاهن بها؟ وما مصير الخرساء؟ والأولاد الثلاثة؟ كانوا يتفرّسون في وجه المرأة المحزونة لكي يتبيّنوا ما إذا كانت تعلم بوصيّة زوجها الأخيرة، غير أنّ ملامح الأرملة المتعبة ما كانت لتنبئهم بشيء. أهل القرية كانوا مجتمعين هناك، وروكو يتبسّم في قبره. لقد استغرقه الأمر حياته كلّها لكنّه حظيَ بما تمنّاه طوال عمره: أن يُخضِع مونتيبوتشيو سويةَ نعليه، أن يستحوذ على القرية في قبضته. بواسطة المال مادام المال هو الوسيلة الوحيدة. وعندما اعتقد هؤلاء القرويّون أنّهم كسبوا ودّه، وقد راحوا يُظهرون له بعض الودّ، وينادونه «دون روكو»، عندما بدأوا يجلّون ثروته ويقبّلون يديه، أضرم النار في ما تأتّى كلّه وبضحكة واحدة من ضحكاته. هذا ما طالما تمنّاه. بلى، روكو تبسّم في قبره، غير آبهٍ بمن يخلّف وراءه.

في نظر أهل مونتيبوتشيو، كان الأمر جليًّا لا يحتمل الشكّ. لقد افتدى روكو سكورتا اللعنةَ التي حلّت بسلالته. كانت سلالة مسكالزوني سلالة أبناء زنا، منذورين للجنون. روكو كان أوّلهم، ولكن المؤكّد أنّ من شأن الآخرين أن يكونوا أسوأ حالاً. فبمنحه ثروته، أراد روكو سكورتا أن يفتدي تلك اللعنة: من الآن فصاعدًا لن تكون ذريّته من أهل الجنون بل من أهلِ الفقر. وكان أهل مونتيبوتشيو يرون في الأمر ما يثير الاحترام، ذلك أنّ روكو سكورتا لم ينجُ بنفسَه وحسب. كان الثمن باهظًا لكنّه عادل، فهو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يمنح أولاده الفرصةَ لكي يكونوا مسيحيين صالحين.

أمام قبر والدهم، لبث الأولاد الثلاثة واقفين جنبًا إلى جنب. رفايلي كان هناك أيضًا ممسكًا بيد كارميلا. لم يذرفوا الدموع. فلا أحد منهم يشعر بألم فعلي لموت والدهم. ولم يكن الأسى هو الذي جعلهم مقطّبين عابسين، بل الكراهية. يدركون جيّدًا أنّهم سلبوا ما كان لهم وأنّهم، من الآن فصاعدًا، سيتّكلون على أنفسهم. يدركون أنّ مشيئةً جائرة حكمت عليهم بالبؤس وأنّ هذه المشيئة هي مشيئة والدهم. كان دومينيكو وجيوسيبي وكارميلا يحدّقون في الحفرةِ عند أقدامهم ويشعرون بأنّهم يدفنون فيها حياتهم بأكملها. كيف سيعيشون غدًا؟ بأيّ مال، أو أين، مادامت المزرعة قد وُهِبَت هي أيضًا؟ أيّ شجاعة ينبغي لهم أن يتحلّوا بها لكي يخوضوا المعارك التي أعدّها القدرُ لهم؟ كانوا يقفون جنبًا إلى جنب، متلاصقين، والحقد يوغل صدورهم تحسّبًا للأيّام الآتية. لقد أدركوا ذلك. كانوا يستشعرونه منذ الآن في النظرات التي ترمقهم: باتوا فقراء. فقراء حتّى الموت.

أعشق المجيء إلى هذا المكان. جئتُ إليه مرارًا لا تُعدّ. إنّها قطعة أرض قديمة لا تنبت فيها سوى الأعشاب البريّة التي تتمايل مع هبوب الريح. حفنةٌ من أنوار القرية مازالت باديةً، خابية. كما تتراءى قمّة برج الكنيسة، هناك في البعيد. لا شيء هنا، إلاّ قطعة الأثاث العتيقة هذه التي غاص نصفها في التراب. كنت أريد أن آتي بك إلى هنا يا دون سالفاتوري. وهنا وددتُ أن نجلس معًا. هل تعلم ما قطعة الأثاث هذه؟ إنّه كرسيّ الاعتراف القديم الذي كان في الكنيسة أيّام دون جورجيو. وقد استبدله سلفُك. أخرجه الحمّالون من الكنيسة ووضعوه هنا. لم يلمسه أحدٌ. تهالك وتقشّر طلاؤه. عَتِقَ خشبُه. وغاصَ في التراب. غالبًا ما أجلس عليه. إنّه ينتمي إلى زمني.

ليس هذا اعترافًا يا دون سالفاتوري، فلا تفهم كلامي على غير محمله. وإذا كنت قد جئتُ بك إلى هنا، وطلبت منك أن تجلس بجانبي على هذا المقعد الخشبي العتيق، فليس غرضي أن أنال مباركتك. آل سكورتا لا يعترفون. وأبي كان آخر من اعترف منهم. لا تقطّب حاجبيك فليس غرضي أن أهينك. فأنا ببساطة لست سوى ابنة روكو حتّى لو طال أمد كراهيتي له، فلن

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يغيّر من الأمر شيئًا. دماؤه تجري في عروقي.

أذكره على فراش الموت. كان جسمه لامعًا مغسولاً بالعرق المتصبّب من مسامه. شاحب اللون. كان الموت يسري منذ بعض الوقت تحت جِلدِه. أممن النظر فيمن حوله. القرية كلّها اجتمعت في حجرته. فراح ينقّل بصره بين زوجته وأولاده وجمهرةٍ من أرهبهم في حياته، ثمّ قال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة المحتضر: «ابتهجوا. إنّي موشك على الموت». لسعتني عباراته كصفعةٍ على وجنتي. «ابتهجوا. إنّي موشك على الموت». أهل مونتيبوتشيو ابتهجوا بالتأكيد، أمّا نحن الثلاثة فوقفنا بجنبِ السرير ورمقناه بنظرات مذهولة فارغة. أيّ بهجة تلك التي سنعرفها؟ ولِمَ قد نبتهجُ لغيابه؟ كانت عبارته موجّهةً إلينا جميعًا بلا تمييز. فلطالما كان روكو وحيدًا في مواجهة الباقين جميعًا. كان حريًا بي أن أمقته، ألاّ أكنّ له سوى كراهية الأولاد المُهانين. ولكنّي لم أستطع يا دون سالفاتوري. تذكّرتُ حركةً بدرت منه. مباشرةً قبل أن يستلقي على الفراش لكي يموت، مرّر أصابع يده بين خصلات شعري. لم يقل شيئًا. لكنّه لم يفعل ذلك من قبل. دسّ يد الرجل الذي كانه بين خصلات شعري، برفق، ولم أدرِ يومًا إذا كان ذلك لعنةً إضافيّة أم بادرة عطف. ولطالما عجزتُ عن اختيار أحد الاحتمالين. وفي آخر الأمر بتّ مقتنعةً إنّه فعل ذلك بدافع من الاحتمالين معًا. لقد داعب رأسي كما يداعب أبٌ رأس ابنته وأحلّ اللعنةَ في شعري كما قد يفعل عدوّ. هذه البادرة هي التي جعلتني ابنة أبي. لم يلمس أحد أخويّ. أنا الوحيدة التي وُسِمتُ، وعلى كاهلي استقرّ الحِمْلُ كلّه. أنا الوحيدة التي جُعِلتُ ابنةً لأبي. دومينيكو

وجيوسيبي ولدا بدَعةٍ على مرّ الأيّام. كأنّهما لم يولدا من صلبِ والد. أمّا أنا فحظيتُ بتلك الوصمة. لقد اختارني. وأنا فخورة بذلك، ولا يبدّل في الأمر شيئًا أن يكون قد فعل ذلك لكي يُحِلّ عليّ اللعنة. أبإمكانك أن تفهم ما أقول؟

أنا بنتُ روكو، يا دون سالفاتوري. فلا تتوقّع منّي أيّ اعتراف. لقد نقضَ الميثاق بين الكنيسة وآل سكورتا. جئتُ بك إلى كرسيّ الاعتراف هذا في الهواء الطلق لأنّني لم أشأ أن أذهب إليك في الكنيسة. لم أشأ أن أحدّثكَ محنيّة الرأس متهدّجة العبارات كالمستغفرات. مكان مثل هذا هو الذي يليق بآل سكورتا. الريح تهبّ، والليل يحوطنا. لا أحد يسمعنا إلاّ الأحجار التي ترتدّ عن جنباتها أصداءُ صوتينا. نحن جالسان على خشبٍ امتهنته السنون. لفرط ما أصغت هذه الألواح إلى اعترافات البشر أهلكها عذابُ العالم. آلاف من الأصوات الوجلة أسرّت بجرائمها، واعترفت بخطاياها، وتكشّفت عن دمامتها. هنا أصغى إليها دون جورجيو. وهنا أصغى إلى والدي، حتّى الغثيان، ليلةَ اعترافه. كلّ هذه الكلمات يا دون سالفاتوري أغرقت ألواح الخشب هذه. وفي الليالي التي تهبّ فيها ريحٌ، كهذه الليلة، أسمعها وهي تنبعث مجدّدًا. آلاف الهمسات الخاطئة المتراكمة عبر السنين، والدموع المكتومة، والاعترافات الخجولة، كلّها تنبعث مجدّدًا، مثل أكنافٍ غامرة من الألم يبدّدها الريح أثرًا فوقَ التلال. وهذا يساعدني. أنا. فلا أقوى على الكلام إلاّ ههنا. ولكن ما أقوله ليس اعترافًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لأنّي لا أسألك مُبارَكةً، ولا أسعى لأن تُغسَلَ عنّي خطاياي. فخطاياي هنا، في قرارة نفسي، وسأحملها معي في مماتي. غير أنّني أريد للأشياء أن تُقال. ثمّ لا بأسَ إن مُتّ. فقد يبقى أثرٌ ما خلل الرياح اللطيفة التي تهبّ في أمسيات الصيف، أثرُ حياة سوف يمتزج بروائح الجماد الصخريّ وأعشاب البراري.

III

عودة البائسين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«تمهّلا، صاح جيوسيبي، تمهّلا!»

توقّف دومينيكو وكارميلا، واستدارا ملتفتين إلى أخيهما الذي راح يُنطنطُ، وراءهما، على قدمٍ واحدة.

«ما الخَطب؟ سأل دومينيكو.

ـ ثمّة حصاة في حذائي».

كان قد جلس إلى جانب الطريق منصرفًا إلى فكّ سيور نعليه.

«منذ ساعتين وهي تنخر رِجلي، أردف قائلاً.

ـ منذ ساعتين؟ سأل دومينيكو.

ـ أجل، أجاب جيوسيبي مؤكدًا.

ـ ولا يسعك أن تصبر قليلاً؟ كدنا نصل.

ـ هل يُرضيك أن أعود إلى الديار كالأعرج؟»

أجابَه دومينيكو بصيحةٍ رخيمةٍ "يا مَنْيَك! " فأغْرَبَت أختُه في الضحك.

استراحوا على قارعة الطريق، وفي قرارة أنفسهم كانوا سعداء لهذه السانحة التي أتاحت لهم التقاطَ النَفَس وتقدير المسافة المتبقّية أمامهم. كانوا يشعرون بامتنان عميق لتلك الحصاة التي نخرت رِجلَ جيوسيبي وكانت الذريعة المرجوّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

خلعَ جيوسيبي حذاءه متمهّلاً كأنّه يستمتعُ بكلّ هنيهةٍ من هنيهات هذه الاستراحة الطارئة. ولكن، لم يكن هذا هو شغلهم الشاغل. ذلك أنّ مونتيبوتشيو أصبحت على بعد خطواتٍ، في الأسفل. كانوا يتأمّلون مسقط رأسهم بشهوةٍ باديةٍ في العيون التي شابها بريق الخشية. تلك الخشية الدفينة، كانت هي خشية المهاجرين لحظةَ عودتهم إلى الديار. الخوف القديم الطاغي الذي تشرّبته الأماكن في غيابهم، خشية ألاّ تكون الأزقّة على حالها، خشية أن يكون مَن عرفوهم قد ماتوا أو، وهذا الأسوأ، أن يلاقوهم بامتعاضٍ بادٍ على وجوههم وعيونٍ لئيمة كأنّها تقول: «يا مرحى، انظروا الوافدينَ إلينا؟» ذلك الخوف هو ما كان يعتملُ في قرارة أنفسهم جالسينَ على قارعة الطريق، والحصاة في حذاء جيوسيبي كانت هي الأداة الإلهيّة التي أثارته، لأنّ كلاً منهم كان يودّ أن يُستَمْهَل هنيهات ريثما يملّي عينيه من منظر القرية، ويلتقط أنفاسَه ويرتسم بشارة الصليب قبل أن يسلكَ الطريقَ المنحدرة.

لم يمضِ على رحيلهم سوى بعض العام، لكنّهم شاخوا في الأثناء. تشبّعت ملامحهم بالقسوة، واكتسبت نظراتهم شيئًا من الخشونة والحدّة. حياة بأكملها كانت قد انقضت، حياة من الأسى والشطارة والمباهج المباغتة.

كان دومينيكو الذي يلقّبه الجميع «ميمي يا مَنْيَك» لأنّها اللازمة التي ينهي بها عباراته بنبرةٍ يخالطها الغناء كأنّها علامة وقفٍ مبتكرة لا شتيمة مؤذية، كان دومينيكو هذا قد بلغَ

واسترجلَ ومَن يرَه يحسبهُ، وهو ابن الثامنة عشرة، على مشارف الثلاثين. في ملامحه بعضٌ من الغلظة، لا أثر للوسامة فيها، ونظرته نفّاذةٌ كأنها حَكَمٌ على قدْرِ وقيمةِ مُخاطِبِه. قويّ البنية، غليظ الكفّين، غير أنّه يسخّر طاقته كلّها لغرض وحيد: أن يُفهِم على الفور طباعَ الشخص الذي يتعاطى معه. «هل هو أهلٌ للثقة أم لا؟»، «هل من وسيلةٍ معه لكسبِ المال؟»، فما عاد هذان السؤالان يعتملان في ذهنه، بل يجريان في دمه.

أمّا جيوسيبي فقد حافظ على ملامحه الطفوليّة. كان يصغره سنتين، ولم يزل وجهه، برغم الشهور المنصرمة، مقمّرًا وصبيانيًّا. فهو، مِنْ بين الثلاثة، مَنْ يُبادر إلى فضّ النزاعات. مَرِحٌ، في الأغلب، وله ثقة عمياء بأخيه وأخته بحيث لا يعرف القنوط سبيلاً إلى نَفْسِه إلاّ فيما ندر. لقّبوه «بيبي الكِرش الملآن» لأنّ التخمة هي في نظره أفضل أحوال البشر. كان هاجسه أن يأكل عند الجوع وأن يستزيد. ولا يُعدّ النهارُ نهارًا إلاّ إذا تخلّلته وليمة بمعنى الكلمة. أمّا إذا تخلّلته وجبتان سخيّتان فهو أفضل الأيّام قاطبة، وقد يلطّف مزاج جيوسيبي لبضعة أيّام مقبلة. كم مرّة ألْفَيَاه مبتسمًا، وهم على الطريق بين نابولي ومونتيبوتشيو، لأنّه تذكّر أطباق النيوكي أو المعجّنات التي التهمها ليلة أمس؟ كان عندئذ يسترسل في مناجاة نفسه، وسطَ الغبار، متبسّمًا كالمغتبطِ، كأنّه لا يحسّ بالتعب، مستعيدًا طاقةً لدنيّة مبتهجة تحثّه على الصياح بغتةً: «يا مريم العذراء، كم كانت لذيذة!...» ويسأل أخاه بحماسة: «هل تذكر، يا ميمي؟» ويتبع سؤاله بوصف مطوّل ودقيق للمعجّنات التي يتحدّث عنها، ومذاقها، وطعمها والصلصة التي تخالطها،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ويلحّ مجدّدًا بسؤاله: «أتذكر يا ميمي، مع الصلصة الحمراء؟ وطعم اللحم المطبوخ على نار هادئة، أتذكر؟» فلا يكون من ميمي وقد عِيلَ صبره إلاّ أن يجيبَ بأعلى صوته: «كفّ يا مَنْيَك، تبًّا لك ولمعجّناتك!» وهذا أسلوبه الخاصّ في لَفتِ أخيه إلى المسافة المتبقّية، وإلى الوجع الذي يشلّ سيقانهم، وإلى أنّ أحدًا منهم لا يعلم ما إذا كان سيُكتب لهم أن يتذوّقوا مجدّدًا مثل تلك الأطايب، مثل تلك المعجّنات.

كارميلا التي يناديها أخواها تحبّبًا «ميوتشيا»، كانت لاتزال طفلة. جسم طفل وصوت طفل. لكنّ الشهور الأخيرة المنصرمة تركت أثرًا عليها كما على أخويها. وكانت مصدرًا لأشدّ الأهوال وأعظم الأفراح التي خبرتها شلّتهم الصغيرة خلال رحلتهم. لم يلُمْها أحدٌ منهما يومًا، غير أنّها كانت تعلم ذلك جيّدًا: فبسببها جرى ما جرى، وبفضلها أيضًا، تمكّنوا من استدراك الأمور في اللحظة الأخيرة، ما ولّد لديها حسًّا مفرطًا بالمسؤوليّة وذكاءً يفوق سنّها. في حياتها اليوميّة، كانت لاتزال طفلة، تضحكُ لدعابات أخويها، حتّى إذا عبسَ الزمانُ وابتلاهم بسوء، راحت تصدر الأوامر صارمة. كانت هي التي تمسك برسن الحمار في طريق عودتهم، وولاّها أخواها على كلّ ما يملكان: الحمار وحِملَ المتاع الذي ينقلونه معهم، الحقائب، إبريق الشاي، أطباق البورسيلين الهولندي، كرسي القش المضفور، أواني النحاس، الأغطية. كان الحمار ينوء بحمله راضيًا. صحيح أنّ لا قيمة تُذكَر لكلّ غرضٍ على حدة من هذا المتاع، ولكنْ، مجتمعًا، كان متاع حياتهم كلّها. كانت هي أيضًا التي تحمل مالهم الذي جمعوه، فلسًا فلسًا، خلال

رحلتهم. وكانت كارميلا تحفظ هذا الكنز بحرصِ المعوزين.

«أتعتقدون أنّهم أوقدوا المسارج؟»

جاء صوت جيوسيبي ليشقّ الصمت المخيّم على التلال. قبل ثلاثة أيّام مرّ بهم خيّال. وفي سياق الحديث المقتضب الذي تبادلوه معه، أخبره آل سكورتا أنّهم في طريق عودتهم إلى ديارهم، إلى مونتيبوتشيو، فوعدهم الخيّالُ بأنّه سيزفّ لأهل القرية نبأ عودتهم. وهذا ما كان يشغل بال جيوسيبي. أن توقد المسارج في باحة غاريبالدي، على عادة أهل القرية احتفاءً بعودة المهاجرين. أن توقد المسارج احتفاءً بعودة «الأميركان».

«طبعًا لا، أجاب دومينيكو. المسارج...» قالَ مستنكرًا. ورانَ الصمت مجدّدًا.

طبعًا لا. ينبغي لآل سكورتا ألاّ يحلموا باستقبال المسارج. فاستبدّ الحزن بجيوسيبي لهنيهات. لقد بدت عبارات دومينيكو حاسمةً لا تقبل النقاش. لكنّه، هو أيضًا، راوده الحلم نفسه. وعاوده الحلمُ مجدّدًا. بلى. مسارج. لأجلهم. وأهل القرية، جميعًا، هناك. كارميلا الصغيرة راودها الحلمُ، هي أيضًا. أن تدخل باحة غاريبالدي، فتطالعها الوجوه التي تعرفها، متبسّمة دامعة. هم الثلاثة، كان يراودهم الحلم نفسه. بلى. فبرغم كلّ شيء. المسارج. كم يكون اللقاء جميلاً.

هبّت رياح مبدّدةً عطر التلال، وأفلَ ضياء النهار الأخير. عندئذٍ، تابعوا سيرهم بصمتٍ، كأنّ القرية تجذبهم كالمغنطيس إليها، تحدوهمُ اللهفةُ والخشية، في وقتٍ معًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دخلوا مونتيبوتشيو ليلاً. كانت باحة غاريبالدي أمامهم، هناك، لاتزال على حالها كما غادروها قبل عشرة أشهر. سوى أنّها مقفرة. الريح تغورُ عبر الأزقّة ثمّ تهبّ مطلقة عنينها فوق رؤوس القطط التي تفرّ مقوّسةً ظهورها. لا أثر لكائن حيّ. القرية تغطّ في نومها وخفقُ حوافر الحمار يتردّد صداه متناغمًا مع صدى العزلة.

كان دومينيكو وجيوسيبي وكارميلا يسيرون قُدُمًا متوجّسين عابسين. لا أحد منهم يجرؤ على الالتفات نحو الآخر، ولا أحد منهم يجرؤ على الكلام. وراحوا يلومون أنفسهم بشدّة لاستسلامهم لذاك الأمل الغبيّ ـ المسارج... أيّة مسارج لعينة هذه؟... ـ ويتقدّمون، مشدودي القبضاتِ، بصمت.

مرّوا من أمام ما كان، قبيل رحيلهم، دكّان لويجي زاكالونيا للخردوات. ولكن من الواضح جدًّا أنّ خطبًا ما أصابه: فقد كانت اللافتة مرميّة على الأرض، وزجاج النوافذ محطّمًا. وما عاد شيء ههنا يُشترى أو يُباع. فانتابهم شعورٌ غامضٌ بالضِيق. وليس ذلك لأنّهم كانوا من زبائن الدكّان المداومين، بل لاعتقادهم بأنّ كلّ تغيير يطرأ على مونتيبوتشيو هو علامة شؤم.

يودّون لو أنّها بقيت على حالها كما غادروها، يودّون ألاّ يكون الزمن قد أفسدَ حالها منذ رحيلهم. وإذا كان لويجي زاكالونيا قد هجر دكّانه، فالله وحده أعلم بما ينتظرهم من مفاجآتٍ أخرى غير سارّة.

عندما تقدّموا أمتارًا عبر الباحة، تراءى لهم خيالُ رجلٍ قد أقعى لصقَ حائطٍ وغطّ في النوم هناك في مهبّ الريح. حسبوه في البداية سكّيرًا ما، ولكن عندما اقتربوا منه صاح جيوسيبي قائلاً: «رفايلي! إنّه رفايلي». صياح جيوسيبي أجفل الفتى، فهبّ واقفًا. كان آل سكورتا يتصايحون فرحًا، فيما برقت عينا رفايلّي بهجةً وسعادة من دون أن يكفّ عن لوم نفسه وشتمها. لقد حزّ في نفسِه أن يكون فوّت عليه استقبال أصدقائه. لقد أعدّ العدّةَ للحظة اللقاء تلك، وقطع على نفسه عهدًا أن يسهر طوال الليل إذا اقتضى الأمر، ولكن، شيئًا فشيئًا، خارت قواه وغلبه النعاس.

«أنتم هنا...، كان يردّد دامعَ العينين، ميمي، بيبي،... أنتما هنا... دعوني أملّي عينيّ منكم! ميوتشيا! وأنا الحقير الذي غلبني النعاس. يا خجلي منكم. كنت أودّ أن أراكم مُقبِلين من بعيد...».

راحوا يتبادلون العناق والقبل، ويتحسّسون بعضهم بعضًا، ويربّتون على ظهور بعضهم بعضًا. على الأقلّ شيء واحد بقي على حاله في مونتيبوتشيو، وهو أنّ رفايلي مازال هناك. كان الفتى حائرًا بأمره. تُراهُ يعانق من ويربّت على ظهر من. ولم يلحظ حتّى الحمار والحملَ الذي ينوء تحته. لفته جمال كارميلا على الفور، غير أنّ لفتته هذه زادت من ارتباكه وتلعثمه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تمكّن رفايلي أخيرًا من النطقِ بعبارات مفيدة. ورجا أصدقاءه أن يقبلوا استضافته لهم. كانت ساعة متأخّرة من الليل، والقرية تغطّ في نومها. ولا ضَيْرَ من تأجيل اللقاء الموعود بين آل سكورتا ومونتيبوتشيو إلى الغد. قبل آل سكورتا دعوته وبذلوا المستطاع لردعِ صديقهم عن حملِ صررهم وحقائبهم كلّها. كان قد انتقل للسكن في منزل منخفضٍ ضيّق الأرجاء بقرب الميناء، منزل وضيع منحوت في الصخر ومطليّ بالكلس. وكان رفايلي قد أعدّ مفاجأةً للمناسبة. ففور تبلّغه خبر عودة آل سكورتا الوشيكة، لم يهدأ لحظة واحدة. ابتاع رغيفًا كبيرًا من الخبز الأبيض، وطبخ على نار خفيفة صلصة اللحم وأعدّ المعجّنات. فهو يريد أن يعدّ وليمة لمناسبة رجوع أصدقائه.

عندما جلسوا جميعًا إلى منضدة الخشب وأحضر رفايلي طبقًا كبيرًا من معجّنات الأوريكياتي المغمّسة في صلصة كثيفة حمراء، بُهِتَ جيوسيبي وجعلَ يبكي. فقد استعاد نكهةَ قريته والتقى صديقه مجدّدًا، وما عاد ينقصه شيء البتّة. فما كان لمسارج باحة غاريبالدي كلّها أن تحيي البهجة في نفسه بقدر ما يُحييها طبق الأوريكياتي الساخن الكبير هذا الذي يوشك على التهامه.

أكلوا، وتلذّذوا في شرائح الخبز الأبيض التي كان رفايلي قد فركها بالطماطم وزيت الزيتون والملح. واستمتعوا بِذَوْب المعجّنات التي تقطر مَرقًا في أفواههم. انصرفوا إلى طعامهم غافلينَ عن نظراتِ رفايلي إليهم المفعمة بالحزن. بعد وقتٍ، تنبّهت كارميلا إلى الصمت الذي لاذ به صديقهم.

«ما الخَطْبُ يا رفايلي؟» سألته.

تبسّم الفتى. لم يشأ الكلام قبل فراغ رفاقه من طعامهم. فما يعتمل في صدره يحتملُ الكتمانَ هنيهاتٍ أخرى، ريثما يُنهي أصدقاؤه وجبتهم، ويشبع جيوسيبي لاعقًا الأثرة المتبقّية في الطبق بتلذّذِ الشبعان.

«رفايلي؟ ألحّت كارميلا بسؤالها.

ـ إذًا ماذا عن نيويورك، أخبروني، كيف كانت رحلتكم إلى نيويورك؟»

طرح سؤاله بحماسةٍ مصطنعة. كان يسعى لكسب الوقت. غير أنّ تغافله هذا لم ينطلِ على كارميلا.

«أنتَ أوّلاً يا رفايلي. قُل ما لديك».

رفع الأخوان رأسيهما المنكبّين على الطبق. فقد نبّهتهما نبرة أختهما إلى أمرٍ غير متوقّع يجري الحوار بشأنه. تحوّلت أنظار الجميع إلى رفايلي. كان ممتقع الوجه شاحبًا.

«ما أودّ قولَه...» همسَ من دون أن يكمل عبارته. لَبِثَ آل سكورتا بلا حراك. «أمّكم... الخرساء... تابع قائلاً، رَحَلت عن هذه الدنيا منذ ما يقرب الشهرين».

لَبِثَ مُطرقًا. لم ينبس آل سكورتا بحرف. كانوا ينتظرون. فأدرك رفايلي أنّه ينبغي له أن يخبرهم المزيد، أن يخبرهم كلّ ما جرى. لذا رفع رأسه وأشاع صوته المحزون جوًّا من الأسى في أرجاء الحجرة.

كانت الخرساء تعاني من حمّى الملاريا، وقد حاولت خلال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأسابيع الأولى التي أعقبت رحيل أولادها أن تقاوم مرضها، ولكن سرعان ما خانتها قواها. فسعت لكسب الوقت. كانت تأمل في الصمود إلى حين عودتهم، أو على الأقلّ حتّى يبلغها خبرٌ عنهم، لكنّها لم تقوَ على ذلك وقضت جرّاء نوبة حادة.

«هل دفنها دون جورجيو على نحوٍ لائق؟» سأل دومينيكو.

لبث سؤاله من دون إجابة لبعض الوقت. كان رفايلي يُعاني العذابَ المرير. فما ينبغي له أن يسرّ به إليهم يعتملُ كالإعصار في صدره، ولكن قدَره أن يشرب الكأس حتّى الثمالة وأن يُصارحهم بما جرى.

«لقد توفي دون جورجيو قبل ذلك بزمن طويل. مات كما يموت العجائز متبسّمًا مضموم اليدين فوق صدره.

ـ كيف دُفِنت أمّنا؟ سألت كارميلا التي شعرت بأنّ رفايلي تهرّب من الإجابة، وبأنّ صمته هذا يُخفي بليّةً أدهى.

ـ لم يكن بيدي حيلة، غمغم رفايلي قائلاً. وصلتُ بعد فوات الأوان. كنت يومها في عرض البحر حيث أمضيتُ يومين كاملين، ولمّا عدتُ كانت قد دُفِنت وانتهى الأمر. الكاهن الجديد هو الذي تولّى أمر دفنها. دفنوها في المقبرة العموميّة، ولم يكن بيدي حيلة».

كانت سُحَن آل سكورتا قد لبست أقنعة الغضب، صارمةً، مكفهرّة. وفي أذهانهم تتردّد عبارة «المقبرة العموميّة» مثل صفعة.

«ما اسم الكاهن الجديد؟» سأل دومينيكو.

ـ دون كارلو بوتزوني، أجاب رفايلي.

ـ سنذهبُ إليه غدًا، قال دومينيكو مؤكّدًا، ففهم الجميع من نبرته أنّه يعلم جيّدًا ما سيطلبه من الكاهن، لكنّه لا يريد الخوض فيه هذه الليلة.

أوى الجميع إلى النوم ولم ينهوا عشاءهم، فلا أحد منهم يقوى على مزيدٍ من الكلام. كان ينبغي لهم أن يلوذوا بالصمت وأن يستسلموا لألم المحزونين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في اليوم التالي، استيقظ جيوسيبي ودومينيكو وكارميلا ورفايلي عند صلاة السَّحَر، وذهبوا، في غمرةِ رياح الصباح الباردة، لمقابلة الكاهن الجديد.

«يا أبتي، بادره دومينيكو قائلاً.

ـ أجل، يا أبنائي، ما مطلَبُكُم؟ أجاب بنبرةٍ معسولة.

ـ نحن أولاد الخرساء.

ـ أولاد مَن؟

ـ الخرساء.

ـ هذا ليس اسمًا عَلَمًا، أجاب دون كارلو وقد افترّت شفتاه قليلاً.

ـ هذا كان اسمها، أجابت كارميلا بجفاء.

ـ أسألكم عن اسمها المسيحي، أردف الكاهن قائلاً.

ـ لم يكن لها اسمٌ آخر.

ـ وما مَطلَبُكُم؟

ـ لقد توفيت قبل بضعة أشهر، قال دومينيكو. ودفنتها أنتَ في المقبرة العموميّة.

ـ أذكر ذلك. بلى. تعازي الحارّة يا أبنائي. لا تحزنوا فأمّكم الآن بجوار ربّها.

ـ لقد جئنا إليك بسبب الدفن، قالت كارميلا بجفاء.

ـ لقد قلتم للتوّ إنّها دُفِنت على نحوٍ لائق.

ـ إنّها من آل سكورتا.

ـ أجل. من آل سكورتا. ليكُن. حسنًا إذًا. كما ترون اتضح أنّ لها اسمًا.

ـ يجب أن تُدفن كما يليق بفردٍ من أفراد آل سكورتا، أردفت كارميلا قائلة.

ـ لقد دفنّاها كما يليق بمسيحي أن يُدفن»، قال دون بوتزوني مصوّبًا. كان دومينيكو يستشيط غيظًا. فقال بنبرةٍ متوعّدة:

«كلاّ، يا أبتي. كواحدةٍ من آل سكورتا. وهذا مدوّن بالحبر ههنا».

وأطلع دون بوتزوني على الورقة التي كان روكو ودون جورجيو قد وقّعاها سويًّا، فقرأها الكاهن بصمت. وسرعان ما احتقنَ وجهه غضبًا وصاحَ قائلاً:

«ما هذه الخزعبلات؟ إنّه أمر لا يصدّق! خزعبلات، مجرّد خزعبلات، سحر. لا أدري ما هو بالضبط. فمن خوّل دون جورجيو التوقيع باسم الكنيسة؟ هذه هرطقة، بلى. واحدة من آل سكورتا! يا مرحى. وأنتم تزعمون بأنّكم مسيحيّون. وثنيّون يزاولون طقوسًا سريّة، هذا ما يوصف به أهل هذه الناحية. واحدة من آل سكورتا! لقد طمرت بالتراب كسواها. وهذا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أفضل ما كانت لتحصل عليه.

ـ يا أبتي...، حاول جيوسيبي أن يقول، لقد أقامت الكنيسة ميثاقًا مع عائلتنا».

لكنّ الكاهن لم يمهله لكي يُكمل عبارته. فراح يصرخ قائلاً: «إنّه مسّ شيطاني. ميثاق مع آل سكورتا. أنتم تهذون طبعًا».

وبحركة مباغتة شقّ طريقه من بينهم حتّى باب الكنيسة وتوارى.

حالَ غياب آل سكورتا دون وفائهم بواجب مقدّس: أن يحفروا بأيديهم قبرًا لأمّهم. فأصول البنوّة تقضي بأن يقوم الأبناء بهذا الواجب الأخير. الآن وقد عادوا، صمّموا على تكريم رفات أمّهم. فالانفراد، والمقبرة العموميّة، وخرق الميثاق، هذه كلّها إهانات لا قِبَلَ لهم بها. وقرّ الرأي أن يذهبوا في الليلة نفسها مزوّدين بمعاول ورفوش لنبش جثمان الخرساء، لكي تدفن في قبرٍ خاصّ بها، حفرته أيدي أبنائها. ولا بأس إذا كان ذلك خارج سور المقبرة. فالأفضل أن تُدفن خارج سور المقبرة من أن تُدفنَ إلى الأبد في أرض بلا اسم هي مقبرة للعموم.

عند حلول الليل، التقوا بحسب اتفاقهم. رفايلي أحضر معه الرفوش. وكان البرد شديدًا. تسلّلوا كاللصوص عبر سور المقبرة.

«ميمي؟ سأل جيوسيبي.

ـ ما الأمر؟

ـ هل أنت واثق كلّ الثقّة من أنّ ما نفعله ليس جريمة؟»

وقبل أن يجيبَ علا صوت كارميلا:

«الحفرة العموميّة هي التدنيس بعينه».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أمسك جيوسيبي عندئذ بمعزقته وخَلُص إلى القول:

«أنت على حقّ يا ميوتشيا. لا داعيَ للتردّد». حفروا بصمتٍ في أرض القبر العمومي الباردة. كان التراب يزداد صلابة كلّما تعمّقوا في الحفر. وبدا لهم أنّهم ربّما تسبّبوا في إيقاظ شعب الموتى الغفير. كانوا يحاولون صدَّ سريان الرعدة في أبدانهم، يحاولون ألاّ يترنّحوا تحت تأثير الروائح الكريهة المنبعثة من باطن الأرض.

أخيرًا صدمت معازقهم خشبَ تابوت، وبذلوا جهدًا شاقًّا لرفعه من التراب. على لوح غطائه حفر بالسكين اسم سكورتا. كانت أمّهم ترقد في داخله، داخل هذا الصندوق الدميم، مدفونة كما يُدفنُ المُعدِمون. لا رخامَ ولا فخامة. رفعوها فوق أكتافهم كمهرّبين متوجّسين خشيةً، وغادروا المقبرة. ساروا لبعض الوقت بمحاذاة السور حتّى بلغوا سَهلَةً يحجبها عن الأنظار ترابٌ مكوّم. وضعوا التابوت على الأرض. ولم يبقَ إلاّ أن يحفروا القبر، وأن تشعر الخرساء بأنفاس أبنائها في ليلها الطويل. ولكن عندما همّوا بالحفر، التفت جيوسيبي إلى رفايلي وسأله:

«هل ستشاركنا الحَفْر؟»

لَبِثَ رفايلي جامدًا، إذ لم يكن الغرض من سؤال جيوسيبي هو طلبُ عونِه وحسب، لم يكن الغرض أن يشاركهم عرقهم، لا، بل كان الغرض أن يدفن، هو أيضًا، الخرساء كما لو أنّه أحد أبنائها. لبث رفايلي ممتقعًا مثل نسيج أبيض، ولبث دومينيكو وجيوسيبي يرمقانه بثباتٍ في انتظار ردّه. كان واضحًا أنّ جيوسيبي طرح سؤاله بالنيابة عن آل سكورتا مجتمعين، فلم

يفاجأ أحد منهم لسماعه، ولبث الجميع ينتظرون ردّ رفايلي. أمام قبر الخرساء، أمسك رفايلي بمعزقة، دامعَ العينين. «طبعًا»، قال. كأنّه بذلك يغدو هو الآخر من آل سكورتا، كأنّ جثّة هذه المرأة البائسة قد منحته بَرَكة الأمّ. سيكون أخاهم من الآن فصاعدًا، تمامًا كأنّ الدماء نفسها تجري في عروقه. أخوهم. أمسك بالمعزقة بقوّة لكي لا يبكي. وعندما شرعَ في الحَفْرِ رفع رأسه ووقعت عيناه على كارميلا. كانت واقفة هناك، بقربهم، صامتةً لا تحرّك ساكنًا. فأحسّ بوخزٍ في قلبه، واستبدّ به شعور عميقٌ بالحسرة. ميوتشيا. كم كانت جميلة. ميوتشيا. ومن الآن فصاعدًا سيتعيّن عليه أن ينظر إليها بعيني أخ. كتمَ الحسرةَ في أعماقه مُطرِقًا، وراح يقلّب تراب الأرض بكلّ ما مَلَك من قوّة.

عندما فرغوا من الحَفْرِ وطمر التابوت مجدّدًا في التراب، لبثوا صامتين لبعض الوقت. لم يشأ أيّ منهم المغادرة قبل الوقوف هنيهات أمام القبر. وانقضى وقتٌ طويل قبل أن يبادر دومينيكو إلى الكلام:

«لقد فقدنا أبوينا، نحن آل سكورتا، نحن الأربعة. هذا ما قرّرنا أن يكون. هذا الاسم هو الذي سيقيم اللحمة بيننا من الآن فصاعدًا. لتغفر لنا الخرساء، فاليوم نشهد ولادتنا الحقيقيّة».

كان البرد شديدًا. مكثوا لبعض الوقتِ مُطرقين أمام القبر، ملتصقين ببعضهم بعضًا. وكان اسم سكورتا هذا كافيًا بالفعل لإشاعة الدفء من حولهم. كان رفايلي ينتحب بصمت. لقد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حظي بعائلة، بأخوين وأخت قد يبذل حياته من أجلهم. من الآن فصاعدًا، بلى، سيكون رابع آل سكورتا، وقد أقسم على ذلك أمام قبر الخرساء. سيحمل اسمهم. رفايلي سكورتا. وسوف يبتسم ازدراءً بأهل مونتيبوتشيو. رفايلي سكورتا، لكي يقاتل، قلبًا وقالبًا، إلى جانب مَن أحبّهم وحَسِبَ أنّه فقدهم إلى الأبد خلال فترة سفرهم إلى أميركا، وخلّفوه وحيدًا في مونتيبوتشيو، وحيدًا كمجنون. رفايلي سكورتا. أجل. وقد أقسم أن يكون أهلاً لحملِه الاسم الجديد.

جئتُ لأسرد على مسامعك، يا دون سالفاتوري، قصّة السفر إلى نيويورك. ولو لم يحلّ الليل لما تجرّأت يومًا على الكلام، غير أنّ العتمة تكتنفنا، وأنتَ تدخّنُ بمتعةٍ، وعليّ أن أنجز ما جئتُ لأجلِه.

إثرَ مراسم دفنِ والدي، استدعانا دون جورجيو ليطلعنا على خططه. كان قد اهتدى إلى منزل صغير، في البلدة القديمة، حيث ستقيم أمّنا، الخرساء، بقيّة أيّامها. منزل متقشّفٌ لكنّه لائق. وستنتقل إليه في أقرب وقت ممكن. أمّا بشأننا نحن، فينبغي أن يجد حلاً آخر. الحياة هنا في مونتيبوتشيو لا توفّر لنا أيّ فرصة، وسوف نجرجر فقرنا في أزقّة القرية، وفي صدورنا يعتمل غيظُ مَن خانهم القَدَر. فلا خير يُرجى من حالٍ مماثلة. لم يشأ دون جورجيو أن نبتلى بحياة قذارة وبؤس، وارتأى حلاً أفضل. فقال لنا إنّه سيتدبّر لنا تذاكر سفر على متن مركب يقوم بالرحلة ذهابًا وإيابًا بين نابولي ونيويورك، على أن تتولّى الكنيسة سداد التكلفة. هكذا نهاجر إلى تلك الأرض حيث الفقراء يشيّدون عماراتٍ بعلوّ السماء، وحيث الثروة تملأ أحيانًا جيوب من يرتدون الأسمال.

قبلنا على الفور. وأذكر أنّ في الليلة نفسها راحت صورٌ عجيبة غريبة لمدنٍ متوهّمة تزدحمُ في رأسي، فأردّد في سرّي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كصلاةٍ توقظ البريق في عينيّ: نيويورك... نيويورك...

عندما غادرنا مونتيبوتشيو متوجّهين إلى نابولي بصحبة دون جورجيو الذي شاء أن يرافقنا إلى الميناء، بدا لي أنّ الأرض تهدر تحت أقدامنا، كأنّها تلعن أبناءها الذين تجرّأوا على هجرها. غادرنا مقاطعة غارغانو وهبطنا سالكين عبر سهلِ فوجيا الواسع الكئيب، واجتزنا إيطاليا من أقصاها إلى أقصاها، حتّى بلغنا نابولي. صدمت أعيننا المذهولةَ متاهة الصراخ والقذارة والقيظ تلك. كانت المدينة الكبيرة تفوح منها روائح اللحم الرديء والسمك الفاسد، فيما تضجّ أزقّة سكابانابولي بزُمَر الأولاد ذوي البطون المنتفخة والأفواه البلا أسنان.

اصطحبنا دون جورجيو إلى المرفأ وصعدنا إلى متن أحد المراكب المبنيّة خصّيصًا لحملِ الجائعين من طرف الكرة الأرضيّة إلى طرفها الآخر، في عنابر الجوف الضخمة. أقمنا على ظهر المركب بين أشباهنا. بؤساء أوروبا من ذوي العيون الجائعة، أُسَرٌ بأكملها، أو صِبْيَةٌ بمفردهم. وكالآخرين جميعًا تشبّث كلّ منّا بيد الآخر لكي لا نضيع في الزحام. وكالآخرين جميعًا، لم يُغمض لنا جفنٌ في الليلة الأولى، خشيةَ أن تمتدّ الأيدي الشقيّة إلى الغطاء الوحيد الذي نتقاسمه ثلاثتنا. وكالآخرين جميعًا بكينا عندما انطلق المركب مبتعدًا عن ميناء نابولي. «الحياة تبدأ الآن»، همس دومينيكو قائلاً. وكانت إيطاليا تنأى شيئًا فشيئًا عن أنظارنا. كالآخرين جميعًا شخصت أعيننا في اتجاه أميركا، منتظرين أن تلوح سواحلها من بعيد،

آملين، في ما يشبه الأحلام الغريبة، أن يكون كلّ شيء هناك مختلفًا، الألوان والروائح والقوانين والبشر. كلّ شيء. أكبر. أعذب. كنّا خلال الرحلة نبقى لساعاتٍ متشبّثين بدرابزين الحوافّ حالمين بما قد تكون عليه هذه القارة التي تستقبل التعساء أمثالنا. كانت الأيّام طويلة، ولكن سواء عندنا، لأنّ الأحلام التي تستبدّ بمخيّلتنا تحتاج إلى ساعاتٍ طويلة لكي تتلاحق صورها في أذهاننا. كانت الأيّام طويلة لكنّنا استسلمنا لانقضائها البطيء بغبطة لأنّ العالم كان يبدأ من هناك.

ذات يوم دخلنا خليج نيويورك. كان المركب يتجه بطيئًا نحو جزيرة «أليس آيلند» الصغيرة. ولن أنسى يا دون سالفاتوري، بهجة ذلك اليوم ما حييت. رحنا نصرخ ونرقص، ودبّت حماسة جنونيّة على متن المركب. كان الجميع يريدون أن يشاهدوا الأرض الجديدة. وصياحًا ننادي ركّاب قوارب الصيد التي تمرّ بقربنا. كان الجميع يشيرون بأصابعهم إلى عمارات منهاتن. ونغبّ بعيوننا النهمةِ كلّ تفصيل من تفاصيل الشاطئ.

عندما رسا المركبُ أخيرًا، نزلنا منه وسط هرجٍ من البهجة واللهفة. غصّت الردهة الفسيحة في الجزيرة الضيّقة بالناس. كانت تتناهى إلى مسامعنا أحاديث بلغاتٍ حسبناها في البداية لهجات خاصّة بأهل ميلانو أو أهل روما، غير أنّنا سرعان ما أدركنا أنّ ما يجري هناك يتخطّى ضيق عالمنا. كان جمعٌ غفير من الناس يحيط بنا. حتّى كدنا نشعر بأنّنا تائهون، غرباء، لا نفهم شيئًا ممّا يدور حولنا. لكنّ إحساسًا غامضًا كان يستبدّ بنا يا دون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

سالفاتوري، فقد كنّا مقتنعين أنّنا هناك حيث ينبغي لنا أن نكون. هناك وسط أولئك التائهين، وسط هرجِ الأصوات واللهجات كنّا في ديارِنا. ومن أحاطوا بنا هم إخواننا بدلالة الوسخ الذي يغطّي سحنهم، بدلالة الخوف الذي يعصر أحشاءهم، كما يعصر أحشاءنا نحن. كان دون جورجيو محقًّا في مسعاه. نحن ننتمي إلى ذاك المكان، إلى ذاك البلد الذي لا يشبه بلدًا آخر. كنّا في أميركا وما عاد شيء يخيفنا. باتت حياتنا في مونتيبوتشيو نائيةً دميمة. كنّا في أميركا وليالينا عامرة بالأحلام السعيدة والنهمة.

لا تُعطِ بالاً يا دون سالفاتوري إذا تهدّجَ صوتي وأغضيتُ، سوف أطلعك على ما لم يطّلع عليه أحد. لا أحد ما عدا آل سكورتا. اسمع. الليلُ شاسعٌ وسأروي لكَ القصّة بأكملها.

عند الوصول، نزلنا عن متن المركب بحماسة بادية. كنّا مبتهجين متلهّفين، وكان علينا أن ننتظر، غير أنّ الانتظار لم يكن عبئًا علينا، فوقفنا في صفوفٍ طويلة، ورضخنا لإجراءات غريبة لا نفهمها. وكان التباطؤ سيّد الموقف. يقتادوننا للوقوف أمام كونتوار ثمّ أمام كونتوار آخر فنلبث ملتصقين ببعضنا بعضًا لكي لا نفترق. الساعات تنقضي وجموع الناس على حالها، يراوحون في أماكنهم. دائمًا كان دومينيكو يتقدّمنا. وإذا به يخبرنا، ذات مرّة، بأنّنا سَنخضع لمعاينة من قبل أطبّاء.. فعلى كلّ واحد منّا أن يمدّ لسانه وأن يكرّر الشهيق والزفير مرارًا وألاّ يخشى من تعرية صدره إذا طُلِبَ منه أن يفعل. إذ يتعيّن أن نخضع لكلّ هذا، لكنّنا لا نبالي، ولا يضيرنا الانتظار بضعة

أيّام لو اقتضى الأمر. فالديارُ هناك بمتناول يدنا.

عندما جاء دوري للمعاينة ومَثلتُ أمام الطبيب، أوقفني بحركة من يده. فحصَ عينيّ ومن دون أن ينبس بحرف واحد، وسمَ يدي بعلامة. أردت أن أسأله لِمَ فعل ذلك لكنّهم أشاروا عليّ بالتقدّم نحو صالة أخرى. هناك فحصني طبيب آخر، ولفترة أطول. طرح عليّ أسئلة كثيرة غير أنّني لم أفهمها ولم أستطع الإجابة عنها. كنت طفلة، يا دون سالفاتوري، مجرّد طفلة وركبتاي تصطكّان أمام أولئك الغرباء الذين ينكبّون على معاينتي كأنّني رأس ماشية. بعد وقتٍ لحق بي أخواي. ولابدّ أنّهما افتعلا شجارًا لكي يُسمح لهما بالعبور.

لم نفهم حقيقة ما يجري إلاّ عند مجيء المترجم. كنت أعاني التهابًا. فقد مرضتُ بالفعل على متن المركب، لبضعة أيّام. حمّى وإسهال واحمرار في العينين، ولكنّني ظننتُ أنّها أزمة عابرة وتزول. كنت طفلة في طريقها إلى نيويورك، وبدا لي أنّ لا شيء قد يعترض طريقي. استرسل الرجل في كلامه لبعض الوقت وجلّ ما فهمته هو أنّ الرحلة، فيما يعنيني أنا، قد انتهت. شعرتُ بأنّ الأرض تميد تحت قدميّ. لقد رفضوني، يا دون سالفاتوري، وقضيَ الأمر. شعرتُ بالخجل من نفسي وأغضيتُ لكي لا تصادف نظراتي نظراتِ أخويّ. كانا صامتين بجواري. فرحتُ أتأمّل صفّ المهاجرين الطويل الذين يواصلون تقدّمهم أمامي، ولم أفكّر عندها إلاّ في أمر واحد: «كلّ أولاءِ الذين يعبرون، حتّى تلك الهزيلة هناك، وحتّى ذاك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

العجوز الذي قد يهلك في غضون شهرين، كلّ أولئك، إلاّ أنا، لماذا أنا من دونهم جميعًا؟».

تكلّم المترجم مجدّدًا: «ستعودين إلى ديارك... تذكرة العودة مجّانيّة... لا مشكلة... مجّانيّة...» كانت العبارة تتردّد في فمه. عندئذ فقط اقترح جيوسيبي على دومينيكو أن يتابع هو بمفرده. «اعبر أنتَ يا ميمي. أمّا أنا فسأبقى مع ميوتشيا».

لبثتُ صامتة لا أحرّك ساكنًا. فقد كان مصيرنا كلّه معلّقًا هناك، بهذا النقاش بين حجرتين. حياتنا، للأعوام المقبلة. لكنّني لبثت صامتة. لم أقوَ على الكلام. كأنّي فقدتُ كلّ طاقة. لا أشعر إلاّ بالعار. العار وحسب. لم يكن بوسعي إلاّ أن أصغي وأن أفوّض أمري لأخويّ. كانت حياتنا، نحن الثلاثة، في الميزان، وبسببي أنا. ولم يبقَ إلاّ أن يقرّرا. ردّد جيوسيبي قوله: «هذا أفضل الحلول يا ميمي. اعبر أنت، وسوف تتدبّر أمورك بمفردك. أمّا أنا فأبقى مع ميوتشيا، ونعود سويًّا إلى الديار. وقد نحاول مرّة ثانية...».

انقضت هنيهات كأنّها دهر. صدّقني، يا دون سالفاتوري، لقد مرّت عليّ الدقيقة الواحدة كأنّها أعوام. بدا كلّ شيء معلّقًا. وكنت أنتظر. ريثما يروز القدرُ حياةَ كلّ منّا، نحن الثلاثة، ويختار مصيرًا يرتضيه. ثمّ تكلّم دومينيكو فقال: «كلاّ، لقد جئنا معًا، ونعود معًا». حاول جيوسيبي أن يصرّ على موقفه لكنّ دومينيكو صدّه بحزم. لقد اتخذ قراره. كزّ أسنانه وأومأ بيده بعصبيّة بادية لن أنساها ما حييت: «إمّا نحن الثلاثة وإمّا لا أحد منّا. إنّهم لا يرحّبون بوجودنا. فليكُن ما أراده المَنَايك».

IV

دُكّانُ الصَمُوْتِين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نبشُ جثمان الخرساء ودفنها ثانيةً أوقعا زلزالاً في مونتيبوتشيو. أصبح هناك تلك الأكمةُ من التراب المحروث، خارج سور المقبرة، والتي يستحيل التغاضي عنها كأنّها ثؤلول معيبٌ على وجهِ القرية. كان أهل مونتيبوتشيو يخشون شيوعَ الأمر في الجوار، أن يُذاع الخَبَرُ فتغدو قريتهم عَرّةَ أهل الناحية. يخشون قول الناس إنّهم في مونتيبوتشيو لا يكرّمون الموتى بدفنهم، وإنّ أرض المدافن في مونتيبوتشيو محروثةٌ مثل أرض الحقول. فالقبر البرّي الذي جُعِلَ على حدةٍ دون القبور الأخرى، هو وصمة عار دائمة. وما كان حَنَقُ دون كارلو ليستكين لحظة واحدة، فإذا به يكيل الشتائمَ بلا هوادة لاعنًا مدنّسي الأضرحة، ذلك أنّ آل سكورتا قد تجاوزوا في عُرفِه كلّ حدّ. فنبش جثّة من مثواها الأخير هوَ صنيع كفّار، ولم يخطر بباله يومًا أنّ إيطاليا قد تؤوي برابرةً على شاكلتهم.

ذات ليلة، وقد عيل صبره، ذهب إلى القبر وانتزع عنه الصليب الذي كان آل سكورتا قد نصبوه على أكمة التراب، وحطّمه بسورة غضب. بقي القبر على تلك الحال بضعةَ أيّام، ثمّ ظهر الصليب مجدّدًا. جرّد الكاهن حملةً تأديبيّة ثانية، لكن،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في كلّ مرّة، كان الصليب يظهر مجدّدًا، بعد وقتٍ، في مكانه. كان دون كارلو يظنّ أنّه يخوض حربًا ضدّ آل سكورتا، غير أنّه كان مخطئًا في ظنّه. ذلك أنّ التحدي جعله بمواجهة أهل القرية جميعًا. فقد كانت الأيادي المجهولة تعيد نصب الصليب كلّ يوم، فقط لأنّ أناسًا مجهولين لا يرضون بأن يبقى ذلك القبر البائس، العاري من أيّ رخام أو شاهد، من دون صليب. وبمضي بضعة أسابيع على تكرار لعبة الهرّ والفأر تلك، توجّه وفد من أهل القرية لمقابلة دون كارلو في مسعىً لإقناعه بالعدول عن قراره، وطُلِبَ منه أن يقيم قدّاسًا للمناسبة وأن يوافق على نقلِ جثّة الخرساء إلى المقبرة. لا بل اقترحوا عليه، تجنّبًا لنبش الجثّة مرّة ثانية، أن يُعملَ على هدمِ سور المقبرة وبنائه من جديد بحيث يشملَ قبرَ المنبوذة. لكنّ دون كارلو أصرّ على موقفه، ولم تزده الوساطة إلاّ ازدراءً بأهل القرية. وصار مزاجه شرسًا وعرضةً لنوبات الغضب الحادّة.

منذ ذلك الوقت راح أهل القرية جميعًا يحقدون على الأب بوتزوني، وأقسموا أيمانًا فيما بينهم بأنّهم لن يدخلوا الكنيسة مادام «الكاهن الشمالي الأبله» هو راعيها. فما جاء آل سكورتا للمطالبة به كان متوقّعًا من قبل أهل القرية. لقد بلغهم جميعًا نبأ وفاة الخرساء وتوقّعوا جميعًا أن تحظى بجنازة فخمة كجنازة روكو. وقد أغضبهم قرار دون كارلو. فمن يحسب نفسه هذا الكاهن الغريب لكي يتجرّأ على نقض أعراف القرية الثابتة؟ واعتُبِر قرار «المستجدّ» (كما سمّته نساء القرية في السوق في

معرض حديثهنّ عن دون كارلو) مساسًا بذكرى دون جورجيو الحبيب. ولا أحد يستطيع أن يغفر هذه الخطيئة. «المستجدّ» يزدري العادات والأعراف. جاء من مكانٍ يجهلونه لكي يفرض عليهم قوانينه. لقد تعرّض آل سكورتا للإهانة، وعبرهم تعرّضت القرية بأسرها للإهانة. لم يرَ أحد منهم من قبل جنازةً مماثلة. فهذا الرجل، وإن كان كاهنًا، لا يحترمُ شيئًا ومونتيبوتشيو لا ترحّب بوجوده. غير أنّ مشاعر التشفّي الضارية تلك لم تكن صادرة فقط عن شعورهم بالمهانة، بل كان مصدرها الخوف أيضًا. ذلك الرعب القديم الذي لم يتبدّد تمامًا، منذ أيّام روكو سكورتا مسكالزوني. فبامتناعه عن دفن المرأة التي كانت زوجة روكو، كما ينبغي لها أن تُدفَن، يكون دون كارلو قد ابتلى القرية بغضب الشقيّ الراحل. الجميع يذكر جرائمه التي ارتكبها في حياته، والجميع يرتعد لما قد يكون قادرًا عليه وهو ميت. لا ريبَ إذًا في أنّ مونتيبوتشيو موشكة على البلايا، على زلزال، أو ربّما موسم قحط. أنفاس روكو سكورتا مسكالزوني تضمّخُ الهواء. يشعرون به، هَهنا، ممزوجًا بريح المساء الحارّة.

كانت صلةُ أهل مونتيبوتشيو بآل سكورتا مزيجًا مُبهمًا من الازدراء والفخر والخشية. ففي الأحوال العادية كانوا يُغفلون كارميلا ودومينيكو وجيوسيبي. فهؤلاء ليسوا، في نظرهم، أكثر من بائسين، أولاد شقيّ. ولكنْ إذا تعرّض أيّ منهم لسوء أو جرى المساسُ بذكرى روكو الضاري، سرت في القرية حمّية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأهل ودافعت عنهم كما تدافع الذئبة عن صغارها. ولسان حالها أنّ «آل سكورتا أشقياء، لكنّهم من أهلنا». هذا فضلاً عن كونهم ممّن غامروا في السفر إلى نيويورك، ومثل هذا الأمر يضفي عليهم شيئًا من القداسة ويُكسبهم نوعًا من الحصانة في نظر القرويين.

في غضون أيّام قليلة، هجر الناس الكنيسة. كفّوا عن المشاركة في القدّاس وعن تحيّة دون كارلو إذا صادفوه في الشارع. أطلقوا عليه لقبًا جديدًا كان بمثابة الحكم عليه بالإعدام: «الميلاني». إذ بدا أنّ مونتيبوتشيو باتت مستغرقة في ميولها الوثنيّة القديمة. كان أهلها يزاولون شتّى أنواع الشعائر والطقوس خارج الكنيسة، يرقصون الترنتيلا فوق التلال. والصيّادون يخشعون أمام أوثانٍ لها رأس سمكة، في طقوس هي مزيج من الخشوع للقديسين ذوي الشفاعة والتعبّد لأرواح المياه. وفي الشتاء تلازم العجائز البيوت لكي يستنطقنَ الأموات، كما تكرّرت مزاولة شعائر التعزيم التي مورست على المتخلّفين عقليًّا بدعوى أنّ بهم مسًّا من الشيطان، أو تُرمى جيف حيواناتٍ نافقة أمام بعض المنازل. فيما جمر العصيان يستَعِرُ تحت الرماد.

بقيت الأمور على تلك الحال بضعة أشهر، حتّى شهدت مونتيبوتشيو، ذات يوم، اضطرابًا غير معتاد. كانت شائعةٌ تسري بين الناس وتكفهرّ لها الوجوه، وإذا بالناسُ يتكلّمون بأصواتٍ خفيضة، وترتسم العجائز بشارة الصليب. طرأ أمر ما في ذلك الصباح، تناقلته الألسنُ وردّدته الشفاه. لقد مات الأب بوتزوني. وليس هذا ما كان يدعو إلى الذهول: بل كونه مات بطريقة غريبة تقضي الحشمةُ بالتغاضي عن شرحها. لساعات طويلة لم يبلغ الناس بتفاصيل عمّا جرى. ثمّ، شيئًا فشيئًا، مع ارتفاع النهار وشمسه الحارقة التي تلهب واجهات البيوت، اتضحت الشائعة. لقد عُثر على دون كارلو عند الهضاب على بعدِ مسيرة يوم من مونتيبوتشيو، عاريًا كما خلقه الله، وقد تدلّى لسانه كعِجل. كيف أمكن ذلك؟ ما الذي حدا به إلى الذهاب، وحيدًا، إلى تلك الهضاب بعيدًا عن نطاق رعيّته؟ كان الرجال والنساء يطرحون تلك الأسئلة، مرارًا وتكرارًا، وقد تحلّقوا جماعاتٍ يشربون قهوة الأحد. ولكن ثمّة ما يفوقُ ذلك كلّه غموضًا وغرابة. نحو الحادية عشرة بلغهم أنّ جسم الأب بوتزوني قد أحرقه لهبُ الشمس، في كلّ موضع منه، حتّى الوجه، مع أنّ وجههُ كان سويّة التراب حين عُثِر على جثّته. ما يعني بداهةً أنّه كان عاريًا قبل أن يموت. لقد مشى عاريًا تحت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أشعّة الشمس الحارقة لساعات حتّى احترق جلده ونزفت قدماه، ثم ماتَ تعبًا وعطشًا. ولكن يبقى الغموض الأكبر: لماذا قصد الهضاب وحيدًا في ساعات القيظ الشديد؟ إنّه السؤال الذي سيغذّي أحاديث أهل مونتبوتشيو وأقاويلهم لسنواتٍ طويلة. ولكن في ذلك اليوم، وبغية التوصّلِ إلى يقين ولو بصفةٍ مؤقتة، أجمعوا على الاعتقاد بأنّ العزلة بلا ريب هي سبب الجنون الذي أطبق عليه وأيقظه في ذلك الصباح ممسوسًا ساعيًا إلى مغادرة تلك القرية التي طالما مقتها، بأيّة وسيلة. لكنّ الشمسَ أهلكته. ولعلّ موته الغرائبي ذاك، وعريّه الإباحي الذي لا يليق برجال الكنيسة، هما اللذان رسّخا ظنّ القرويين بشأنه: فالواضح أنّ دون كارلو هذا رجلٌ عديم القيمة.

عندما بلغ رفايلي النبأ، امتقع وجهه. راح يستفسِرُ عن التفاصيل تكرارًا ولم يقوَ على مغادرة الساحة حيث تدور الأقاويل كما تدور رحى الطواحين. ينبغي له أن يعلم المزيد، أن يتقصّى التفاصيل، أن يتثبّت من أن كلّ ما يسمعه حقيقة. كأنَّهُ فُجِعَ بما بلغه، ما أثار دهشة من عرفوه جيّدًا. فهو من آل سكورتا، وكان الأحرى به أن يبتهج لموت الأب بوتزوني. جال رفايلي لساعات متسكّعًا في الأنحاء عاجزًا عن مغادرة ساحة المقاهي، ثمّ حين رضخ أخيرًا للأمر الواقع، ولم يبق لديه أدنى شكّ في أنّ الكاهن قد توفي فعلاً، بصقَ على الأرض وغمغم قائلاً: «لقد وجد هذا الحقير وسيلةً لكي يهلكني بهلاكه».

كانا قد التقيا مساءَ اليوم السابق على أحد دروب الهضاب. كان رفايلي عائدًا من البحر ودون كارلو يتنزّه بمفردِه، فقد باتت النزهة عبر دروب الناحية هي سلواه الوحيدة. في البداية أغضبته حالُ القطيعة التي فرضتها عليه القرية، وبمضيّ أسابيع قليلة أحاطته بعزلةٍ لا فكاكَ منها، فغلبَ عليه الشرود، وبات البقاء في القرية عذابًا أليمًا، ولا يأنسَ لبعض السكون إلاّ خلال نزهاته تلك.

رفايلي هو الذي بادر إلى التحدّثِ إليه. وفي اعتقاده أنّها سانحةٌ للتفاوض معه للمرّة الأخيرة.

«يا دون كارلو، خاطبه قائلاً، لقد أسأت إلينا. وقد حان الوقت للعدولِ عن قرارك.

ـ أنتم عصبةٌ منحلّين، صاح الكاهن بمثابة إجابة. الربّ شاهدٌ على أفعالكم وسوف يقتصّ منكم».

بدأ الغضبُ يعتملُ في صدرِ رفايلي غير أنّه حاول كظمه وتابع كلامه.

«أنت تمقتنا. فليكن. غير أنّ من تعاقبه لا شأن له بما يدور بيننا. فللخرساء حقّ في أرض المقبرة.

ـ كانت مدفونة في المقبرة قبل أن تنبشوا جثّتها، ولن تحظى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تلك الخاطئة إلاّ بما استحقّته لقاء إنجابها عصبةً كافرين كهذه».

امتقع وجه رفايلي، وبدا له أنّ الهضاب نفسها تحثّه على ردّ الإهانة.

«أنت لا تستحقّ الثوب الذي ترتديه، يا بوتزوني. أتسمعني؟ أنت جُرذٌ مختبئٌ في مسوح كاهن. انزع عنكَ هذا الثوب، هيّا لتنزعه عنك اللحظةَ أو أقتلك».

وارتمى على الكاهن بضراوة كلب. أمسك بياقته وبحركة واحدة من يديه انتزعَ ثوبه، فبُهِتَ الكاهن وعجزه يحبس أنفاسَه حتّى الاختناق. لم يكتف رفايلي بما فعل، بل راح يصيح كالممسوس مردّدًا: «عاريًا، أيّها الجيفة كما خلقك الربّ!» ومزّق بكلّ ما أوتي من قوّة ملابس الكاهن وهو يوسعه ضربًا.

لم يهدأ إلاّ بعد أن نزعَ عن الأب بوتزوني ملابسه كلّها وعرّاه تمامًا. كان دون كارلو مستسلمًا، ينتحب كطفلٍ ساترًا نحره بيديه السمينتين. لا يكفّ عن ترداد الصلوات كأنّه ابتليَ بعصبةٍ من الهراطقة. فيما رفايلي يصول ويجول متلذّذًا بضراوة ثأره. «من الآن فصاعدًا لن تخطو بين الناس إلاّ على هذه الحال: عاريًا كدودة أرض، يُحرّم عليك ارتداء هذا الثوب، وسوف أقتلك إنْ سوّلت لك نفسك أن ترتديه ذات يوم. هل تسمعني جيّدًا؟»

لبثَ دون كارلو صامتًا، ثمّ ابتعد منتحبًا وتوارى. عقب الحادثة لم يصحُ أبدًا من الصدمة. لقد أفقدته عقلَه تمامًا. جالَ في نواحي الهضاب كطفلٍ تائه، غير آبهٍ بالتعب أو بلفحِ الشمس. تاه طويلاً قبل أن ينهار، متهالكًا، فوق أرض الجنوب تلك، التي لطالما ازدراها.

مكث رفايلي لبعض الوقت حيث اعتدى على الكاهن بالضرب. لبث ساكنًا ريثما يستكين غضبُه ويهدأ، فيعود أدراجه إلى القرية كأنّ شيئًا لم يكن. عند قدميه ثوب الكاهن الممزّق مكوّم على الأرض. كان لا يستطيع أن يشيح ببصره عنه. أيقظه شعاعُ شمسٍ مبهرٍ من سهوِه فرمشت عيناه وإذا بشيءٍ يلمعُ وسط غشاوة النور الساطع، فانحنى غير مدركٍ ما يفعل والتقطَ ساعةً ذهبيّة. كان ليرمي الساعة، متقزّزًا، على بعدِ أمتارٍ قليلة لو أنّه غادر المكان من فورِه، لكنّه لبثَ هناك لا يحرّك ساكنًا. كان يشعر بأنّه لم يشفِ غليله بعد، فانحنى مجدّدًا، متمهّلاً، متوجّسًا، والتقط الثوب الممزّق وفتّش في جيوبه. أفرغ محفظة دون بوتزوني ثمّ رماها على بعد أمتار، مفتوحةً كجيفةٍ منزوعة العظم. كان يشدّ قبضته على رزمةٍ من الأوراق النقديّة والساعة الذهبيّة، وقد افترّت شفتاه عن بسمةِ جنونٍ دميمة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«لقد وجد هذا الحقير وسيلة لكي يهلكني بهلاكه». كان رفايلي قد أيقن أخيرًا أن شجاره مع الكاهن أسفرَ عن موت الأخير، وحتّى لو ثابر على الترددِ في سرّه أنّه لم يقتل أحدًا، فقد كان موقنًا في قرارة نفسه أنّ وِزرَ تلك الميتة سيثقل على ضميره إلى الأبد. كانت تعاوده صورة الكاهن عاريًا، منتحبًا كطفلٍ، وهو يسير مبتعدًا بين الهضاب كمخلوقٍ بائس حُكِمَ عليه بأن يعيش في المنفى. «لقد بتّ ملعونًا، قال في سرّه. أحمل لعنةَ هذا الحقير الذي لا يستأهل أن يُبصَقَ عليه».

نحو الظهر، أعيدت جثّة الأب بوتزوني إلى مونتيبوتشيو، محمولة على ظهر حمار. كانت الجثّة قد غطّيت بملاءة، لا لإبعاد الذباب عنها بل لكي لا يخدش عريُ الكاهنِ الراحل حياء النساء والأطفال.

لدى وصول الجثّة إلى مونتيبوتشيو، طرأ ما لم يكن في الحسبان. فقد عمد المكاريّ، صاحب الحمار ـ وهو قرويّ صَموت ـ إلى إنزالِ الجثّة وتركها أمام الكنيسة، معلنًا على الملأ أنّه أدّى واجبه، ثمّ قفلَ راجعًا إلى حقلِه. بقي الجثمان هناك، ملفوفًا بملاءة وملطّخًا بالتراب. لبث الجميع واقفين،

يحدّقونَ. لا أحد منهم يحرّك ساكنًا. لم يشأ أحدٌ أن يدفنه، أو يشارك في قدّاسِ مأتمه أو يحمل نعشه، ثمّ من ذا الذي سيقيم شعائر القدّاس؟ فكاهن سان جوكوندو كان قد انتقلَ إلى باري لبعض الوقت، وريثما يعود تكون جثّة دون كارلو قد تحلّلت. لذلك أيقن الجميع، بعد لأيٍ، أنّهم إذا أهملوا جثّة الميلاني فلن تلبث، نظرًا للقيظ الخانق، أن تتحلّل وتنبعث منها الروائح. وبذلك يكون انتقامه منهم، بإفساده هواء مونتيبوتشيو. ولِمَ لا، التسبّب ربّما بانتشار الأمراض فيها. إذًا، ينبغي أن يُدفَن، لا لياقةً ولا رحمةً بل دفعًا لكلّ أذية. فقرّ الرأي على حفر قبرٍ وراء المقبرة، خارج السور. واختير أربعة رجال بالقُرعة، فحملوه ورموه في الحفرة من دون مراسم. بصمت. لقد دُفِن دون كارلو كما يُدفَن الكافر، من دون صلاة تخفّف عنه لفحَ الشمس.

مَثلَت تلك الميتة كحدثٍ بارزٍ في حياة أهل مونتيبوتشيو، ولكنْ، من الواضح أنّ العالم من حولهم لم يُعِرها أيّ اهتمام. عقِبَ وفاة دون كارلو تناست الأسقفيّة القرية مجدّدًا، الأمر الذي لم يُزعج أهل مونتيبوتشيو على الإطلاق. فقد اعتادوا مثل هذا التناسي، حتّى أنّهم كانوا يتهامسون أحيانًا لدى مرورهم بباب الكنيسة قائلين: «خيرٌ لنا ألاّ توفد الأسقفيّة أحدًا، إذا كان الوافد الجديد من أمثال بوتزوني»، وذلك خشيةَ أن توفدَ الكنيسةُ، بما يُشبِهُ قضاء الله، رجلاً آخر من الشمال يعاملهم كأشقياء ويهزأ من تقاليدهم ويرفض أن يعمّد أبناءهم.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدا أنّ السماء استجابت لدعواهم. فلم يأتِ أحد وبقيت الكنيسة مغلقة كقصور تلك العائلات التي تختفي فجأة وتخلّف وراءها أثَرَ عَظَمةٍ وأحجار عريقة جافّة.

كان آل سكورتا قد استأنفوا حياتهم التعِسة في مونتيبوتشيو. أقاموا، هم الأربعة، في الحجرة الضيّقة الوحيدة التي يتألّف منها منزل رفايلي. كلّ واحد منهم تدبّر لنفسِه عملاً ليُسهم في توفير حصّته من الطعام ـ لا أكثر. عملَ رفايلي صيّادًا. لم يكن لديه زورقٌ خاصّ به، غير أنّه كان يقصد الميناء كلّ صباح، فيدعوه هذا أو ذاك من الصيّادين لمرافقته في زورقه مقابل حصّة من صيد يومه. فيما عمل دومينيكو وجيوسيبي عاملين مُياومَين لدى المزارعين الملاّكين، فينصرفان إلى جمعِ محصول الطماطم أو الزيتون أحيانًا وأحيانًا أخرى إلى تحطيب الجذوع اليابسة. يقضيان أيّامًا بأكملها منكبّين على أرضٍ لا تعطي غلالاً. أمّا كارميلا، فكانت تطبخ للثلاثة الآخرين، وتُعنى بالغسيل وتدبير المنزل كما تنجز بعض أعمال التطريز لأهل القريّة.

كانوا لا يقربون ما اتفقوا على تسميته «نقود نيويورك». إذ لطالما أمِلوا في الاستفادة منه لشراء منزل خاص بهم. وعليهم في الأثناء أن يقتصدوا وينتظروا أيّ سانحة لشرائه. كانوا يملكون ما يكفي لشراء منزلٍ مُعتبرٍ لفرط ما كان الحجر، آنذاك، زهيد الثمن في مونتيبوتشيو. فقد كان زيت الزيتون أغلى بما لا يقاس من فدادين الحجارة المترامية في تلك البلاد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مع ذلك، رفعت كارميلا رأسها عن طبقِ الحساء، ذات مساء، وبادرتهم قائلة:

«ينبغي لنا نتّبعَ تدبيرًا آخر.

ـ ماذا؟

ـ نقود نيويورك، أردفت قائلة، يجب أن نستغلّها في أمرٍ آخر غير شراء المنزل.

ـ اقتراحك سخيف، قال دومينيكو. فأين سنقيم؟

ـ وإذا اشترينا منزلاً، أجابت كارميلا التي صرفت ساعاتٍ في تقليب كلّ الاحتمالات على أكثر من وجه، فسيتعيّن عليكم أن تواصلوا كدّكم كالدواب إلى ما شاء الله لكسب قوتكم. لا تملكون إلاّ كدّكم سندًا لكم وعونًا. وسوف تنقضي الأعوام على هذه الحال. لا. نحن نملك مالاً، ويجب أن نستغلّه لشراء ما هو أفضل.

ـ لشراء ماذا، على سبيل المثال؟

ـ لا أدري الآن. ولكنّني سأفكّر في شيء ما».

اقتراح كارميلا أوقع إخوانها الثلاثة في حيرة شديدة. كانت محقّة فيما قالته. هذا أمر لا يرقى إليه الشكّ. يشترون منزلاً، ثمّ ماذا بعد؟ لبدا الأمر معقولاً لو كانوا يملكون من المال ما يكفي لشراء أربعة منازل، غير أنّهم لا يملكون هذا القدر منه. لذا عليهم التفكير في خيار آخر.

«غدًا يوم أحد، أردفت كارميلا قائلة، فاسمحوا لي أن أرافقكم. أريد أن أرى ما ترون، وأفعل ما تفعلون، طوال

النهار. سوف أعاين. وأقرّر».

مجدّدًا، عجز الرّجال عن الإجابة. ليس من عادة النساء في مونتيبوتشيو أن يغادرن بيوتهنّ، ولا يغادرنها، عند الاقتضاء، إلاّ في مواقيت معيّنة أثناء النهار. في الصباح الباكر حين يقصدنَ السوق، أو حين يذهبنَ إلى القدّاس ـ ولكن منذ وفاة دون كارلو بَطُلَ هذا التقليد. أيّام قطاف الزيتون، في موسم جني المحاصيل، وفي أعياد شفيع القرية. أمّا في الأوقات المتبقّية، فيلازمن دورهنّ، حبيسات جدران منازلهنّ الصفيقة، بمنأى عن الشمسِ وعن تحرّشات الرجال. ما اقترحته كارميلا للتوّ يخالف تقاليد القرية، ولكنْ منذ عودتهم من أميركا، والاخوة سكورتا يثقون ثقةً عمياء بفطرةِ أختهم الصغرى.

«ليكن»، قال دومينيكو.

في اليوم التالي ارتدت كارميلا أجمل أثوابها وغادرت البيت مصحوبةً بإخوانها الثلاثة. قصدوا المقهى حيث احتسوا ـ على عادتهم كلّ أحد ـ قهوةً مركّزة تخضّ الأمعاء وترفع ضغطَ الدم. ثمّ جلسوا إلى منضدةٍ، على الرصيف، ولعبوا بالورق. كانت كارميلا بصحبتهم. على حِدةٍ. مستقيمة في جلستها. وكانت تراقب الرجال يمرّون، وتراقب حياة القرية. ثمّ ذهبوا لزيارة بعض أصدقائهم من صيّادي الأسماك. وعند حلول المساء، راحوا يتنزّهون عبر باحة غاريبالدي، هبوطًا وصعودًا، مُحيين من يعرفونهم، مُستَفسرين عن أخبار اليوم. كانت كارميلا، وللمرّة الأولى في حياتها كلّها، قد أمضت نهارًا بأكمله

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مستكشفةً شوارع القرية، في عالم الرجال الذين لم يكفّوا عن الحملقةِ بدهشةٍ بادية. سمعت تعليقاتهم التي أطلقوها همسًا. كانوا يتساءلون عن سبب وجودها هناك، ويعلّقون على ملبسها ومظهرها، غير أنّها لم تأبه بذلك كلّه، منصرفةً بكل جوارحها إلى أداء مهمّتها. عندما عادوا إلى المنزل ليلاً، خلعت حذاءها بشيء من الارتياح. كانت قدماها تؤلمانها. وكان دومينيكو واقفًا أمامها، يرمقها بصمت:

«إذًا؟»، سألها أخيرًا. رفع جيوسيبي ورفايلي رأسيهما منتبهَين ولزما الصمت لكي لا تفوتهما الإجابة.

«السجائر، أجابت بهدوء.

ـ السجائر؟

ـ أجل. يجب أن نفتتح دكّان تبغ في مونتيبوتشيو».

أشرق وجه دومينيكو فجأة. دكّان تبغ. طبعًا. ليس في مونتيبوتشيو دكّان تبغ. صاحب دكّان البقالة يبيع بعض السجائر، وهناك من يبيع بعضها في السوق أيضًا. ولكن لا وجود في مونتيبوتشيو لدكّان متخصّص في بيع التبغ. لقد راقبت كارميلا حياة الرجال طوال النهار، ولاحظت أنّ القاسم المشترك الذي يجمع بين الصيّادين وعجائز القرية والموسرين من سكّان الباحة، هو أنّ الرجال جميعًا يمجّون سجائرهم الرفيعة بنهم. في الظلّ، وهم يتناولون كأس المقبّلات، في عزّ الحرّ، أثناء العمل، كلّهم يدخّنون. فلابدّ إذًا من تلبية حاجتهم. دكّان تبغ. بلى. عند الباحة. كانت كارميلا واثقةً مما تقول. دكّان تبغ. في أقرب وقت. وزبائنه كُثُر.

اجتهد آل سكورتا في تحصيل ما ابتغوه واشتروا محلاً عند باحة غاريبالدي. كان عبارةً عن حجرة فسيحة خالية، في الطبقة الأرضيّة، لا تتجاوز مساحتها الثلاثين مترًا مربعًا. واشتروا أيضًا القبو التابع له لجعله مخزنًا للبضائع. بعد ذلك لم يتبقّ لهم شيء من نقود نيويورك. وبدت كارميلا، عند مساء اليوم نفسه، متجهّمةً صامتة.

«ما الخطب؟ سأل دومينيكو.

ـ لم يبق فلسٌ واحد للحصولِ على ترخيص، أجابت كارميلا.

ـ كم يلزمنا؟ سأل جيوسيبي.

ـ بَدَلُ الترخيص ضئيل جدًّا، ولكن يلزمنا مالٌ كثير لإرضاء مدير مكتب التراخيص. بدل إكراميّات. كلّ أسبوع. إلى أن نحظى بالموافقة. ولا نملك المال الكافي لأجل ذلك».

بدا دومينيكو وجيوسيبي متكدّرين لما سمعاه. فهذه عقبة جديدة لم تكن في الحسبان ولا يدريان كيف التغلّب عليها. رمقهم رفايلي، هم الثلاثة، بنظرات متعاطفة، ثمّ خاطبهم قائلاً:

«أنا أملك المال. وهو لكم. ولا أسألكم في المقابل سوى أمر واحد. ألاّ تسألوني من أين حصلت عليه، ولا منذ متى امتلكه، ولا لِمَ أخفيت أمره عنكم. المال متوافر. وهذا المهم».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ووضع على الطاولة رزمةً من الأوراق النقديّة المجعوكة. كانت تلك نقود الأب بوتزوني. رفايلي باع الساعة، واحتفظ بالمال حتّى ذلك اليوم لأنّه لم يدرِ ماذا يصنع به، لا يجرؤ لا على إنفاقه ولا على رميه للتخلّص منه. طبعًا ابتهج آل سكورتا لحصولهم على المال، ولكنّ ذلك لم يخفّف من وطأة تأنيب الضمير لديه. كان طيف بوتزوني المخبول لايزال ماثلاً في ذهنه موغرًا صدره بمشاعر الندم.

أنفقوا نقود رفايلي على معاملات الترخيص. فقد دأب دومينيكو، طوال ستة أشهر بأكملها، على مغادرة مونتيبوتشيو، كلّ خمسة عشر يومًا، قاصدًا سان جوكوندو على ظهر حمار. فهناك يوجد مكتب لإدارة حَصْرِ التبغ. وكان يحمل معه لمدير المكتب اللحمَ المقدّد وأجبان الكاتشيوكافالّي وبضع قوارير من شراب الليمونتشيلّو المسكر. كان يقوم بالرحلة، ذهابًا وإيابًا، من دون كلل، وينفق المال على شراء تلك المؤن. وبمضيّ ستّة أشهر تمّت الموافقة على طلبهم، وأصبح آل سكورتا، أخيرًا، يمتلكون رخصةً لبيع التبغ. أنفقوا كلّ شيء، ولم يتبقّ لديهم فلس واحد. باتوا يمتلكون جدران حجرة فارغة وقصاصة ورق ترخّص لهم بالعمل. لم يبق معهم ما يعين على شراء التبغ. حصلوا على الكميّة الأولى من صناديق السجائر بالدَّين، وذهب دومينيكو وجيوسيبي لاستلامها من سان جوكوندو. حمّلوا الصناديق على ظهر حمار وللمرّة الأولى في حياتهما، بدا لهما، في طريق عودتهما، أنّ ما يشهدانه، أخيرًا، هو بداية

شيء ما. حتّى ذلك اليوم، لم يكن مقدّرًا لآل سكورتا إلاّ أن يتلقّوا المصائب والخيبات. كان ذلك قدرهم الذي لم يختاروه بأنفسهم. لكنّهم، وللمرّة الأولى، وجدوا أنفسهم أمام خيار الكدّ والمكافحة من أجلِ أنفسهم، وكان ذاك الخيار يُسعدهم.

وضعوا السجائر فوق صناديق من الكرتون. كدّسوا الرزمَ فوق بعضها بعضًا حتّى بدا المحلّ دكّانًا لبيع البضائع المهرّبة. لا كونتوار ولا صندوق محاسبة. لا شيء سوى البضاعة سويّة الأرضيّة. كان الأمر الوحيد الذي يشير إلى أنّ الدكّان هو نقطة بيع شرعيّة للسجائر، يتمثّل بلوح من الخشب ثبّتوه فوق الباب وقد خُطّت عليه العبارة الآتية: Tabaccheria Scorta Mascalzoni Revendita numero1[1]. وبذلك ولِد أوّل دكّان تبغ في مونتيبوتشيو. وكان دكّانهم، هم. بدءًا بتلك اللّحظة سينكبّون، قلبًا وقالبًا، على حياة الكدّ تلك التي ستقصم ظهورهم وتنهكهم. حياة بلا نوم. سوف يرتبط مصير آل سكورتا بصناديق التبغ تلك التي سينزلونها عن ظهر الحمار، عند الفجر، قبل أن يتوجّه المزارعون إلى حقولهم وقبل عودةِ الصيّادين من عرضِ البحر. سوف ترتهن حياتهم بأكملها لتلك الأعقاب البيضاء التي يمسكها الرجال بقوّة بين إصبعين، فَتَقْصُرُ تدريجيًّا، مبدّدةً في هواء أمسيات الصيف العذبة. حياة عرق ودخان. تبدأ، من تلك اللحظة، فرصة للنجاة من البؤس الذي ورثوه عن والدهم، سنحت لهم أخيرًا. **تاباكييرا سكورتا مسكالزوني ريفنديتا نوميرو أونو.**

---

(١) دكّان تبغ مسكالزوني، المخزن رقم ١.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مكثنا في ألّيس آيلند تسعة أيّام. في انتظار مركب يعيدنا إلى ديارنا. تسعة أيّام، يا دون سالفاتوري، قضيناها في تأمّل ذلك البلد الذي حظر علينا. وهناك عاودتني للمرّة الأولى ذكرى اللحظة التي عاد فيها أبي إلى الدار عقب ليلة الاعتراف، ذكرى اللحظة التي داعب فيها شعري. خُيّل إليّ أن يدًا تداعب شعري مجدّدًا. اليد نفسها. يد أبي. يد الرياح الملعونة في هضاب بوليا. كانت تلك اليد تردّني إليها. يد سوء الطالع الجافّة التي تحتّم، منذ الأزل، على أجيالٍ بأكملها ألاّ تكون سوى أجيالٍ من القرويين البائسين الذين يعيشون ويهلكون تحت الشمس، في تلك البلاد التي تحظى فيها أشجار الزيتون من الدلالِ ما لا يحظى به أبناء البشر.

صعدنا إلى متن المركب العائد، ولم يكن إبحاره شبيهًا بالإبحار من مرفأ نابولي أي مصحوبًا بهرج الأصوات المتهلّلة. في تلك الرحلة، سرنا جميعًا صامتين وبخطىً متردّدة لاتخاذ أماكننا. رعاع الأرض يصعدون إلى ظهر المركب، مرضى أوروبا بأسرها، الأشدّ فقرًا من بين الفقراء. كان مركب حزنٍ مُذعِن، سفينة المبتلين بسوء الطالع، الملعونين، العائدين إلى

الديار بوصمة الإخفاق على جباههم. لم يكذب المترجم. كانت الرحلة مجّانيّة، ولم يكن لأحد منّا بأيّة حال أن يمتلك ما يسدّد به ثمن تذكرة العودة. فإذا شاءت السلطات ألاّ يتجمهر المُعدِمون في أليس آيلند، لابدّ لها من تنظيم رحلات العودة على نفقتها. ولكن في الوقت نفسه، لم تكن السلطات مرغمة على تخصيص مركبٍ لكلّ بلدٍ على حدة. كان مركب المرفوضين يمخر عباب الأطلنطي، .ولدى بلوغه شواطئ أوروبا، راح يعرّجُ على المرافئ الكبرى، واحدًا تلو الآخر، وينزل عن متنه دفعاتٍ من حمولته البشريّة.

كانت تلك الرحلة بالذات طويلة جدًّا يا دون سالفاتوري. تنقضي الساعات على متن ذلك المركب كما تنقضي الساعات في مستشفى، على إيقاع تقطّر الأمصالِ البطيء. كان المسافرون يُحتضرون في ردهات المنامة. احتضار المرض واحتضار الخيبة واحتضار الوحدة. كانت تلك الكائنات المهملة لا تجد سببًا واحدًا للعيش لكي تتشبّث به. وغالبًا ما تستسلم طوعًا لسَكَراتِ الموتِ، ملؤها الغبطة في قرارة النفسِ، متبسّمةً لخلاصها، أخيرًا، من تعاقب المحن والمذلاّت الذي كان قوام حياتها.

العجيب في كلّ ذلك هو أنّني استعدت عافيتي. زالت عنّي الحمّى، وسرعان ما أصبحت قادرةً على التنقّل بيُسرٍ على متن المركب. كنت أهبط السلالم، سالكة جميع الممرّات، متنقّلةً بين الأمكنة، وبين المجموعات. ولم تمض أيّام قليلة حتّى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أصبح الجميع يعرفونني ـ بصرف النظر عن أعمارهم وعن لغاتهم. بتّ أصرف أوقاتي في إسداء الخدمات الصغيرة. رتق الجوارب، تدبّر بعض الماء للعجوز الإيرلندي أو إيجاد مقايضٍ للدنمركيّة التي تريد أن تقايض مداليّة من الفضّة بغطاء. كنت أعرف الجميع بأسمائهم أو بألقابهم. وكنت أمسح جبين المرضى بالخرق الرطبة، وأعدّ الطعام للعجائز، وكانوا ينادونني «الصغيرة». أشركتُ إخواني في مساعيّ تلك. كنت أملي عليهم توجيهاتي فينقلون المرضى إلى ظهر السفينة أيّام الصحو، ويوزّعون حصص الماء في ردهات المنامة. وكنّا على التوالي رُسُلاً وتجّارًا وممرّضين ومُعَرّفين لمن يسرّ باعترافه الأخير. وشيئًا فشيئًا تمكّنا من تحسين أوضاعنا، فكسبنا بعض النقود، وحظينا ببعض الامتيازات. ما مصدرها؟ الموتى في معظم الأحيان. كانت الوفيّات كثيرة. وكان المتعارف عليه أن يؤول متاع المتوفين القليل إلى المجموعة. إذ لم يكن هناك حلّ آخر. فقد كان التعساء، في معظمهم، عائدين إلى بلدٍ لم يبق لهم فيه من ينتظرهم. تركوا أقاربهم في أميركا أو بقاعٍ كانوا اقسموا ألاّ يعودوا إليها ثانية. فهل كنّا لنرسل حفنة المتاع المتبقّي لهم إلى عناوين لن تبلغها أبدًا؟ لذلك كانت الغنيمة توزّع على مَن حضَر. وغالبًا ما يكون أفراد الطاقم هم أوّل الغانمين. ولكن هنا بالذات كنّا نبادر نحن إلى التدخّل، إذ كنّا نتدبّر الأمر بحيث لا يعلم أفراد الطاقم بالأمر إلاّ متأخرين، فنعمد إلى اقتسام الغنيمة في عتمة العنابر. وكان اقتسام الغنائم خاضعًا لمفاوضاتٍ مطوّلة. فإذا كان للميت أقارب على متن السفينة آلت إليهم التركة، أمّا إذا كان وحيدًا ـ وهي أغلب الحالات ـ فكنّا نسعى إلى الإنصاف

في القسمة، ونصرف أحيانًا ساعات طويلة للتوافق أخيرًا على قسمة ميراث مؤلّف من حفنة أسمالٍ وزوج أحذية. لم أكن لأفكّر لحظة، خلال رعايتي مريض من المرضى، في احتمال وفاته وفي الغنيمة التي قد أحظى بها إثر وفاته. أقسم على ذلك يمينًا معظّمة. إنما كنت أفعل لأنّني أريد أن أكافح من أجل البقاء، وذاك كان سبيل الكفاح الوحيد الذي اهتديت إليه.

في ذلك الوقت انصرفتُ، على نحوٍ خاص، للعناية بعجوز بولنديّ كنت أحبّه كثيرًا. لم أحسن يومًا نُطقَ اسمه كاملاً، كورنييفسكي أو كورزنييفسكي... لذلك كنت أدعوه «كورني». كان ضئيل الجسم هزيلاً، ولابدّ أنّه جاوز السبعين من عمره. كان جسمه يتهالكُ رويدًا رويدًا. وكم نصحُه الأقرباءُ قبل رحلة الذهاب، بلاجدوى محاولته. وكم قيل له إنّه مسنّ أكثر ممّا ينبغي، وضعيف الجسم أكثر ممّا ينبغي. لكنّه أصرّ. أراد أن يرى البلاد التي يتحدّث عنها الجميع. ولكن سرعان ما خارت قواه. كانت نظراته تحفظ بريقها برغم هزاله الذي كان يزداد يومًا بعد يوم، وكان أحيانًا يهمس في أذني كلمات لا أفهمها لكنّها تضحكني لأنّ ليس في ألفاظها ما يشبه اللغة.

كورني.. هو الذي أنقذنا من البؤس الذي كان يقرض حياتنا. توفي قبل وصول المركب إلى إنكلترا. مات في ليلةٍ كان الخضمّ فيها مترفّقًا. لمّا أحسّ بأنّه راحلٌ، دعاني إلى الجلوس بقربه وأعطاني صرّة صغيرة من القماش مربوطة بحبلٍ رفيع. نطق بعبارةٍ لم أفهمها، ثمّ أرخى رأسَه على فراشه،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

جاحظَ العينين وراح يصلّي باللاتينيّة. صلّيتُ معه حتّى بدّد الموتُ أنفاسَه الأخيرة.

كانت الصرّة تحتوي على ثماني قطعٍ ذهبيّة وصليبٍ من الفضّة. ذاك المال هو الذي أنقذنا.

بعيد وفاة كورني العجوز، اتخذ المركب وجهة مرافئ أوروبا. فرسا أوّلاً في لندن، ثمّ في الهافر قبل أن يعاود الإبحار نحو البحر الأبيض المتوسّط حيث رسا في برشلونة وفي مرسيليا، وأخيرًا في نابولي. وكان في كلّ محطّة يفرغُ عددًا من ركّابِه البائسين ويحمّل البضائع. أمّا نحن فكنّا ننتهز هذا التوقّف المتكرّر في الموانئ للقيام بتجارتنا. في كلّ محطّة كان المركبُ يبقى راسيًا يومين أو ثلاثة ريثما يفرغ العمّال من تحميل البضائع ويصحو أفراد الطاقم من سكرتهم. وكنّا ننتهز تلك الساعات الثمينة لشراء بعض السلع: شاي، قدور للطبخ، تبغ. نختار ما يتميّز به هذا البلد منتهزين المحطّة التالية لبيع ما اشتريناه. كانت تجارة تافهة برأس مالٍ تافه، غير أنّنا جمعنا تلك الثروة البائسة بألف حساب وحساب. ووصلنا إلى نابولي ونحن نمتلك من المال أكثر ممّا امتلكنا يوم رحيلنا. وهذا هو المهمّ يا دون سالفاتوري. هذا مصدر اعتزازي. عدنا أكثر ثراءً ممّا كنّا عليه يوم رحيلنا، واكتشفت أنّني أمتلك مواهب لا بأس بها في مجال التجارة. وكان أخوايَ سعيدَين لما أصبحنا عليه. هذا الكنز الذي جمعناه من الحثالة بشقّ النفس وحسن التدبير، هو الذي أنقذنا من الهلاك كالبهائم، لدى عودتنا، وسط ازدحام نابولي الخانق.

V

الوليمة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هَبَط الليل. أسدلت كارميلا باب الحديد. لا مزيدَ من الزبائن. «سيأتي بعض المتأخّرين منهم بالتأكيد، ولكن قد يسعفني الحظّ، قالت في سرّها، فلا يصرّ أيٌّ منهم على الدخول إذا رأوا الباب الحديد مسدلاً نصفه». وهي، بأيّة حال، مصمّمةٌ على التغافل حتّى لو أقاموا الدنيا صياحًا وطرقًا على الباب. لديها ما تفعله ولا تريد أن يزعجها أحد. وقفت وراء الكونتوار وبعصبيّة بادية التقطت يداها علبة الخشب التي تستخدمها كصندوق محاسبة. «غالبًا ما يكون المبلغ كافيًا» قالت في سرّها. فتحت العلبة ودسّت أصابعها بين أوراق النقد المتنوّعة الفئات، المجعوكة، ساعيةً إلى تصنيفها وتمليسها وعدّها. كانت أصابعها تغوصُ في كومة النقود بلهفةٍ لا يعرفها إلاّ الفقراء. بحركةٍ يشوبها القلق، تنتظر حصيلة العدّ فَزِعةً. هل سيكون المبلغ كافيًا؟ في العادة لا تجري حساب غلّة اليوم إلاّ بعد عودتها إلى المنزل. لا تستعجل الأمور. إذ يسعها، بالتخمين، أن تعرف ما إذا كان النهار مجزيًا أم لا، ولا تبدي أيّ استعجال للتثبّت من صحّة تخمينها في عدّها النقود بدقّة. لكنّ الأمر كان مختلفًا في ذلك المساء. بلى، كانت في ذلك المساء منكبّة على صندوق الغلّة، في عتمة دكانها، كما ينكبّ لصّ على تفحّص غنيمته.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«خمسون ألف لير»، تمتمت أخيرًا، حين أصبحت النقود رزمةً منسّقةً أمامها. التقطت الرزمة ودسّتها داخل مغلّف، ثمّ أفرغت ما تبقّى من النقود المعدنيّة في حافظة نقودها القماش التي تستخدمها عادةً لنقلِ غلّة اليوم.

عندها فقط أغلقت الدكّان بحركاتٍ سريعة وعصبيّة كما يفعل المتآمرون.

لم تسلك طريق المنزل. بل انعطفت ناحيةَ شارع الشهداء ومَشَت بخطىً متسارعة. كانت الساعة الواحدة إلاّ عشر دقائق بعد منتصف الليل. الشوارع مقفرة. عندما بلغت باحة الكنيسة، لاحظت بارتياح أنّها وصلت قبل موعدها. لم تشأ الجلوس على أحد المقاعد العامّة، فتمشّت قليلاً، وما هي إلاّ خطواتٍ حتّى اقترب منها رجلٌ. شعرت كارميلا بأنّها طفلة صغيرة في مهبّ الريح. حيّاها بلطفٍ بالغ هازًّا رأسه. كانت عصبيّة المزاج، ولا تريد لهذا اللقاء أن يطول خشيةَ أن يُشاهدا معًا في ساعةٍ مماثلة فتعمّ الأقاويل القرية بأسرها. أمسكت بالمغلّف الذي أعدته وأعطته للرجل.

«هذا المغلّف لك يا دون كارديلاّ. حسب الاتفاق».

تبسّم الرجل ودسّ المغلّف في جيب سرواله الكتّان.

«ألن تعدّ المبلغ؟» سألته بدهشة.

تبسّم الرجل مجدّدًا ـ كأنّه يقول لها إنّه لا يحتاج إلى احتياطاتٍ مماثلة ـ، ثمّ حيّاها وتوارى عن الأنظار.

لبثت كارميلا هناك، عند الباحة. لم يستغرق الأمر أكثر من بضعِ ثوان، وقد أصبحت بمفردها. قُضيَ الأمر. هذا الموعد الذي لبثت أسبوعين متوجّسةً منه، هذا الاستحقاق الذي حرمها النوم ليالِيَ بأكملها، انقضى الآن من دون أن تَترك ريحُ المساء أو جلبة الشوارع أثرًا فيه. ومع ذلك، كانت تشعر في قرارة نفسها بأنّ قدرها بات أمام منعطف جديد.

لقد استدان آل سكورتا مبالغ كبيرة من المال لكي يحافظوا على دكّان التبغ. فمنذ خوضهم تلك المغامرة لم يكفّوا عن الاستدانة. وكانت كارميلا هي التي تتولّى الشؤون الماليّة. ومن دون أن تطلع إخوانها، غرِقت في حلقة الديون المفرغة. كان الدائنون في مونتيبوتشيو يزاولون عملهم، آنذاك، على نحوٍ بسيط. يجري الاتفاق على المبلغ وعلى الفائدة وعلى تاريخ محدّد للسداد. وفي تاريخه يجري سداد المال. لا وصل أمانة ولا عقد، ولا حتّى شهود. فالضمان الوحيد هو الوعد والثقّة في حسن نيّة واستقامة من يجري التعامل معه. والويل لمن لا يوفّي ديونه. فحروب العائلات دموية ومتواصلة.

كان دون كارديلا آخر دائني كارميلا. لجأت إليه قبل بضعة أشهر لسداد المال الذي كانت أخذته من مالك مقهى الباحة. دون كارديلا كان ملاذها الأخير. لقد ساعدها على تجاوز محنتها مقابل تعهّدها بسداد المبلغ مضاعفًا، فتلك هي القاعدة ولم تبدِ كارميلاّ أي اعتراض.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رأت خيالَ دائنها الأخير متواريًا عند منعطف الشارع وتبسّمت. تودّ أن تصرخ فرحًا، أن ترقص. للمرّة الأولى يُصبح دكّان التبغ ملكًا لهم بالكامل، وتبدّدت مخاطر الحَجْز. لا سبيل إلى رهنه الآن. ومن الآن فصاعدًا أصبحوا يعملون لمكسبهم الخاص. كلّ لير يجنونه هو لير لآل سكورتا. «لا ديون بعد اليوم». راحت تردّد هذه العبارة حتّى ألمّ بها دوارٌ خفيف، كأنّها تشعر بالحريّة للمرّة الأولى.

فكّرت في أخويها. لقد عملا من دون حساب. دومينيكو وجيوسيبي تكفّلا بأعمال البناء الداخليّ. فبنيا الكونتوار، وأعادا تمهيد الأرضيّة، وطليا الجدران من الداخل بالكلس. وشيئًا فشيئًا، عامًا بعد عام، استردّ المحلّ شكلاً من أشكال الحياة. كأنّ ذاك المكان البارد المكوّن من حجارة قديمة، يتشرّب عرق الرجال لكي يزدهر. كلّما كدّوا في العمل ازداد الدكّان إشراقًا. والرجال يشعرون بذلك. سواء في محال التجارة أو على متن مركب أو وسط حقل، ثمّة صلة غامضة بين الإنسان وأداته، قوامها الاحترام والكراهية. يُعنى بها، وتحاطُ بألفِ عناية، وفي الليل تُكال لها الشتائم. تنهكك. تقصم ظهرك. تسرق آحادَك وحياتك العائليّة، غير أنّك لا تفارقها مهما كلّف الأمر. تلك كانت حال آل سكورتا وصلتهم بدكّان التبغ. يلعنونه ويجلّونه في وقتٍ معًا، كما يُجلّ من يوفّر لك الطعام وكما يُلعَن من يبتليك بالشيخوخة قبل الأوان.

ما كانت لتستطيع أن تظهر غبطتها أمام أخويها لأنّها لو فعلت لتوجّب عليها أن تطلعهما على مسألة الديون التي تراكمت عليها،

والمخاطر التي تحمّلتها، ولا تريد أن تفعل. غير أنّها تحثّ الخطى لكي تعود إلى جوارهما. غدًا، يوم أحد، وستراهم جميعًا. لقد وجّه رفايلي إليهم دعوة غريبة. إذ عرّج عليهم قبل أسبوع، وأخبرهم بأنّه يدعو العشيرة ـ النساء والأولاد، الجميع ـ إلى مكان يُدعى «سناكوري». ولم يأتِ على ذكر المناسبة. غير أنّهم سيلتقون جميعًا هناك، يوم غد الأحد. قطعت عهدًا في سرّها بأنّها سترعى أفراد أسرتها بعنايةٍ لم تبذلها لهم من قبل. ستلتفتُ إلى كلّ واحد منهم، وتحوطهم بعطفها. كلّ الذين استولت على قسطٍ من أوقاتهم. أخواها. زوجتا أخويها. كلّ الذين بذلوا من طاقتهم لكي يحيا دكّان التبغ ويبقى.

عندما بلغت الباحة أمام بيتها، وقبل أن تدفع الباب لتلاقي زوجها وولديها، دخلت إلى الحجرة الضيّقة المعتمة، الملحقة بمنزلهم، والتي كانت تستخدم كزريبة. كان الحمار العجوز هناك، مستأنسًا بأجواء تلك الحجرة المعتمة الدافئة. الحمار الذي أتوا بصحبته من نابولي ولم يرتضوا يومًا الافتراقَ عنه. كانوا يستخدمونه لنقل التبغ من سان جوكوندو إلى مونتيبوتشيو. دابّة لا تتعب. أحسنت التأقلم مع مناخ بوليا ومع حياتها الجديدة. حتّى أن آل سكورتا علّموها التدخين. وكانت البهيمة تعشق ذلك، ما يثير حماسة الأولاد في القرية أو في سان جوكوندو الذين كلّما رأوها واكبوها صائحين: « E arrivato l'asino fumatore! L'asino fumatore!»[1]. كان الحمار يدخّن

(١) «ها قد جاء الحمار المدخّن! الحمار المدخّن!».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فعلاً. ليس سجائر التبغ، فإنّ ذلك ليكون أشبه بإطعام الخنازير المربّى ـ وآل سكورتا يضنّون بكلّ سيجارة من سجائرهم. لا. على الطريق، كانوا ينتزعون أعشابًا طويلة ويجعلون منها لفافة بغلظ الإصبع ويضرمون في طرفها النار. كان الحمار يمجّ أنفاسًا منها أثناء سيره، لا يلوي على شيء، نافثًا الدخان من منخريه. وعندما تقصر اللفافة ويلسعه الجمر، يبصق العقبَ، مكشّرًا عن أسنانه، ما يثير ضحك آل سكورتا ويسرّي عنهم. وهذا ما حدا بهم إلى تسمية حمارهم «موراتي»، حمار مونتيبوتشيو المدخّن.

ربّتت كارميلاّ على جنبي الدابّة هامسةً في أذنها: «شكرًا لك يا موراتي. شكرًا لك يا عزيزي. أنت أيضًا بذلت العرق من أجلنا». واستسلم الحمار بِدِعةٍ لمداعباتها كأنّه يُدرك بأنّ آل سكورتا يحتفلون بحريّتهم وبأنّ أيّام العمل لن تتسم بعد اليوم بِذُلّ الارتهان.

لمّا دخلت كارميلاّ منزلها ووقعت عيناها على زوجها، لاحظت على الفور أنّه، على غير عادته، في حالٍ من الإثارة الشديدة. حسبت للوهلة الأولى أنّه علم باستدانتها المال، خِفيةً، من دون كارديلاّ، غير أنّ هذا لم يكن هو السبب. إذ كانت عيناه مشرقتين ببريق الإثارة التي تعتمل في نفوس الأطفال لا بنظرات الملامة الكابية. حدّقت في وجهه مليًّا فأدركت، حتّى قبل أن ينبس بحرف واحد، أنّ الباعث إلى ما يبديه من حماسة هو، بلا ريب، مشروع جديد.

كان زوجها، ويُدعى أنطونيو مانوزيو، هو ابن دون مانوزيو، المحامي ومستشار المجلس البلدي، أحد أعيان مونتيبوتشيو، واسع الثراء الذي يملك مئات الهكتارات من حقول الزيتون. كان دون مانوزيو أحد الذين عانوا كثيرًا من أعمال السلب المتكرّرة التي ارتكبها روكو سكورتا مسكالزوني، كما قُتل عدد كبير من رجاله في تلك الحقبة. ولمّا بلغه أنّ ابنه يودّ الزواج من ابنة ذاك المجرم، أرغمه على الاختيار بين أسرته وبين تلك «البغيّ». قال بالفم الملآن : **بغيّ**، وهي عبارة مستهجنة عن لسانه، كما هي مستهجنة بقعة مرق الطماطم على قميصٍ أبيض. اختار أنطونيو وتزوّج من كارميلاّ، منقطعًا عن أسرته، متخلّيًا عن حياته الموعودة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كبورجوازي عاطلٍ عن العمل. تزوّج كارميلاّ من دون ثروة. مُفلِسًا. لا يملك سوى اسم عائلته.

«ما الخطب؟» سألت كارميلا لكي يحظى أنطونيو بمتعةِ الإفضاء بما يعتمل في صدره. فأشرق وجه أنطونيو عرفانًا وصاح قائلاً:

«ميوتشيا، لقد راودتني فكرة، قال، وأمضيت نهاري وأنا أقلّبها في رأسي على الأوجه الكافّة. الحقيقة أنّها فكرة تراودني منذ بعض الوقت، غير أنّني اليوم فقط اقتنعت بجدواها واتخذت قراري. كنت أفكّر في الظروف التي يعيشها إخوانك عندما التمعت الفكرة في رأسي...».

تجهّم وجه كارميلا قليلاً. فهي لا تستحسن استرسال أنطونيو في الحديث عن إخوانها. وكانت تفضّل الف مرّة أن تسمعه ذات يوم مسترسلاً في الحديث عن ولديهما، إيليّا ودوناتو، غير أنّه لا يفعل على الإطلاق.

«ما الأمر؟ سألت مجدّدًا وقد شابت صوتها نبرةُ سأم.

ـ المطلوب هو التنويع»، أجاب أنطونيو.

امتنعت كارميلاّ عن الإجابة. كانت تعلم جيّدًا ما الذي سيقوله زوجها. طبعًا ليس بالتفصيل، غير أنّ شيئًا ما ينبئها بأنّ الأمر يتعلّق بواحدة من تلك الأفكار الخاصّة به، والتي لن يسعها الموافقة عليها، وهو الأمر الذي يحزنها ويُكدّرها. لقد تزوّجت من رجلٍ ذي أفكارٍ هوائيّة وعينين لامعتين لكنّه يسعى في دروبِ الحياة سعيَ البهلوان. كان الأمر يحزنها ويعكّر مزاجها. لكنّ

أنطونيو أطلق لنفسِه العنان مسترسلاً في الشرح والتعليل.

«التنويع هو المطلوب، يا ميوتشيا، ردّد أنطونيو قائلاً، ومَثَل إخوانك هو خيرُ عِبرة. هم على حقّ. دومينيكو له حانته. وبيبّي وفايلوك يزاولان الصيد. يجب أن نفكّر في شيء آخر غير تجارة السجائر اللعينة هذه.

ـ تجارة التبغ هي أفضل ما قد يفعله آل سكورتا»، أجابت كارميلاّ بشيء من العياء.

إخوانها الثلاثة تزوّجوا، وبزواجهم اختاروا، هم الثلاثة، أن ينطلقوا في حياة جديدة. دومينيكو تزوّج، ذات يوم مشرق من أيّام حزيران ١٩٣٤، من ماريّا فاراتيلاّ، بنت إحدى العائلات الموسرة التي تعمل في مجال التجارة. كان زواجًا من دون حبّ، لكنّه وفّر لدومينيكو حياة رفاهٍ لم يعرفه من قبل. ولذلك، كانت مشاعره حيال ماريّا مفعمةً بالامتنان الذي يشبه الحبّ. ذلك أنّ حياته مع ماريا جعلته بمنأى عن العوز. لم تكن حياة آل فاراتيلاّ حياةً مترفة، غير أنّهم كانوا يمتلكون ـ بالإضافة إلى عدد لا بأس به من حقول الزيتون ـ حانةً مطلّة على باحة غاريبالدي. هكذا أصبح دومينيكو يوزّع أوقاته بين دكّان التبغ والحانة، عاملاً هنا أو هناك، بحسب الأيّام والحاجة. أمّا رفايلي وجيوسيبي، فقد تزوّجا من ابنتي صيادّين وصارت مهنة البحر تستنفد معظم أوقاتهما وطاقتهما. بلى، كان إخوانها قد انصرفوا، بهذا القدر أو ذاك، عن العمل في دكّان التبغ، لكنّها سنّة الحياة، وما يُزعج كارميلاّ هو إصرار أنطونيو على استخدام عبارة «تنويع» في وصفه تصاريف الأقدار. فمثل هذا الوصف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يبدو في نظرها خاطئًا لا بل لعلّه مُشين.

«التبغ هو درب آلامنا، تابع أنطونيو قائلاً، فيما لزمت كارميلاّ صمتها. أوّ أنّه سيغدو مصدر آلامنا إذا لم نسع إلى التغيير. لقد بذلت كلّ المستطاع وأحسنتِ فيما فعلت، ولكن علينا أن نفكّر الآن بوسائل تطوير هذا العمل. تجارة السجائر توفّر لك ربحًا ماديًّا، غير أنّها أبدًا لن توفّر لك ما هو أساسي: السلطة.

ـ وما اقتراحك؟

ـ سأخوض انتخابات العُمديّة».

لم يسع كارميلاّ إلاّ أن تضحكَ بما يشبه القهقهة.

«ومَن سينتخبك؟ أنت لا تحظى حتى بتأييد عائلتك. ولن يدعمك في مسعاك هذا سوى دومينيكو وبيبّي وفايلوك. لا أكثر. ثلاثة أصوات، لا غير.

ـ أعلم ذلك، قال أنطونيو مُهانًا عاتبًا كطفلٍ ولكنْ مُدركًا صحّة الملاحظة. يجب أن أخوض التجربة لأظهر كفاءتي. لقد فكّرت مليًّا في الأمر. جَهَلةُ مونتيبوتشيو هؤلاء لا يعرفون ما معنى السياسة ويعجزون عن تقدير الرجال حقّ قدرهم. عليّ السعيُ لاكتساب احترامهم. ولذلك ينبغي لي أن أرحل.

ـ إلى أين؟ سألت كارميلاّ وقد فاجأها هذا القدر من التصميم لدى زوجها الحائر بين الرجولة والطفولة.

ـ إلى أسبانيا، أجاب قائلاً. الدوتشي يحتاج إلى إيطاليين صالحين مستعدّين لبذل شبابهم في سبيل سحقِ الشيوعيين.

وسأكون واحدًا من هؤلاء. لدى عودتي محمّلاً بالنياشين، سيدركون أنّني الرجل الذي يريدونه عمدةً، صدقيني».

لبثت كارميلاّ صامتة لهنيهات. لم تسمع من قبل عن تلك الحرب الدائرة في أسبانيا، ولا عن مشاريع الدوتشي بشأن تلك البقعة من العالم. شعورٌ دفين يُنبئها بأنّ تلك البقعة من العالم ليست هي المكان الأمثل الذي قد يقصده رجال العائلة. شعورٌ دفين أشبه بالحدسِ. معركة آل سكورتا تدور هنا. في مونتيبوتشيو. وليس في أسبانيا. ففي هذا اليوم المحدّد من سنة ١٩٣٩، كما في كلّ يوم من أيّام السنة، يحتاجون إلى العائلة مجتمعةً. أمّا الدوتشي وحربه الأسبانيّة فلهما مطلق الحريّة في تجنيد رجال آخرين. تفرّست طويلاً في وجه زوجها وردّدت بصوت خفيضٍ:

«تجارة التبغ هي خير ما يفعله آل سكورتا».

لكن أنطونيو لم يصغ. فقد اتخذ قراره ولمعت عيناه كما تلمع عينا طفلٍ بات يحلم ببلادٍ بعيدة.

كان أنطونيو مانوزيو قد اتخذ قراره، وعقد عزمه على الذهاب إلى أسبانيا، والقتال في صفوف الفاشيين. كان يودّ أن يُغني تجربته السياسيّة وأن يخوض تلك المغامرة الجديدة.

استرسل حتّى ساعة متأخرة من اللّيل في تبرير فكرته وما تنطوي عليه من نباهة وألمعيّة، وكيف أنّه سيحظى، لدى عودته، بهالة الأبطال ومكانتهم. لم تصغِ كارميلاّ إلى تعليلات زوجها الطفل البالغ الذي واصل الحديث عن الأمجاد الفاشية، وغَفَت.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في اليوم التالي، استيقظت مجفلةً. أمورٌ كثيرة ينبغي أن تنجزها. أن تستبدل ملابسها. أن تُلبس الولدين. أن تصفّف شعرها. أن تحرصَ على كون القميص الذي اختاره أنطونيو مكويًّا كما ينبغي. أن تسرّح شعر الولدين وتعطّرهما فيبدوان جميلين كقروشٍ لامعة. ألاّ تنسى مروحتها ـ لأنّ اليوم حارّ ولن يلبث الجوّ أن يغدو خانقًا. كانت تتصرّف بعصبيّة وتوتّر كأنّها تستعدّ لمناولة ولديها الأولى أو ليوم زفافها. أمور كثيرة ينبغي أن تنجزها، وينبغي ألاّ تنسى شيئًا، ألاّ تتأخّر. كانت لا تكفّ الرواح والمجيء في أرجاء البيت مسرعةً، متنقّلةً من مكانٍ إلى آخر، بيدها فرشاة الشعر، ومشبكٌ بين شفتيها، باحثةً عن حذاء، لاعنةً فستانها الذي بدا ضيّقًا أكثر ممّا ينبغي فلا تفلح في زرّه إلاّ بشقّ النفس.

أخيرًا، أصبحت العائلة مستعدّة للذهاب. لم يبق إلاّ أن يغادروا البيت. سأل أنطونيو مجدّدًا عن مكان اللقاء، فردّدت كارميلاّ: «ساناكوري». «ما الحكمةَ من اختياره هذا المكان؟» سأل أنطونيو قلقًا. «لا أدري، أجابت قائلة، إنّها مفاجأة». انطلقوا إذًا، مخلّفين وراءهم مرتفعات مونتيبوتشيو، سالكين

الطريق الساحليّة المؤديّة إلى المكان المنشود. ثمّ سلكوا دربًا وعرًا أفضى بهم إلى سهلةٍ مرتفعة مطلّة على البحر. لبثوا هناك لبعض الوقت، حائرين، لا يدرون أيّ اتجاه يسلكون حتّى انتبهوا إلى لافتة خشبيّة كُتِبَ عليها «**ترابوكو سكورتا**» تشيرُ إلى سُلّم. عقبَ هبوطٍ طويلٍ، على السلّم، بلغوا منصّةً من خشبٍ مشيَّدة فوق جرفٍ ومُشرِفة على مكسر الأمواج. كانت تلك إحدى المنصّات العديدة المقامة على طول الساحل في منطقة بوليا. منصّاتٌ لصيد السمك أشبه بهياكل عظميّة عملاقة من الخشب. عبارة عن أكداسٍ من الألواح المبيضّة بفعل الزمن والمثبّتة فوق صخور الجرف وليس فيها ما يشي بقدرتها على مقاومة العواصف. ومع ذلك، مازالت هناك منذ الأزل، منتصبةً بدعاماتها الباسقة فوق المياه، صامدةً في وجه الرياح والأمواج العاتية. فيما مضى، كانت تُستخدم لصيد الأسماك من دون الخوض في غمار البحر. غير أنّ الناس هجروها وبقيت كأنّها كائنات غريبة ترصد اليمّ وتُسمَعُ لأوصالها طقطقةٌ إذا عصفت بها الرياح. تبدو للناظر مُشيّدةً كيفما اتفق من هنا وهناك. ومع ذلك تبقى أبراجُ الخشب المتهاوية تلك صامدةً برغم كلّ شيء. على المنصّة خليطٌ مبعثر من الحبال ومقابض الرافعات اليدويّة والبكرات. وعندما يبدأ الرجال عادة برفع شباكهم تهتزّ القاعدة وتُسمع طقطقة الألواح كأنّها على وشك التداعي. ترفع المنصّة شباكها برويّة وجلال كما يغطّس رجلٌ طويل القامة كفّيه المضمومتين في الماء ثمّ يرفعهما رويدًا كأنّه ينتشل براحتيه كنوز البحر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت تلك المنصّة ملكًا لعائلة زوجة رفايلي. آل سكورتا يعلمون ذلك. غير أنّها لم تكن، إلى ذاك الحين، سوى بناء خشبيّ مهمل غير صالح للاستخدام. كومة من الألواح والدعامات المنخورة. ارتأى رفايلي، قبل بضعة أشهر، أن يعمل بنفسِه على ترميمها. وبالفعل، واظبَ على ذلك كلّ مساء بعد عودته من البحر، أو أيّام الجوّ العاصف، بعيدًا عن الأنظار. عمل بكدّ ومثابرة لكي يتغلّب على يأسِه حيال صعوبة المهمّة وحجمها، وتخيّل وقع المفاجأة على دومينيكو وجيوسيبي وكارميلاّ عندما يكتشفون هذا المكان، وقد رُمّم بالكامل وجُدِّد فبات صالحًا للاستخدام.

ذهُلَ آل سكورتا لدى معاينتهم المكان. ليس فقط لما توحي به كومة الأخشاب تلك من متانة، بل أيضًا لما غلبَ على ترتيبها من رهافة الذوق والتأنّق. وتعاظم ذهولهم حين تقدّموا قليلاً وفوجئوا أنّ في وسطها، بين الحبال والشباك، وُضِعت طاولة كبيرة كُسيَت بغطاءٍ أبيض مطرّز. ومن إحدى جنبات المنصّة تنبعث روائح السمك والغار المشوي. أطلّ رفايلي برأسه من منصّة ملحقة حيث أقامَ فرنًا على الحطب ولوح شواء، وبادرهم بابتسامة عريضة مرحّبًا وهو يصيح قائلاً: «اجلسوا! أهلاً بكم في الترابوكو! هيا اجلسوا!»، وكان لا يكفّ عن الضحك، بمكرٍ، كلّما سأله أحدهم معانقًا مقبّلاً عمّا صنعت يداه. «ولكن متى جهّزت هذا الفرن؟» «من أين لك هذه الطاولة؟» «كان الأحرى أن نحضر شيئًا معنا...»، وكان رفايلي لا يكفّ عن الابتسام

مردّدًا: «اجلسوا، ولا تفعلوا شيئًا، فقط اجلسوا».

كانت كارميلا وعائلتها أوّل الوافدين، ولكن فور جلوسهم إلى الطاولة، تناهت إلى مسامعهم أصداء هرج وصياح مصدرها السلّم. وصل دومينيكو وزوجته وابنتاه، وتبعهم جيوسيبي وزوجته وطفلهما فيتوريو. حضر الجميع. فتعانقوا وتبادلوا القُبَل. وفيما انصرفت النساء إلى تبادل الثناء على أناقتهنّ وحسن مظهرهنّ، كان الرجال يتبادلون السجائر ويعمد كلّ منهم إلى قذفِ أولاد الأخ أو الأخت في الهواء تحبّبًا، فيما الأولاد يتصايحون مبتهجين لما تولّده فيهم تلك العناقات العملاقة من الحماس والإثارة. كارميلاّ انتحت جانبًا لبعض الوقت، لكي تملأ عينيها بمشهد اللّقاء الذي جمع العائلة. جميع الأحبّة كانوا هناك. مشرقين في صبيحةِ ذاك الأحد حيث أثواب النساء تلامسُ بياض قمصان الرجال. كان البحرُ هادئًا وسعيدًا، فافترّت شفتاها عن ابتسامةٍ نادرة، تلك التي تعبّر عن الثقة في الحياة. وشملَت بنظراتها كلّ فردٍ منهم على حدة. جيوسيبي وزوجته ماتيّا، ابنة الصيّاد التي استبدلت في قاموسِها عبارة «امرأة» بعبارة «بغيّ»؛ حتّى أنّها إذا التقت صديقةً في الشارع حيّتها بصوتٍ جهير قائلةً: «**مرحى أيتها البغيّ!**» ما يضحك المارّة من حولها. ثمّ رمقت الأولاد بنظراتٍ حانية، كلّ فرد منهم: لوكريسيا ونيكوليتا، ابنتا دومينيكو اللتان ارتدتا ردائين أبيضين؛ وفيتوريو، ابن جيوسيبي وماتيّا، الذي كانت أمّه ترضعه من ثديها مرددةً قولها: «هيّا اشرب، أيّها الوغد، اشرب، فهذا لكَ كلّه»؛ وميكيلي، آخر مواليد العائلة الذي لا يكفّ عن الصراخ في قماطه والمتنقّل بين أحضان نساء العائلة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تأمّلتهم جميعًا وقالت في سرّها إنّ بوسع الجميع أن يكونوا سعداء. سعداء لا أكثر.

نبّهها من شرودها صوت رفايلي الذي صاح قائلاً: «هيّا انضمّي إلينا! إلى المائدة!» فنهضت عندئذ ووفّت بما عاهدت نفسها على الوفاء به. أن تُعنى بأفراد عائلتها. أن تشاركهم ضحكهم. أن تحوطهم. أن تكون عونًا لكلّ فرد منهم، دَوريًّا، برهافة وغبطة.

كانوا نحو خمسة عشر نفرًا جالسين إلى المائدة فتبادلوا النظرات لبعض الوقت، مذهولين، إذ أدركوا كم كبرت العائلة. كان رفايلي مشرقًا بالسعادة والنهم. لطالما حلم بتلك اللحظة. جميع الأحبّة كانوا هناك، ضيوفًا، على منصّته. لا يكفّ عن الحركة متنقّلاً بين الفرن والمطبخ، بين الشبّاك والمائدة، بلا كلل، لكي يحظى كلٌّ منهم بما يريد، ولا يعوزه شيء.

بقي ذلك النهار محفورًا في ذاكرة آل سكورتا. لأنّ تلك كانت المرّة الأولى التي يأكلون فيها جميعًا، بالغين وأولادًا، هذا القدر من الطعام. فالعمّ فايلوك أعدّ كميّاتٍ من كلّ صنفٍ. فمن صنفِ المقبّلات وضع رفايلي وجيوسيبينا على المائدة عشرة أطباق منوّعة. منها بلحُ البحر بحجم إبهام اليد المحشوّ بمزيجٍ مكوّن من البيض ولبّ الخبز والجبن، والأنشوفة المملّحة الطازجة التي تذوب ذوبًا في الفم، وحروف أخطبوط، وسَلَطة الطماطم والهندباء، وشرائح الباذنجان الرقيقة المشويّة،

والأنشوفة المقليّة بالزيت. كانت الأيدي تتناقل الأطباق من جانبٍ إلى جانب، والجميع يأكلون بسعادة، وليس عليهم الاختيار بين صنوف الطعام، فكلّها مباحة ووفيرة.

عندما فرغت الأطباق، أحضر رفايلي سلطانيتين كبيرتين ينبعث منهما بخارٌ حارّ. احتوت إحداهما المعجّنات التقليديّة التي اشتهرت بها المنطقة: التروكولي المطبوخة بمرق الحبّار. فيما احتوت الأخرى الريسوتو بثمار البحر. استقبلت السلطانيتان بتهليلٍ جماعيّ أربك الطبّاخة حتّى احمرّت وجنتاها. ففي تلك اللّحظات تبدو شهيّة الطعامَ لا منتهى لها ويحسب المرء أنّه قادرٌ على التهام الأطايب لأيّامٍ وأيّام. كما أحضر رفايلي خمس قوارير من النبيذ البلدي. نبيذ أحمرُ، كثيفُ الطعم، قاني الحمرة كدم المسيح. أمّا الحرّ فعلى أشدّه. وقد ظلّلت الضيوف سقيفة من القشّ، لكنّ الجوّ الخانق في تلك الساعة من شأنه أن يجعل السحالي تتصبّب عرقًا.

كانت الأحاديث تُرتَجَل على إيقاع طقطقة الصحون والأكواب ـ يتخلّلها سؤال يطرحه ولد أو كأس نبيذ تندلق عفوًا. يتحدّثون عن كلّ شيء وعن لا شيء. حكت لهم جيوسيبينا كيف أعدّت المعجّنات والريسوتو. كأنّ الحديث عن الطعام يوفّر متعة مضاعفة أثناء الولائم. دار النقاش، وعلا الضحك. كلّ واحدٍ منهم يُعنى بمجاوره مطمئنًّا على الدوام إلى أنّ طبقه مليء بالطعام.

عندما أفرغت السلطانيتان من محتواهما، كانت التخمة هي القاسم المشترك بين الجميع. البطون امتلأت بما تشتهي،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

والجميع يشعرون بالرضى. ولكن رفايلي لم يُنهِ وليمته بعد. فقد أحضر خمسة أطباق كبيرة صفّت عليها صنوف السمك الطازج من صيد الصباح نفسِه، قاروس ومَرجان. وسلطانيّة من الكَلمار المقلي، والقريدس الكبير الزهريّ المشوي على الحطب. وحتّى بعض اللنغوستين. أقسمت النساء لدى رؤيتهنّ الأطباق، أنّهنّ لن يأكلن، وأنّهنّ أصبنَ بالتخمة، وأنّهنّ سيمتنَ من جرّاء التخمة. ولكن كرمى لرفايلي وجيوسيبينا، وليس لهما فقط، بل كرمى للحياة التي وفّرت لهنّ هذه الوليمة التي لا تُنسى. ففي الجنوب يأكل الناس بسرعةٍ ونهم، ما استطاعوا الأكل. كأنّ الآتي يحمل لهم الأسوأ، كأنّهم يأكلون للمرّة الأخيرة. وينبغي أن يستمرّوا في الأكل مادام الطعام متوافرًا، بما يشبه غريزة الفزع. ولا بأس إذا مرضوا على الأثر، إذ ينبغي للناس أن يأكلوا ببهجةٍ وإفراط.

دارت أطباق السمك عليهم واحدًا واحدًا فتذوّقوها بتلذّذ. إذ لم يعد أكلهم إشباعًا لجوع بل تذوّقًا وتلذّذًا. ولكن برغم ما أبدوه من استحسان ورغبة، لم يتمكّنوا من التهام سلطانيّة الكَلمار المقلي بأكملها. ما أثلج صدر رفايلي. ذلك أنّ الطعام المتبقّي على المائدة يعني أنّ الضيوف شبعوا؛ أمّا إذا التهمَ الطعامُ كلّه ولم يبق منه شيء فهذا يعني أنّ الضيوف لم يشبعوا. في ختام الوليمة استدار رفايلي ملتفتًا إلى أخيه جيوسيبي وسأله وهو يربّت براحته على بطنه: «كرش ملآن؟» فضحك الجميع وراح بعضهم يفكّ الحزامَ ضيقًا فيما يشهر البعض الآخر مروحةً يلوّح بها استجداءً لنسمة. فعلى الرّغم من بعض الطراوة التي خفّفت من حدّة الحرّ بدت الأجساد متصبّبةً عرقًا جرّاء ما تمثّلته

من الأطعمة وما بذلتُه الأفواه مضغًا وامتصاصًا. عندئذ أحضر رفايلي فناجين القهوة للرجال وثلاث زجاجات من الشراب المساعد على الهضم: قنينة من شراب العنب، وأخرى من شراب الليمونتشيلّو، وثالثة من شراب الغار المُسكِر. وعندما شرب الجميع قهوةً أو شرابًا، خاطبهم قائلاً:

«كما تعلمون جميعًا، إنّ أهل القرية يلقّبوننا بالصموتين. ويُقال إنّنا أبناء الخرساء وأنّنا لا نستخدم أفواهنا إلاّ لالتهام الطعام، لا للكلام. حسنًا إذًا. فليكن هذا من دواعي افتخارنا. فإذا كان اللّقب يبعد عنّا الفضوليين ويثير حنقَ القرويين التعساء، فليكُن. على أن يكون هذا الصمتُ موجّهًا ضدّهم، وليس ضدّ أحد منّا. لم أختبر في عيشي كلّ ما اختبرتموه في عيشكم. والأرجح أنّني سأموت في مونتيبوتشيو ولم تشهد عيناي من العالم شيئًا إلاّ هضاب هذه البلاد الجرداء. لكنّكم هنا، وأنتم أدرى بالأمور منّي. فاقطعوا لي عهدًا الآن بأنّكم ستتكلّمون مع أولادي، وأنكم ستحكون لهم ما شاهدتم. فلا يموت معكم ما اجتمع لديكم من مشاهدات وخبرة خلال رحلتكم إلى نيويورك وفي طريق عودتكم. فلتقطعوا لي عهدًا الآن بأنّ كلّ واحد منكم سيحكي لأولادي شيئًا ممّا شهده، شيئًا ممّا تعلّمه، ذكرى، معرفة ما. ولنفعل فيما بيننا. من الأعمام إلى أبناء الأخ أو الأخت، من العمّات إلى بنات الأخت أو الأخ. سرّ ما احتفظتم به لأنفسكم ولن تطلعوا عليه أحدًا آخر. غير ذلك سيبقى أولادنا أولاد مونتيبوتشيو شأنهم شأن الآخرين، جاهلين أمور العالم، لا يعرفون إلاّ الصمتَ وقيظ الشمس».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وافقه آل سكورتا جميعًا. بلى. فليفعلوا ما أشار به. فليتحدّث كلّ منهم، ولو مرّة واحدة في حياته على الأقل، إلى ابن أخ أو بنت أخ. ليسرّ بما خَبِرَهُ قبل أن يموت، ليتكلّم مرّة واحدة، لإسداء النصح، لنقل معرفة أو خبرة. أن يتكلّم، لكي لا يكون مجرّد بهيمة تعيش وتهلك تحت هذه الشمس الصامتة.

كان ذلك ختامَ الوليمة. بمضيّ أربع ساعات على جلوسهم إلى المائدة، كان الرجال قد أسندوا ظهورهم إلى الخلفِ، وراح الأولاد يلهون بالحبال فيما انهمكت النساء في رفع الأطباق.

كانوا منهوكين، مُستنفدين، كالناجين من معركة. مستنفدين وسعداء، لأنّ المعركة التي خاضوها في ذلك اليوم، بدت مظفّرة. استمتعوا معًا بقليل من الحياة. ولبثوا، سحابةَ نهار، بمنأى عن قسوة الأيّام. ورسخَ هذا الغداء في ذاكرتهم جميعًا بوصفه وليمة آل سكورتا الكبرى. فقد كانت تلك هي المرّة الوحيدة التي اجتمعت فيها العائلة بأكملها. ولو ملكوا آنذاك آلة تصوير لخلّدوا المناسبة، بعد ظهر ذلك اليوم، بصورة تذكاريّة. كانوا جميعًا هناك، كبارًا وصغارًا، أباءً وأبناء. كانت لحظة الذروة التي بلغتها العائلة. وكان ينبغي أن تبقى الأمور على حالها.

ومع ذلك لن يطول الزمنُ قبل أن تتردَّى الأمور، وتتصدّع الأرض تحت أقدامهم، قبل ان تتشح أثواب النساء الزاهية بلون السواد. سيرحل أنطونيو مانوزيو إلى أسبانيا وسيموت هناك متأثّرًا بجرحٍ بليغ ـ من دون مجد أو حظوة ـ، مخلّفًا وراءه

أرملةً، هي كارميلا، وولدين. فيكون مقتله بمثابة الغشاوة الأولى التي ستحجب سعادة العائلة. وسيقرّر دومينيكو وجيوسيبي ورفايلي التخلّي عن حصصهم في دكّان التبغ ليصبح ملكًا لأختهم التي لم يبق لها سندٌ سواه كما بقيت لها إعالة ولدين. بذلك لن يكون على إيليّا ودوناتو الانطلاق مجدّدًا من لا شيء، فلا يكابدان البؤس الذي كابده أعمامهما.

سوف تصدّع المأساةُ الحياة الممتلئة لأولئك الرجال والنساء، لكنّ أحدًا منهم، ما كان، في تلك اللحظة، ليعلم ذلك. سكب أنطونيو مانوزيو قدحًا آخر من شراب العنب المُسكِر. كانوا في أوج سعادتهم وقد شملهم نبلُ النظرات في عيني رفايلي، الذي راح يبكي فرحًا وهو يراقب إخوانه منكبّين على تذوّق السمك الذي شواه بيديه.

في ختام الوليمة كانت بطونهم متخمة، وأصابعهم متسخة، وقمصانهم مبقّعة بالمرق، وجباههم تقطر عرقًا، غير أنّهم كانوا سعداء مغتبطين.. وغادروا المنصّة على مضض لاستئناف حياتهم.

لمدّةٍ طويلة، بقيت رائحة الغار المشوي الدافئة الحرّيفة، راسخةً في حواسّهم كأنّها رائحة السعادة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنتَ تفهم الآن لمَ سرت رعدةٌ في كياني عندما أيقنتُ، أمسِ، أنّني نسيت اسم كورني. فأن أنسى هذا الرجل، هنيهةً، يعني أنّ عالمي كلّه يتداعى. لم أحكِ كلّ شيء بعدُ يا دون سالفاتوري. ولكن أمهلني بعض الوقت. دخّن. دخّن براحة بال.

لدى عودتنا إلى مونتيبوتشيو، جعلتُ أخويّ يحلفان بأنّهما لن يأتيا أبدًا على ذكر فشلنا النيويوركي. كنّا قد بحنا بسرّنا أمام رفايلي في ذلك المساء الذي عملنا فيه على دفن الخرساء مجدّدًا، لأنّه طلب منّا أن نحكي له تفاصيل رحلتنا، ولم يرد أحد منّا أن يكذب عليه. كان واحدًا منّا، وأقسم مع الآخرين. وقد التزموا جميعًا بما أقسموا عليه. أردتُ أن يبقى الأمر طيّ الكتمان فلا يعلم به أحد. أهل مونتيبوتشيو جميعًا يعلمون أنّنا ذهبنا إلى نيويورك وأقمنا هناك بضعة أشهر، ما أتاح لنا أن نجمع بعض المال. وكنّا نجيب كلّ من يسأل عن سبب عودتنا المبكرة، بالقول إنّه كان من غير اللائق أن ندع أمّنا وحيدةً في القرية، وأنّه كان المستحيل أن يبلغنا نبأ موتها. كانت إجابة شافية، فيكفّ الناس عن السؤال. وحتمًا ما كنتُ أريد أن يعلم الناس بأنّ آل سكورتا قد رُفِضوا هناك. فما يقال عنك، والقصّة

التي تُروى عنك، هي التي تبقى في النهاية. أردتُ أن يُنسَب آل سكورتا إلى إقامتهم في نيويورك، أن نكفّ عن كوننا عائلة من المعتوهين أو البؤساء. فأنا أعرف ناسَ هذه الناحية جيّدًا. لَمَا كفّوا عن ذكر سوء الطالع الذي حلّ بنا، ولاستذكروا في أقاويلهم لعنة روكو، وهذه وصمة لا فكاك منها. لقد عدنا أوسع ثراءً ممّا كنّا عليه. وهذا هو المهمّ. لم أقل يومًا لأبنائي ما أسرّ به الآن، ولا يعلم به أيّ من أبنائنا. لقد جعلت إخواني يحلفون فراعوا الكتمان والقسَم. كان ينبغي للجميع أن يصدّقوا حكاية نيويورك، لا بل تمادينا في سعينا. لقد وصفنا لهم المدينة وحياتنا فيها، بالتفصيل. وإنّما استطعنا أن نفعل لأنّ العجوز كورني حكى لنا كلّ ذلك. خلال رحلة العودة اهتدى إلى رجل يتكلّم الإيطاليّة فطلب منه أن يترجم لنا الرسائل التي كان تلقّاها من شقيقه. أصغينا، لياليَ بأكملها، إلى ما ورد فيها. ومازلت أذكر بعضًا منها. كان شقيق كورني يصف حياته وأحوال الحيّ الذي يقيم فيه، يصف الشوارع والناس والعمارة التي يسكنها. وكان كورني يرغمنا على سماع كلّ ما جاء في تلك الرسائل ليس من قبيل التعذيب الإضافي، بل كان يفتح أمامنا أبواب المدينة التي رفضتنا، فنجول في أنحائها ونقطنها بالفكر. لقد حكيت نيويورك لأولادي بفضل رسائل كورني. ومثلي فعل جيوسيبي ودومينيكو. لهذا الغرض أحضرت لك تذكرة «نابولي ـ نيويورك»، وأطلب منك أن تعلّقها على جدار الأيقونات، تذكرة ذهاب إلى نيويورك. أريد أن تبقى في كنيسة مونتيبوتشيو، وأن توقد الشموع من أجل كورني العجوز. إنّها كذبة. غير أنّك تعلم جيّدًا أنّها ليست مجرّد كذبة، أليس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كذلك؟ ينبغي لك أن تفعل. أودّ أن تقيم مونتيبوتشيو على اعتقادها الراسخ بأنّنا ذهبنا إلى هناك. وعندما تبلغ آنّا سنّ الرشد، ستنزع التذكرة عن الجدار وتعطيها إيّاها. سوف تطرح عليك أسئلة كثيرة، وسوف تجيب. ولكن في الأثناء أودّ أن تبقى عيون آل سكورتا مجلوّةً ببريق مدينة الزجاج العظيمة.

VI

أَكَلَةُ شمس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دخلَ رجلٌ مونتيبوتشيو، على ظهرِ حمار، ذات صباحٍ من شهر آب ١٩٤٦. كان ذا أنفٍ طويلٍ بارز وعينين ضيّقتين سوداوين. سحنة لا تخلو من وقار. كان فتيًّا، لعلّه في الخامسة والعشرين، غير أنّ وجهه الطويل الضامر يُضفي على مظهره قسوةً ما تزيدُ في سِنِّه. عجائز القرية عاودتهم ذكرى لوتشيانو مسكالزوني. كان الغريبُ يسيرُ قُدُمًا بخطى القدرِ البطيئة. لعلّه أحد أحفاده. سوى أنّه توجّه مباشرةً نحو الكنيسة حتّى قبل أن يُطعمَ ركوبته أو يغتسل، حتّى قبل أن يشربَ جرعةَ ماء أو يروضَ ساقيه من خدرِ الركوب، راحَ، في غمرة الذهولِ الذي ساد الجميع، يقرع الأجراس بعنف. هكذا حظيت مونتيبوتشيو بكاهنها الجديد: دون سالفاتوري، الذي سيُلقّب، بعد حين، بـ «الكالابري».

يوم وصوله إلى القرية بالذات أقام قدّاسًا بحضور ثلاث عجائز دفعهنّ فضولهنّ إلى دخول الكنيسة. كان الغرض من قدومهنّ هو التعرّف إلى الكاهن الجديد، وطباعه، وطينة البشر التي جُبلَ منها. لبثنَ طيلة القدّاس مشدوهاتٍ وأشَعْنَ، فيما بعد، أنّ موعظة الكاهن الشاب كانت عنيفةً متشدّدة. الأمر الذي أثار القلق والفضول لدى أهل مونتيبوتشيو. في اليوم التالي، زاد عدد المشاركين في القدّاس خمسة أنفار، وازداد الإقبال على ذلك المنوال، حتّى الأحد الأوّل. ففي ذلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اليوم، غصّت الكنيسة بالحضور. جاءت العائلاتُ بأكملها. ذلك أنّ الجميع يريدون التثبّت ممّا إذا كان الكاهن الجديد أهلاً لمهمّته أم أنّه سيلقى المصير الذي لقيه سلَفُه. غير أنّ امتحانهم لم يُرهِب دون سالفاتوري على الإطلاق. ولمّا حان وقت الموعظة، خاطبهم بحزمٍ قائلاً:

«أنتم تزعمون بأنّكم مسيحيّون، وتأتون إلى بيت الربّ سعيًا وراء العزاء لأنّكم تعلمون أنّ الربّ محبّ ومنصفٌ في كلّ شيء، لكنّكم تدخلون بيتَه بأرجُلٍ وسخةٍ وأنفاس فاسدة. هذا فضلاً عن نفوسكم الكالحة كحبرِ سمكِ الحبّار. خَطَأة. لقد ولدتم خَطَأة، شأننا جميعًا، لكنّكم تآلفتم وحال الخطيئة كما يألف الخنزيرُ الطين. عندما دخلت هذه الكنيسة قبل بضعة أيّام، كانت مقاعدها مكسوّة بطبقةٍ سميكة من الغبار. فما دينُ هذه القرية التي تجعل الغبار كسوةً لبيت الله؟ مَن تحسبون أنفسكم لكي تديروا ظهوركم للربّ كما فعلتم؟ ولا يذْكُرَنّ أحدٌ منكم الفقرَ. أو اضطراركم إلى العملِ ليلَ نهار، وضيق الوقت المتبقّي بعد كدّ الحقول. لقد جئتكم من بقاعٍ لو قارنتها بحقولكم لبدت حقولُكم أشبه بجنّاتِ عَدَن. جئتكم من أرضٍ قد يُعامَلُ فيها أفقركم كما يُعامَل الأمير. لا. عليكم الإقرار بأنّكم ضللتم. أعلم كلّ شيء عن طقوس القرويين التي تزاولونها. سُحنكم تنبئني بذلك. شعائر التعزيم وطرد الأرواح. وأوثانكم الخشب. أعلم كلّ شيء عن أعمالكم الشائنة التي لا تُرضي الله، وعن شعائركم الوثنيّة. اعترفوا بذنوبكم وتوبوا إلى الله، يا حفنةً من أهل الخِسّة. بوسع الكنيسة أن تمنحكم المغفرة وأن تجعل منكم ما لم تكونوه قط، أي

مسيحيين صادقين ومستقيمين. بوسع الكنيسة أن تفعل ذلك لأنّها محبّة لرعاياها، لكن ينبغي لفعلها هذا أن يتمّ بشفاعتي أنا. أمّا أنا فقد جئتكم لكي أجعل حياتكم مشقّات، إذا أقمتم على بهتانكم، وعلى هجران الكنيسة وازدراء راعيها، وإذا تماديتم في غيّكم وواصلتم شعائر المتوحّشين التي تقيمونها. فاسمعوا جيّدًا ما سيحلّ بكم، واعلموا علمَ اليقين: أنّ السماء سوف تتلبّد بالغيوم وتمطر في فصل الصيف ثلاثين نهارًا وثلاثين ليلة، وسوف تهجر الأسماك شباككم، وسوف تنمو أشجار الزيتون من الجذور، وسوف تلد الحميرُ قططًا عمياء.. وعمّا قريب لن يبقَى شيء من مونتيبوتشيو، لأنّ تلك هي مشيئة الربّ. صلّوا لكي يشملكم برحمته. آمين».

خيّم الذهول على الحضور جميعًا. في البداية كانت تُسمَعُ في الأرجاء تمتماتٌ وهمسات. كان الحاضرون يحتجّونَ بأصواتٍ خفيضة. ولكن، شيئًا فشيئًا، ران الصمت مجدّدًا، صمتُ ذهولٍ وإعجاب. ولدى مغادرتهم الكنيسة جاء حكمهم بالإجماع: «هذا الكاهن جريء، ولا وجه للمقارنة بينه وبين ذلك الميلاني الجاهل».

حظيَ دون سالفاتوري بقبولِ أهل القرية. لقد أحبّوا طباعه الرصينة وفصاحته. فقد كان يجمع بين وعورة أرض الجنوب وبين النظرة الكابية للرجال الذين لا تُقعِدهم خشية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم تنقض شهورٌ على استقراره في القرية، حتّى واجه دون سالفاتوري أوّل امتحاناته الفعليّة: الإعداد لاحتفالات يوم شفيع القرية، القدّيس إيليّا. لم ينم طوال أسبوع. وكان عشيّة الاحتفالات، يهرع من مكانٍ إلى آخر، عاقدَ الجبين عابسًا. كانت الشوارع قد كسيت بزينة العيد، فعلّقت المصابيح وأشرطة الزخارف. ومع صياح الديك، عند الفجر، هزّ دوي طلقات المدفع جدران المنازل. كانت الترتيبات كلّها قد أنجزت في أجواء من الإثارة المتعاظمة في النفوس، فيما الأولاد يدارون لهفتهم مترقّبين، والنساء منهمكات في إعداد مأكولات العيد، إذ ينصرفنَ، متصبّباتٍ عرقًا في مطابخهنّ الضيّقة، إلى قلي شرائح الباذنجان، واحدة تلو الأخرى، من أجل طبق «البارميجانا». جدران الكنيسة زيّنت هي أيضًا، وأخرجَت التماثيل الخشبيّة لتعرض، في الهواء الطلق، أمام أبناء الرعيّة: القدّيس إيليّا، والقدّيس روكو والقدّيس ميكيلي. كانت مزدانةً بالحليّ كما تقضي الأعراف: سلاسل وأيقونات مذهّبة، هباتٌ تبرق لامعةً إذا انعكست عليها أضواء الشموع المُوقدة.

عند الساعة الحادية عشرة، وفيما احتشد أهل مونتيبوتشيو جميعًا عند الباحة يحتسون الشراب البارد أو يتناولون المثلّجات بِدِعة، سُمعت صرخة مدويّة، على نحوٍ مباغت، ثمّ ظهر دون

سالفاتوري، شاحبًا، جاحظ العينين كأنّه رأى شيطانًا، ممتقع الشفتين، على شفا الإغماء. صاح صيحة حيوان جريح قائلاً: «لقد سرقت مداليات القدّيس ميكيلي!» فجأة سكت الجميع. خيّم صمتٌ مطبق لبعض الوقت لكي يتسنّى لكلّ فردٍ منهم أن يفهم جيّدًا ما قاله الكاهن للتوّ. مداليّات القدّيس ميكيلي. سرقت. هنا. في مونتيبوتشيو. أمر لا يُصدّق.

إذ ذاكَ فقط استحال الصمتُ غمغمةً ساريةً بغضبٍ مكتوم ونهض الرجال جميعًا. مَن؟ مَن تجرّأ على ارتكاب جريمة مماثلة؟ مَن؟ إنّها إهانة موجّهة لأهل القرية جميعًا؟ لم تشهد القرية فعلةً مماثلة من قبل؟ سرقة القدّيس ميكيلي! عشيّة العيد! مثل هذه الفعلة من شأنها أن تجلب العار لأهل مونتيبوتشيو. هُرِعَت مجموعة من الرجال إلى الكنيسة. استجوِبَ كلّ مَن جاء للصلاة. هل رأى شخصًا غريبًا يتسكّع في الأنحاء؟ هل لاحظَ أمرًا غير معتاد؟ جرى البحث في كلّ مكان. تثبّتوا من أنّ الحليّ لم تسقط، عفوًا، عند قدمي التمثال. لم يجدوا شيئًا، ولم يرَ أحدٌ شيئًا. كان دون سالفاتوري يردّد باستمرار قائلاً: «لعنة! لعنة! هذه القرية هي لُمّةُ مجرمين!» وراح يهدّد بإلغاء كلّ شيء. المسيرة. القدّاس. كلّ شيء.

كان الوجومُ مخيّمًا على أجواء منزل كارميلاّ شأن منازل القرية بأسرها. جاء جيوسيبّي لتناول الطعام معهم، ولم يكفّ إيليّا، أثناء جلوسهم إلى المائدة، عن الحركة والترجّح متمايلاً فوق كرسيه. وعندما رفعت أمّه الطبقَ من أمامه، أخيرًا، صاح قائلاً:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«مع ذلك لم يخلُ الأمر من براعة! هل رأيتم كيف بدت سحنة دون سالفاتوري!»

وأطلقَ ضحكات امتقع لها وجهُ أمّه، وأيقنت حقيقة الأمر على الفور.

«أهو أنتَ يا إيليّا؟ أنت؟»، سألته وقد تهدّج صوتها.

أغربَ الصبيّ في الضحكِ، ذلك الضحك المجنون الذي اشتُهِرَ به آل سكورتا. أجل. كان هو. ينبغي الإقرار بأنّها فعلة موجعة. سحنة دون سالفاتوري. والذعر الذي استبدّ بأهل القرية!

بدت كارميلاّ ممتقعة الوجه. التفتت إلى أخيها وخاطبته بصوتٍ واهنٍ كأنّها على فراش الموت، قائلةً:

«سأغادر الآن. اقتله أنت».

نهضت وصفقت الباب وراءها. ذهبت مباشرةً إلى منزل دومينيكو وحكت له ما جرى. أمّا جيوسيبي، فأطلق العنان لسورة غضبه. فكّر في ما سيقوله عنهم أهل القرية، وفكّر في العار الذي سيلحق بهم مجدّدًا. وعندما شعر بأنّ الدماء تغلي، حقًّا، في عروقه، نهض وراح يؤدّب ابن اخته كما لم يفعل عمٌّ من قبل. تسبّب له بشقّ عند قوس الحاجب وآخر في شفته. ثمّ جلس بجواره. كانت سورة غضبه قد هدأت لكنّه لم يشفِ غليله. أسى هائلٌ يعتصرُ قلبه. لقد انهال عليه ضَربًا، ولكنّ المحصّلة، في آخر الأمر، هي نفسها؛ مشكلة من دون حلّ. وعندها التفتَ متأمّلاً وجه ابن أخته المتورّم، وقال له:

«ما حلّ بكَ للتوّ هو عاقبة غضبِ أحد أعمامك، وسأدعك

الآن لغضبِ القرية».

كان يهمّ بالمغادرة تاركًا الصبيّ لمصيره، عندما تذكّر أمرًا ما.

«أين وضعتَ المداليّات؟ سأله.

ـ تحت وسادتي»، أجاب إيليّا بين غَصَّتَيْن.

ذهب جيوسيبّي إلى غرفة الصبّي ودسّ يده تحت الوسادة حتّى التقط الجرابَ الذي خبّأ فيه السارق كنزَه، وهرع إلى الكنيسة، كسيرَ النفس، مُطرِقًا، كابيَ العينين. «فليُحتفل بعيد القدّيس إيليّا على الأقلّ، كان يردّد في سرّه. سيّان أن يذبحونا لأنّنا أنجبنا ذريّة من الزنادقة، شريطة أن يقام الاحتفال».

لم يكتم جيوسيبّي من الحقيقة شيئًا. أيقظ دون سالفاتوري، وقبل أن يصحو هذا الأخير من رواسب النوم وهول المفاجئة، أعطاه المداليات قائلاً:

«لقد جئتك بمداليات القدّيس يا دون سالفاتوري. ولن أخفي عليك هويّة الجاني، فالله يعلم. إنّه ابن أختي، إيليّا. إن كُتِبَ له البقاء بعدَ ما ناله من التأديب على يدي، فليس له سوى رحمة الربّ ملاذًا قبل أن ينقضّ عليه أهل مونتيبوتشيو. إنّي لا أسألك شيئًا، لا شفاعةً، ولا رأفة. إنّما جئتُ لأردّ لك المداليات، لكي يقام العيد غدًا، على جري عادتنا يوم ٢٠ تمّوز من كلّ عام، في مونتيبوتشيو، منذ أن كان العالم عالمًا».

ومن دون أن ينتظر ردّ الكاهن الذي لبث مذهولاً حائرًا بين مشاعر الفرح والارتياح والغضب، استدار على عقبيه وقفلَ عائدًا إلى منزله.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان جيوسيبّي محقًّا في افتراضه بأنّ حياة ابن أخته معرّضة للخطر، إذ لم يدرِ أحدٌ كيف سرت، في الليلة نفسها، شائعةٌ تقول إنّ إيليّا مانوزيو هو السارق الكافر. وتشكّلت مجموعات من الرجال الذين أقسموا على الاقتصاص من الكافر المدنِّس، وراحوا يبحثون عنه.

كان أوّل ما فعله دومينيكو لدى استقباله أخته باكيةً، هو أنّه ذهب لإحضارِ مسدّسه. كان عازمًا على استخدامه إذا اعترض أحدٌ طريقه، ثمّ ذهب مباشرةً إلى بيت كارميلاّ حيث وجد ابن أخته شبه فاقدٍ وعيه، فأنهضه، ولم يتريّث حتّى دقيقة واحدة لمسحِ الدماء عن وجهه، ووضعه على ظهر بغلٍ واصطحبه إلى كوخٍ من الحجر وسط حقول الزيتون. هناك رمى به فوق كومة من القشّ، وسقاه جرعة ماء. ثمّ أقفلَ عليه الباب ريثما ينجلي الليل.

في اليوم التالي جرت احتفالات عيد القدّيس إيليّا كالمعتاد. ولم يبقَ أثرٌ من حوادث اللّيل على الوجوه. وكالعادة، شارك دومينيكو في احتفالات العيد. حمل تمثال القدّيس ميكيلي خلال المسيرة وأسمعَ مَنْ ألحّ عليه بالسؤال بأنّ ابن أخته المنحطّ ولدٌ عاقّ، وأنّه لولا حرصه على حقنِ دمِ العائلة، لقتله بيديه العاريتين. ولم يحسب أحدٌ منهم للحظَة واحدة بأنّه الوحيد الذي يعرف أين مخبأ إيليّا.

في اليوم الذي تلا العيد، استأنفت مجموعاتٌ من الرجال بحثها عن الجاني. فبعد إقامة القدّاس والمسيرة، وإنقاذ الموقف في مظاهره الجوهريّة، لم يبق إلاّ الاقتصاص من

السارق، وعلى نحوٍ مشهود، لكي يكون مثلاً وعبرة. استمرّت عمليّات المطاردة عشرة أيّام، وشملت أنحاء القرية كلّها. في الأثناء دأب دومينيكو على الخروج من بيته، في ساعة متأخّرة من الليل، لتزويده بالمؤن في مخبئه. كان يمتنع عن التحدّث إليه، أو إذا فعل فلُمامًا وبعبارات مقتضبة. يزوّده بالماء والطعام ويعود أدراجه، حريصًا، كلّ مرّة، على إقفال الباب عليه. بمضيّ عشرة أيّام، توقّفت أعمال المطاردة والبحث، واستعادت القرية هدوءها. ومع ذلك لم يكن واردًا أن يعود إلى مونتيبوتشيو. فرتّب له دومينيكو مكانًا لإقامته لدى صديقٍ قديم في سان جوكوندو. وهو أبٌ لأربعة أولاد وعاملٌ كادحٌ في الحقول. جرى الاتفاق بينهما على أن يمكث إيليّا في ضيافته لسنةٍ كاملة، ولا يعود إلى مونتيبوتشيو إلاّ بعد انقضائها، وفقط بعد انقضائها.

عندما حُمّل الحمار ببعض المتاع، التفت إيليّا مخاطبًا خاله قائلاً له: «شكرًا يا خالي»، بعينين مفعمتين بالندم. أوّل الأمر امتنع الخال عن الإجابة. كانت الشمسُ تُشرِقُ على التلال فتداعبُ قممها بضياءٍ زهريّ باهت. وعندئذ التفتَ إلى ابن أخته ونطق بتلك الكلمات التي ستبقى راسخة في ذاكرة إيليّا. في غمرةِ الضياء الواهن لنهار وليدٍ، أسرّ إليه بما كان هو، دومينيكو، يحسب أنّه حكمته الشخصيّة:

«أنتَ لا شيء يا إيليّا، وأنا لا شيء. المهمّ هو العائلة. من دون العائلة تموت ويستمرّ العالم في دورانه غير آبهٍ لموتك.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نولد، نموت، وبين الولادة والموت، ليس ما يُعوّل عليه، إلاّ أمر واحد. أنت وأنا، بمفردنا، لسنا بشيء. ولكن آل سكورتا، آل سكورتا، هم كلّ شيء. من أجلهم مَدَدتُ لك يدَ العون، لا لشيء آخر. من الآن فصاعدًا أصبحتَ مُلزمًا بسداد دَيْن. دَين تدين به لمن يحملون اسمك نفسه. وذات يوم، بعد عشرين عامًا ربّما، سيحين وقت السداد، عبر مدّك يد العون لأحد أفراد أسرتنا. لهذا السبب أنقذتك، يا إيليّا. لأنّنا سنحتاج إليك حين تغدو شخصًا أفضل ـ كما نحتاج إلى كلّ واحد من أبنائنا. لا تنسَ. أنتَ لا شيء. اسم آل سكورتا يبقى من خلالك. لا أكثر ولا أقل. هيّا انطلق الآن. عسى أن يغفر الله ذَنبَك، وأمُّك والقريةُ أيضًا».

غرق دوناتيو، عقِبَ رحيل أخيه، في حالٍ من الكآبة والتوحّد. بات يمتنع عن الكلام، واللّعب. يقف ساعاتٍ طويلة وسط الباحة، لا يحرّك ساكنًا، وعندما تسأله كارميلاّ عمّا يفعل هناك، يجيبها باستمرار: «أنتظر إيليّا».

تلك الوحدة المفاجئة التي فُرِضَت على أشكال لهوِه كطفلٍ أدّت إلى انهيار عالمه. فحين لا يكون إيليّا موجودًا، يغدو العالم بشعًا ومضجرًا.

ذات صباح، جالسًا أمام طاس الحليب من دون أن يمسّه، نظر إلى أمّه بعينين محملقتين رصينتين وسألها:

«يا أمّي؟

ـ أجل، أجابت.

ـ إذا سرقتُ مداليات القدّيس ميكيلي، فهل يسعني أن ألحق بإيليّا؟»

سؤاله أفزع كارميلاّ، فلبثت مشدوهة، ثم هرعت إلى بيت جيوسيبي لتخبره بما جرى.

«يا بيبّي، أردفت قائلة، يجب أن تُعنى بأمرِ دوناتو وإلاّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ارتكب جريمة. وإذا لم يفعل فإنّ العزلة ستودي بحياته. فهو لا يشتهي طعامًا ولا يتحدّث إلاّ عن أخيه. أبقِه بصحبتك لبعض الوقت وحاول أن تسرّي عنه. فلا يجوز لولدٍ في مثل سنّه أن يستسلم لليأس. لقد تجرّع هذا الصبيّ حزنَ العالم كلّه».

لبّى جيوسيبّي طلبها على الفور، فاصطحبَ ابن أخته، مساءَ اليوم نفسه، إلى الميناء واصطحبه بزورقه. وعندما سأل دوناتو عن وجهتهما، أجابه بيبّي بأنّ الوقتَ قد حان لكي يختبر دوناتو بعض الأمور ويفهمها.

كان آل سكورتا يعملون في التهريب. ولطالما عملوا في هذا المجال. شرعوا في ذلك إبّان الحرب، خلال الفترة التي شكّلت فيها سياسة الحصص التموينيّة عائقًا حاسمًا في وجه أعمال التجارة. وارتأت كارميلاّ أنّ القرار الذي يسمح بعدد محدود من علب السجائر لكلّ مواطن ليس أكثر من بِدعة، فسعت بدايةً للتعامل مع الجنود الإنكليز الذين كانوا يقايضون علب السجائر باللّحم المقدّد. إذ يكفي العثور على جنود من غير المدخنّين. ثمّ أنيطت بجيوسيبّي مهمّة التهريب عبر الحدود الألبانيّة. كانت الزوارق ترسو ليلاً على الشواطئ محمّلة بالسجائر المسروقة من مستودعات الدولة أو مخازن محال أخرى لبيع التبغ في المنطقة، وكانت أسعار التبغ المهرّب أقلّ من الأسعار المتداولة، وتتيح هامشًا معقولاً من الربح الذي لا يخضع للرسوم الجمركيّة.

كان جيوسيبّي عازمًا على اصطحاب دوناتو في أولى تجاربِ

هذا الأخير كمهرّب. انطلقا على وقع المجذافين البطيء باتجاه جُون زايانا. وهناك كان مركبٌ بمحرّك راسيًا في انتظارهما. بادر جيوسيبّي إلى إلقاء التحيّة على رجلٍ يتكلّم الإيطاليّة بصعوبة، وانصرفا إلى تحميل زورقهما بعشرة صناديق من السجائر. ثمّ، تحت جُنح الليل الذي اكتنفَ المياه، أبحرا عائدَيْن إلى مونتيبوتشيو. لَبِثا طوال رحلة العودة صامِتَين.

لدى وصولهما إلى الميناء، طرأ أمرٌ لم يكن في الحسبان، إذ رفض دوناتو الصغير أن ينزل. لَبِثَ جالسًا عندَ مؤخّر الزورق، معاندًا، شابكًا ساعديه فوق صدره.

«ما الخطب يا دوناتو؟» سأله خاله مُشاكسًا.

حدّق الفتى به طويلاً، ثمّ سأله بنبرةٍ هادئة:

«قل يا خالي، هل تقومُ غالبًا بمثل هذا الأمر؟

ـ أجل، أجاب جيوسيبّي.

ـ دائمًا في الليل؟

ـ أجل، دائمًا في الليل، أجاب الخال.

ـ وبهذه الطريقة تجني المال؟ سأل الولد.

ـ أجل».

سكت الولد لبعض الوقت، ثمّ قال بنبرةٍ حاسمة:

«أنا أيضًا أريد القيام بما تقوم به».

تلك الرحلة الليليّة أدخلت السعادة إلى قلبه. هدير الأمواج، العتمة، الصمت، كانت توحي بغموضٍ ما،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بقدسيّة ما، هزّا كيانه. رحلاتٌ فوق الماء. دائمًا تحت جنح الظلام. العمل في الخفاء كمهنة. بدا الأمر ساحرًا في عينيه، مفعمًا بالحريّة وبالجرأة.

في طريق عودتهما، توقّف جيوسيبّي الذي لفته شغف ابن أخته بما رآه، وأمسكَه من كتفيه قائلاً له:

«ينبغي لنا أن نحسن تدبير أمورنا، يا دوناتو. أذكر جيّدًا ما أقول. أن نتدبّر أمورنا. لا تشغِل بالك بما هو غير شرعي ومحظور أو خطر. فالحقيقة أنّنا نسعى وراء رزقِ أولادنا، لا أكثر».

لبثَ الفتى متفكّرًا. كانت تلك المرّة الأولى التي يخاطبه فيها خاله على ذلك النحو، وبتلك النبرة الجادّة. أصغى إليه عاجزًا عن الإجابة، فلزِمَ الصمتَ، فخورًا لكون خاله قد اعتبره رجلاً ناضجًا وخاطَبَه كما يُخاطَب الرجال.

كان دومينيكو هو الوحيد الذي زار إيليّا خلال منفاه الذي دام عامًا بأكمله. ففي الوقت الذي اعتبر الجميع أنّ سرقة مداليات القدّيس ميكيلي هي صفعةٌ قاسية موجّهة للقريّة وأهلها، شكّلت الحادثة، في نظر دومينيكو، فرصةً أتاحت له التعرّف جيّدًا إلى ابن أخته. وكان تقرّبه إليه محبّبًا إلى نفسِه.

بمضيّ سنة على سرقة القدّيس ميكيلي، وصل دومينيكو بغتةً إلى منزل الأسرة التي تستضيف إيليّا وطلبَ أن يراه، ولمّا اطلّ عانقه وأمسك بذراعِه مصطحبًا إيّاه في نزهةٍ على دروبِ التلال. تبادل الخال وابن الأخت أطراف الحديث خلال سيرهما المتمهّل؛ وفي آخر الأمر، استدار دومينيكو، وبيده مغلّف، ليخاطب إيليّا وجهًا لوجه، فقال:

«يا إيليّا، في غضون شهر واحد، وإذا جرت الأمور على خير ما يرام، ستتمكّن من العودة إلى القرية. أعتقد أنّهم سيتقبّلون الأمر هناك، فما عاد أحد يأتي على ذكر الحادثة، والنفوس هدأت. وقريبًا جدًّا سيقام احتفال جديد بعيد القدّيس إيليّا. في غضون شهر واحد، بإمكانك، إذا شئت، أن تعيش بيننا مجدّدًا. غير أنّني جئتك لأقترحَ أمرًا آخر. خُذ. خذ هذا المغلّف. إنّه يحتوي مالاً، كثيرًا من المال، ما يكفيك ستّة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أشهر. خُذه وارحل، حيثما تشاء.. إلى نابولي، إلى روما، أو ميلانو. وإذا لم يكفِ سأبعث لك بالمزيد. اسمعني جيّدًا يا إيليّا. ليس غرضي أن أطردك، بل أمنحك فرصة الاختيار. مُتاحٌ لك أن تكون أوّل من يغادر هذه الأرض من بين آل سكورتا جميعًا. أنت، وحدك، قادرٌ على ذلك. والسرقة التي اقترفتها هي خير دليل على ما أقول. أنت تتمتّع بالجرأة، والبعد أنضجك. فحسبك الجرأة والنضوج، ولا شيء آخر. لم أطلع أحدًا على اقتراحي هذا، لا أمّك، ولا خالَيْك. فإذا قرّرت أن تسافر، أتعهّد لك بأن أشرح لهم الظروف بنفسي. والآن، أصغِ إليّ جيّدًا، أصغِ جيّدًا، مازال أمامك شهر. سأترك لكَ المغلّف. وفكّر مليًّا».

قبّل دومينيكو ابن أخته في جبينه وعانقه. لَبِثَ إيليّا مذهولاً، ومشاعره نَهبًا للرغبات والمخاوف المتضاربة. محطّة ميلانو، مدن الشمال الكبرى، المكتنفة بسحابةٍ من دخانِ المصانع، حياة المهاجر المستوحدة. كان ذهنه عاجزًا عن تلمّسِ الواقع في غمرة الصورِ المتدافعة. قال خاله عنه إنّه من آل سكورتا. فما المغزى من قوله؟ هل نسيَ أنّ كنيته هي مانوزيو؟

بعدَ شهر، وفي ساعةٍ من ساعات الصباح التي تسري فيها السخونة في عروقِ الأحجار، طُرِق باب دارة دومينيكو الفاخرة. فتح دومينيكو الباب، فإذا بإيليّا واقفًا أمامه، مبتسمًا، وبيده المغلّف الذي يحتوي مال السفر.

«إنّني باق هنا، قال.

ـ أعلم ذلك، أجاب الخالُ بما يشبه الغمغمة.

ـ كيف؟ سأل إيليّا بشيءٍ من الفضول.

ـ الطقس جميل في هذه الآونة»، قال دومينيكو. ولمّا أدرك أنّ إيليّا لم يفهم القصدَ من جوابِه، أشار عليه بالدخول وسكب له شرابًا ثمّ استرسلَ في الكلام مفسّرًا. «الطقس جميلٌ جدًّا. منذ شهر والشمسُ في أبهى سطوعها. كان مستحيلاً عليك أن ترحل. عندما تسطع الشمس في كبد السماء ويُنهِكُ حَرُّها الحجارة، نستسلمُ لها صاغرين. إنّنا نهوى هذه الأرض حتّى الوله. لا تقدّم لنا شيئًا، وهي فقيرة مثلنا، ولكن إذا سرت فيها سخونة الشمس، مَلَكتنا، وعجزنا عن هجرانها. لقد وِلدنا من الشمس، يا إيليّا. وحرارتها تسري في عروقنا. ففي أعمقِ ذكريات أجسادنا، وأبعدها، تَمْثُلُ ذكرى الشمس، ساطعةً، مُكتَنِفةً بَشَرَتنا، رُضّعًا، بدفئها الغامر. وها نحن لا نكفّ عن التهامها، عن قضمها، نهمين إلى طَعمِها. إنّها ماثلة في الفاكهة التي نأكلها، في الدرّاقن، في الليمون. ونكهتها ممزوجة بالزيت الذي نشربه، متدفّقًا في حلوقِنا. إنّها فينا. ونحن أكَلَةُ شَمْس. كنت أعلم أنّك لن ترحل. ربّما كنت لترحل، بلى، لو أمطَرت خلال الأيّام المنصرمة. أمّا في مثل هذا الطقس، فمن المستحيل أن ترحل».

كان إيليّا يصغي بانتباهٍ إلى النظريّة التي استرسل دومينيكو في شرحها ببعضِ الحماسِ ـ كأنّما سَوقًا للدليلِ القاطع على أنّه، هو نفسُه، لا يؤمنُ بها تمامًا. كان سعيدًا، ويرغب في الكلام. فذاك هو أسلوبه في التعبير عن امتنانه العميق لإيليّا، لأنّه عاد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندئذ تابع الفتى كلامَه قائلاً:

«لقد عدت من أجلك أنت، يا خالي. فلا أريد أن يبلغني نبأ موتك عبر اتصال هاتفي بعيد، فأبكي وحيدًا في غرفةٍ بميلانو. أريد أن أكون هنا، بجوارك، وأن أتعلّم منك».

كان دومينيكو يصغي إلى ابن أخته ويرمقهُ بعينين ملؤهما الحزن. لقد سرَّه بالتأكيد أن يختار إيليّا البقاء. فكم صلّى في لياليه أن يستبعد الفتى خيار السفر، غير أنّ شيئًا في أعماق نفسه يُنبئهُ بأنّ تلك العودة هي بمثابة استسلام، ويُذكّره بالفشل النيويوركي. هكذا لن يتمكّن أحدٌ من آل سكورتا، من الرحيل عن تلك الأرض البائسة. لا أحد منهم ستُكتَب له النجاة من شمس بوليا. أبدًا.

عندما لمحت كارميلاّ ابنها من بعيد بصحبةِ دومينيكو، ارتسمت بشارة الصليب وشكرت السماء. لقد عاد إيليّا، بعد سنةٍ من الغياب. كان يجتاز الباحةَ بخطواتٍ ثابتة، لا أحد يعترض طريقه، لا همسَ، لا نظرة بغضاء، لا جمهرة رجال تتبع خطاه. مونتيبوتشيو غفرت له.

كان دوناتو أوّل المرتمين في أحضان إيليّا مُهَلّلاً. لقد عاد أخوه البكر. كان متلهّفًا للاختلاء به لكي يُخبره بما جرى في غيابه: رحلاته الليليّة على متن الزورق، والتهريب، ومخابئ السجائر المهرّبة. يودّ أن يشرح له كلّ شيء، غير أنّه يكتفي، اللّحظة، بضمّه، صامتًا، إلى صدره.

استأنفت الحياة مجراها في مونتيبوتشيو. كان إيليّا يعمل مع والدته في دكّان التبغ، ودوناتو يسأل خاله كلّ يوم إذا كان يسمح له بمرافقته بحيث اعتاد الرجل اصطحابَه كلّما ركبَ البحر ليلاً.

كان إيليّا ينتهز كل سانحةٍ للقاء دومينيكو خلال عمله في الحقول. بكر آل سكورتا كان يشيخُ برويّةٍ كلّما انقضى صيفٌ وجاء آخر. واستحالت قسوةُ الرّجل وانغلاقه على ذاته، رقّةً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تنضح من عينيه الزرقاوين اللتين لا تخلوان من جمالٍ نبيل. شُغِفَ مع الوقت بأشجار الزيتون وتمكّن من تحقيق حلمه: أن يغدو مالكًا لبضعة هكتارات من الأراضي المزروعة بأشجار الزيتون. كان يعشقُ التأمّل في تلك الأشجار التي بلغت من العمرِ مئةً، عندما تلطّفُ الطراوةُ الجوّ ويهبّ نسيمٌ بحريّ يداعب أوراقها. انصرف كلّيًا إلى العنايةِ بأشجار الزيتون، وكان يردّد على الدوام أنّ زيت الزيتون هو خلاص الجنوب، ويُراقب السائلَ متدفّقًا من القوارير بابتسامة رضى.

كلّما أتى إيليّا لزيارته، يدعوه للجلوس على الشرفة الفسيحة. ثمّ يأتي بشرائح الخبز الأبيض وقارورة زيت من غلّة أرضه، وينصرفان إلى تذوّق ذاك الإكسير بما يشبه الخشوع:

«ذَهَبٌ خالص، كان الخال يقول. من يزعم أنّنا فقراء لم يَذُق من قبل كسرةَ الخبز مغمّسةً بزيتنا. كأنّك تقضم ملء أسنانك من هذه التلال. فيه طعم الحجر والشمس، بهيّ، كثيف ولزج. زيت الزيتون هو دمُ أرضنا. والأحرى بمن يسمّوننا قرويين بائسين أن يلتفتوا إلى الدم الذي يجري في عروقنا. عَذبٌ وسخيّ. لأنّ هذا ما نحن عليه حقًّا: قرويّون بدمٍ نقيّ. أناس فقراء ذوو سحن غضّتها الشمس، وأيدٍ خشنة المَلمس، لكنّنا ذوو نظرات مستقيمة، ثابتة. أنظر من حولك جفاف هذه الأرض، وتمتّع بغنى هذا الزيت. بين الأمرين، هناك كدّ الإنسان. وهذا أيضًا يخالط نكهة زيتنا. عرق شعبنا. أيدي نسائنا الخشنة التي قطفت الغلال. أجل. وفي هذا نُبْلٌ كثير. لذلك هو لذيذ الطعم. لعلّنا بؤساء وجهلة، غير أنّنا استخرجنا

الزيت من الحصباء، ولأنّنا أنجزنا الكثير من القليل، استأهلنا خلاصنا. فالله يُجزي من يسعى، وزيت زيتوننا يشفع لنا».

كان إيليّا يلزم الصمت. لكن تلك الشرفة المطلّة على التلال، تلك الشرفة التي يعشق خاله الجلوس عليها، المكان الوحيد الذي يشعرُ فيه بأنّه على قيد الحياة، بأنّه قادرٌ على التنفّس.

كانت زيارات دومينيكو إلى القرية قد أصبحت قليلة ومتباعدة. يفضّل الجلوس على كرسيّ وسط أشجاره، والاستغراق، مستظلاً بشجرة زيتون، في تأمّل السماء وهي تبدّل ألوانها. فقط موعد واحد، ما كان ليفوّته مقابل كنوز العالم أجمع. ففي أمسيات الصيف، اعتاد أن يلتقي أخويه، رفايلي وجيوسيبّي، في الباحةِ كلّ يوم، عند السابعة. كانوا يجلسون على شرفة مقهىً بعينِه، هو مقهى «دا بيتزوني»، حيث طاولتهم مُعدَّة لاستقبالهم، ثمّ ينضمّ إليهم مالك المقهى، بيبّينو، ويشاركهم اللعب بالورق. من السابعة إلى التاسعة. كانت لعبة الورق تلك هي موعدهم المقدّس. يحتسون قدحًا من شراب «سان بيتر» أو شراب الأرضي شوكي المُسكِر وينهالون بأوراقهم على الطاولة، طارقين خشبها بعنفٍ، ضاحكين متصايحين. يتبادلون الصياح والشتائم، لاعنين السماء لدى كلّ دَوْر يخسرونه أو شاكرين القدّيس إيليّا لدى كلّ دَوْر يربحونه. يستفزّون بعضهم بعضًا تلميحًا، ويسخرون ممّن لا يحالفه الحظ، ويربّتون على ظهور بعضهم بعضًا. في غاية السعادة. بلى. ففي تلك اللحظات، لا يعوزهم شيء. بيبّينو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يحضّر أقداح الشراب كلّما فرغت الأقداح، ويُطلعهم على ما يدور في القرية. وجيوسيبّي يُمازح أولاد الحيّ الذين ينادونه، جميعًا، «خالي»، لأنّه غالبًا ما يعطيهم نقودًا لشراء اللّوز المحمّص. يلعبون بالورق فلا يعود الزمان موجودًا. يجلسون هناك، على تلك الشرفة، في طراوة أمسيات الصيف العذبة، في ديارهم. لا يبالون بأيّ أمر آخر.

ذات يوم من أيّام حزيران، لم يأتِ دومينيكو إلى موعدِه المعتاد عند السابعة في مقهى «دا بيتزوني». انتظروه قليلاً. لكنّه لم يأتِ. شعر رفايلي وجيوسيبّي بأنّ خطبًا ما قد أصابه. هرعا إلى دكّان التبغ لكي يسألا إيليّا عنه. لكنّ إيليّا لم يره في ذلك اليوم. فهرعا عندئذٍ إلى دارته، وفي روعهما يقينٌ غامض بأنّهما سيلاقيان هناك الأسوأ. وجدا أخاهما جالسًا على كرسيه وسط أشجار الزيتون وقد تدلّت ذراعاه وانحنى رأسه على نحره، وقبّعته مهملة على الأرض. ميتًا. بسكينة. نسمات حارّة خفيفة تداعب خصلات شعره برفق. أشجار الزيتون من حوله تظلّله وتحوطه بحفيفِ وريقاتها العذب.

«منذ وفاة ميمي، وأنا لا أكفّ عن التفكير في أمرٍ بعينه».

قال جيوسيبّي بصوتٍ خفيض، من دون أن يرفع عينيه نحوهم. رمقه رفايلي بنظراتٍ مستفهمة، أملاً في سماع تتمّة العبارة، ولمّا أيقن أنّ التتمة لن تأتي سأله برفق:

«أيّ أمر؟»

لبثَ جيوسيبّي متردّدًا بعض الشيء، لكنّه أفصح، آخر الأمر، عمّا يعتمل في صدره.

«متى كنّا سعداء؟»

رمق رفايلي أخاه بنظراتٍ عطوفة. لقد هزّت وفاةُ دومينيكو كيانَ جيوسيبّي على نحوٍ لم يتوقّعه أحد. منذ مراسم الدفن، شاخَ فجأة، وفارقته ملامح الطفل ممتلئ الخدّين، التي طالما أظهرته، حتّى في سنّ الرجولة، بمظهرِ الفتى الذي لا يشيخ. وفاة دومينيكو قَرَعت ناقوس الرحيل، فباتَ جيوسيبّي مستعدًّا له، يُنبئُه حدسُه بأنّه سيكون التالي. سأل رفايلي أخاه:

«وما رأيك أنت؟ كيف تجيب عن هذا السؤال؟»

كان جيوسيبّي متحصّنًا بصمته كأنّه مُرغمٌ على الاعتراف بجريمة. كان متردّدًا، حائرًا في أمره.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«هذا هو المقصود، تمامًا، قال بشيء من الخجل. لقد فكّرت مليًا. حاولت أن أضع قائمةً بهنيهات السعادة التي شهدتها في حياتي.

ـ هل كانت كثيرة؟

ـ أجل، كثيرة. أو أعتقد أنّها كانت كذلك. شهدتُ منها ما يكفي. يوم اشترينا دكّان التبغ. يوم ولادة فيتوريو. يوم زواجي. أبناء إخواني. بنات إخواني. أجل. شهدت الكثير منها.

ـ لِمَ هذا الحزن البادي على محيّاك إذًا؟

ـ لأنّني عندما أحاول استذكار أسعدها، هل تدري ما الذي يخطر ببالي؟

ـ لا.

ـ يومَ دعوتنا جميعًا، للمرّة الأولى، إلى المنصّة. تلك الذكرى تطغى على ما عداها. تلك الوليمة. لقد أكلنا وشربنا بسعادة غامرة.

ـ كرش ملآن؟ قال رفايلي ضاحكًا.

ـ أجل. كرش ملآن، قال جيوسيبّي مُردّدًا دامعَ العينين.

ـ وما الحزينُ في هذا الأمر؟

ـ ما حُكْمُكَ على رجلٍ، أجابه جيوسيبّي، يُعلِنُ، في أواخر أيّامه، أنّ أسعد أيّام حياته هو اليوم الذي أقيمت فيه وليمة؟ أليس في حياة البشر بهجة أرقى من بهجة الطعام؟ أليست سمة ملازمة لحياة بائسة؟ أليس الأحرى بي أن أشعر بالخجل؟ ومع ذلك، صدّقني، كلّما فكّرت في الأمر طغت تلك الذكرى على

ما عداها. قدّمتَ لنا خلالها طبق الريسوتو اللذيذ بثمار البحر. وكانت عزيزتك جيوسيبّينا ترتدي ثوبًا أزرقَ فاتحًا، كانت جميلة كحبّة القلبِ، متنقّلةً بخفّة بين المائدة والمطبخ. أذكرُكَ أنتَ، بقرب الفرن، والعرق يتصبّب منك كأنّك عامل منجم. والأصوات التي كانت تصدر عن الأسماك على لوحِ الشواء. ألا ترى: في ختام حياةٍ بأكملها، أحفظ تلك الذكرى على أنّها الأجمل بين الذكريات كلّها، ألا يجعل منّي ذلك الكائن الأشدّ بؤسًا بين الكائنات؟»

كان رفايلي قد استمعَ بعطفٍ. لقد أحيا صوتُ أخيه ذكرى تلك الوليمة. واستعاد هو أيضًا صور اجتماع آل سكورتا حول المائدة، والأطباق التي تناقلتها الأيدي، وبهجة الطعامِ معًا.

«لا يا بيبّي، خاطب أخاه قائلاً، أنتَ على حقّ. مَن يسَعه الزعم بأنّه شهدَ سعادةً مماثلة؟ عددنا ليس كبيرًا. فَلِمَ ينبغي لنا أن نُهمِلَ هذه الذكرى؟ ألأنّنا كنّا منصرفين إلى الأكل؟ ألأنّ الأجواء كانت عابقةً برائحة الشواء وقمصاننا ملطّخةً بصلصة الطماطم؟ هنيئًا لمن شاركَ في تلك المآدب. كنّا مجتمعين. أكلنا وتناقشنا وصحنا وضحكنا وشربنا كالبشر، جنبًا إلى جنب. كانت لحظات غالية، يا بيبّي. أنتَ على حقّ. وقد أبذل أغلى ما عندي لكي أشهد مثلها مجدّدًا، لكي أسمع مجددًا ضحكاتكم المدوّية في عَبَقِ رائحة الغار المشوي».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان دومينيكو أوّل الراحلين، غير أنّ جيوسيبّي لم يعش طويلاً بعده. ففي العام التالي تعرّضَ لسقطة عنيفة على سلالم القرية القديمة وأغميَ عليه. كان المستشفى الوحيد في منطقة غارغانو يقع في سان جيوفاني روتوندو التي تبعد ساعتين عن مونتيبوتشيو. نُقلَ جيوسيبّي في سيّارة إسعاف انطلقت مسرعةً على دروبِ التلال مطلقة صفّاراتها. الدقائق تنقضي متباطئةً كنصلِ سكّين على الجِلد، وجيوسيبّي يزداد وَهَنًا. بمضيّ أربعين دقيقة كانت سيّارة الإسعاف لاتزال بادية للعيان كنقطةٍ سوداء وسط امتداد صخريّ شاسع. في الأثناء استعاد جيوسيبّي وعيه وصفاء ذهنه لبرهة، فاستدار ملتفتًا إلى الممرّض وخاطبه بنبرة المحتضرين الواثقة قائلاً:

«في غضون نصف ساعة، سأفارق الحياة. أنتَ تعلم ذلك. نصف ساعة. لن أصمد لفترة أطول. ولن نتمكّن من بلوغ المستشفى. لذا عُد أدراجك، وانطلق عائدًا بسرعة. مازال أمامك وقت لكي تعيدني إلى قريتي، فهي المكان الذي أريد أن أموت فيه».

اعتبر الممرضان كلماته بمثابة وصيّة أخيرة وانصاعا لرغبته. وفي الامتداد الصخري القاحل للتلال دارت سيّارة الإسعافِ نصفَ دورةٍ وسلكت طريق العودة إلى مونتيبوتشيو، مُسرعةً،

مطلقةً زعيقَ صفّاراتها. وصلت إليها في الوقتِ المناسب. وقيض لجيوسيبّي أن يموت راضيًا عند ساحتها الرئيسيّة، وسط أهلِه المذهولين لعودةِ سيّارة الإسعاف تلك التي استسلمت أمام الموت.

منذ ذلك اليوم لم تخلع كارميلاّ ثيابَ الحداد مطلقًا. ما لم تفعله من أجل زوجها، فعلته من أجل أخويها. أمّا رفايلي فلم يجد أقلّ العزاء في شيء. كأنّما بُتِرت أصابع يده. يجول في أنحاء القرية لا يدري ماذا يفعل بنفسِه، ولا يفكّر في شيءٍ إلاّ أخَويه. يُعرّج كلّ يوم على مقهى «دا بيتزوني» ويخاطبُ صديقه قائلاً:

«لنلحق بهما يا بيبّينو. إنّهما معًا هناك، ونحن معًا هنا، فلا يستطيع أحد منّا أن يلعب بالورق».

كان يقصد المقبرة كلّ يوم، وهناك يتحدّث لساعات إلى الظلال. ذات يوم، اصطحب معه ابن أخته إيليّا، وأمام قبر الخالَين، قرّر أن يتكلّم. منذ مدّة وهو يؤجّل اللّحظةَ التي سيضطرّ فيها إلى الكلام، لاعتقاده أنّه لم يُنجز في حياته ما يستحقّ أن يكون درسًا لمخلوق، هو الذي لم يغادر القرية يومًا. لكنّه قطع على نفسه عهدًا. الأيّام تمضي ولا يريد أن يموت قبل الوفاء بعهده. لذا، أمام ضريح الخالَيْن، وضعَ يده على كتفِ إيليّا وقال:

«لم نكن لا أفضل ولا أسوأ من سوانا، يا إيليّا. لقد حاولنا. لا أكثر ولا أقلّ. حاولنا ما استطعنا. كلّ جيل حاول أن يبني شيئًا. أن يُدعّم ما بنى. أو توسيعه. ورعاية الأهل. كلّ واحد منّا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يحاول أن يبذل المستطاع. ليس أمام المرء إلاّ أن يحاول. ولكن لا شيءِ يُرجى من نهاية السباق. هل تدري ما ينتظرنا في نهاية السباق؟ الشيخوخة. لا شيء آخر. لذا اسمعني جيّدًا، يا إيليّا، أصغِ إلى خالك العجوز فايلوك الذي لا يعلم شيئًا ولم يتلقّ العلمَ في حياته. يجب أن يستفيد المرء من عرق الكدّ. هذا في اعتقادي، أنا. لأنّ في ساعات الكدّ أبهى لحظات الحياة. عندما تكافح في سبيل أمر ما، عندما تعمل، ليلَ نهار، كالمعتوه فلا يبقى متسعٌ لزوجتك وأولادك، عندما تبذل عرقك لبناء ما تشتهي، تشهدُ أجمل لحظات حياتك. صدّقني. ما كان شيءٌ خلال سنوات الفقر والبؤس، ليُضاهي، في نظر أمّك وخالَيْك وفي نظري أنا، كفاحنا من أجل امتلاك دكّان التبغ. كانت سنوات شاقّة، ولكن في نظرنا، نحن، كانت أجمل لحظات حياتنا. كان ينبغي لنا أن نبني من الصفر كلّ شيء، وكان حماسنا أشبه بضراوة الأسود. يجب أن نستفيد من عرق الكدّ، يا إيليّا. فاذكر جيّدًا ما أقول. وغير ذلك فإلى الزوال العاجِل، صدّقني».

كانت عينا رفايلي قد اغرورقتا بالدموع. فالكلام على أخويه وتلك السنين المضيئة التي تقاسموا آلامها وآمالها، يهزّ كيانه مثل طفلٍ.

«أنتَ تبكي؟ سأل إيليّا الذي فوجئ لما أبداه خاله من انفعال وتأثّر.

ـ أجل، يا مهجةَ خالك، أجاب رفايلي، ولكنّ البكاء نعمة. صدّقني. إنّه نعمة».

لقد قلتُ لكَ من قبل، يا دون سالفاتوري، كنت مدينةً لإخواني دَيْنًا هائلاً. وكنت أعلم أنّ سدادَه سيستغرق سنواتٍ لا حصرَ لها. ربّما حياتي كلّها. ما كنتُ لأبالي. كان بمثابة واجب. ولكن ما لم أتوقّعه هو أن أفقد، ذات يوم، الرغبة في سداده. لقد قطعت عهدًا على نفسي أن أعطيهم كلّ شيء، أن أعمل، طوال حياتي، لأهبهم ما جنيته. كنت مدينةً لهم بذلك. آليت على نفسي أن أكون أختًا، ولا شيء سوى ذلك. وهذا ما وفيتُ به يا دون سالفاتوري. كنت أختًا، طوال حياتي، ولم يغيّر زواجي في الأمر شيئًا. والبرهان هو أنّ الناس حين يبلغهم نبأ موتي لن يقولوا: «توفيت الأرملة مانوزيو». فلا أحد يعرف من هي الأرملة مانوزيو. بل سيقولون: «توفيت أختُ آل سكورتا». عندئذ سيعلم الجميع أنّني، أنا كارميلاّ، المعنيّة، وأنا سعيدة بذلك. فهذا ما أنا عليه، وما طالما كنته. أختٌ لإخواني. أنطونيو مانوزيو أعطاني اسمه ولكنّني لم أحمله. فما المُعيب في ذلك؟ لم أكفّ عن كوني واحدة من آل سكورتا، ولم يكن أنطونيو سوى عابر في حياتي.

لم أعرف السعادة إلاّ حين كنتُ محاطة بإخواني، إخواني الثلاثة. كنّا إذا اجتمعنا، مَلَكنا العالم. وكنت أعتقد أنّ الأمور ستبقى على حالها إلى النهاية. كذبتُ على نفسي. استمرّت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الحياة، وتكفّل الزمن بتغيير كلّ شيء، خلسةً. لقد جعلني أمًّا.

جميعُنا رزقنا أولادًا. كَبُرت العائلة. ولم أرَ أنّ ما استجدّ قد غيّر كلّ شيء. ولد ابنايَ. صرتُ أمًّا. ومنذ ذلك الحين، أصبحتُ ذئبة، كجميع الأمّهات. ما كنتُ أبنيه، إنّما أبنيه لهم. وما أجنيه أيضًا. احتفظتُ بكلّ شيء لإيليّا ودوناتو. ذئبة، يا دون سالفاتوري، ذئبة لا تكترث إلاّ لأولادها وتعضّ مَنْ يقترب منهم. كان في ذمّتي دَين ولم أُوَفّه. فما ينبغي أن يُعطى لأخواني يؤخَذُ من أولادي. فمَن عساهُ يفعل؟ لقد فعلتُ ما قد تفعلُه الأمّهاتُ قاطبةً. نسيتُ دَيْني وكافحتُ من أجل أولادي. أرى من نظراتك أنّك تكاد تغفر لي فعلتي. هذا ما تفعله الأمّهاتُ فعلاً، تقول في سرّك، ومن الطبيعي أن يُعطى الأولاد كلّ شيء. لقد تسبّبتُ في خرابِ ما بناه إخواني. أنا، يا دون سالفاتوري، أنا التي حلتُ دون تمتّعهم بالحياة التي كانوا يصبون إليها. أنا التي أرغمتهم على الرحيل عن أميركا حيث الثروة متاحة وبمتناول اليد، وأنا التي استدرجتهم مجدّدًا إلى أرض الجنوب هذه التي تضنّ على أهلها بكلّ شيء. لم يكن من الإنصافِ أن أنسى ذلك الدَين، حتّى لو فعلت من أجل أولادي.

دومينيكو، جيوسيبّي، رفايلي، هؤلاء رجالٌ أحببتهم. أنا أخت يا دون سالفاتوري. غير أنّني أختٌ لم تكن لإخوانها سوى وجه شؤمٍ قبيح.

VII

تَرَنْتيلاّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شيئًا فشيئًا هجرت كارميلاّ دكّان التبغ. راحت في البداية تقلّل من تردّدها عليه، ثمّ كفّت عن ذلك نهائيًّا. حلّ إيليّا محلّها. كان يفتح الدكّان، ويغلقه، ويجري الحسابات، صارفًا أيّامه وراء الكونتوار حيث استنفدت أمّه، من قبله، حياتها. كان يكابد السأمَ كما تسأم الكلاب أيّام الحرّ الشديد، ولكن ما الخيارُ الآخر المتاح؟ دوناتو يرفض رفضًا قاطعًا أن يصرف دقيقة واحدة من وقته في الدكّان، ولم يوافق على العمل في مجال التبغ إلاّ بشرطٍ وحيد ـ غير قابلٍ للمساومة: وهو أن يتمكّن من مواصلة رحلات التهريب بواسطة الزورق. فالتجارة التي طالما كانت مركز اهتمام العائلة أصبحت نارًا تحرق أكفّ العاملين فيها، وما عاد أحدٌ يرغب فيها. وإذا كان إيليّا قد عقد العزم على الحلول محلّ أمّه وراء الكونتوار، فلأنّه لا يمتلك خيارًا آخر. وكان يلعن نفسه كلّ صباح لأنّه لا يجيد عملاً إلاّ عمله في الدكّان.

بمضيّ الوقت، صار غريب الأطوار. ساهيًا على الدوام، سريع الغضب، شارد النظراتِ كابيَ العينين. كأنّه يبيع علَب السجائر طوال النهار من دون انتباه. ذات يوم، انتهز دوناتو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فرصةَ وجودهما معًا، وحدهما، ليسأل أخاه: «ما الخَطْبُ يا أُخيَّ[1]؟» رمقهُ إيليّا كأنّه فوجئ بسؤاله، ثمّ هزّ كتفيه وأجابه مغمغمًا: «لا شيء».

كان إيليّا مقتنعًا بأنّ لا شيء في سلوكه يفضح اضطرابه، لذلك أدهشه سؤال أخيه. تُرى ما الذي بدر منه، قولاً أو فعلاً، من شأنه الإيحاء بخطبٍ ما؟ لا شيء. لا شيء البتّة. لم يفعل شيئًا ممّا لم يعتد القيامَ به من قبل: بيع تلك السجائر اللعينة، والبقاء سحابة نهاره وراء ذاك الكونتوار، وتلبية طلبات الزبائن اللعينين. كان يستفظع تلك الحياة. يشعر بأنّه على عتبة انقلاب هائل، كما يشعر القاتل عشيّة ارتكابه جريمة. غير أنّه كان قد أخفى ذلك الغضب، ووارى تلك الرغبة في النَهشِ، في أعماق نفسه، بعيدًا عن أعين الجميع، كما يفعل المتآمر. ولمّا حدّق أخوه في عينيه مباشرةً وسأله ببساطة: «ما الخَطبُ يا أخيّ؟» خالجه شعورٌ بأنّه فضحَ أمره وعرّاه. وما كان ذلك إلاّ ليزيده حَنَقًا.

الحقيقة أنّ إيليّا كان مُغرمًا بماريّا كارمينيلاّ، وهي ابنة عائلة ثريّة تملكُ فندق «ترامونتاني» الكبير ـ أفخم فنادق مونتيبوتشيو. وكان كارمينيلاّ الأب طبيبًا يوزّع وقته بين معاينات المرضى وإدارة الفندق. أمّا إيليّا فكان يشعر بتسارع دقّات قلبه كلّما مرّ من أمام الفندق ذي الأربعة نجوم، ويلعنُ حوض السباحة الواسع ذاك، والأعلام المرفرفة، والمطعم المطلّ على البحر والشاطئ الخاص والمظلاّت الحمر والمذهّبة الموزّعة في أرجائه الشاسعة. يلعن ذاك الترف كلّه ليقينه أنّه سدّ منيعٌ يحول

(١) Fra'، اختصار كلمة fratello (أخي)، للتحبّب.

بينه وبين ماريّا. لم يكن سوى قرويّ بائس والجميع يعلمون ذلك. ولا يغيّر من تلك الحقيقة كونه مالكًا لدكّان تبغ. فالمسألة ليست مسألة مال، بل مسألة مكانة. ماذا يستطيع أن يقدّم لابنة الطبيب؟ أن تجالسه متصبّبةً عرقًا، في أمسيات الصيف، في دكّانه المزدحم بالزبائن؟ كلّها احتمالات مثيرة للسخرية وخاسرة سلفًا. كم فكّر في الأمر، وقلّبه على ألف وجه، خلال ليالي الأرق الطويلة. وفي كلّ مرّة كان يتوصّل إلى الاستنتاج نفسه: خير له أن ينسى ماريّا من أن يُعرّض نفسه لمهانةٍ أكيدة. ومع ذلك، برغم كلّ المواعظ الحسنة التي كان يردّدها على نفسِه، وبرغم كلّ الحجج المفحمة، كان يُخفِقَ في نسيان ابنة الطبيب.

ذات يوم، عقد العزمَ أخيرًا، فاستجمعَ جرأته كلّها وذهب لمقابلة العجوز غايتانو كارمينيلاّ. كان قد استأذنه بأن يعرّج عليه قبيل الظهر، فأجابه الطبيب بلطفٍ بالغ ونبرةٍ وديعة أنّه يرحّب بقدومه في أيّ وقت، وأنّه سينتظره على شرفة الفندق. في مثل تلك الساعة يكون السيّاح قد نزلوا إلى الشاطئ. جلس غايتانو العجوز وإيليّا، وجهًا لوجه، وحدهما على الشرفة، وكان الطبيب قد أحضر كأسين من الكمباريّ، لكنّ إيليّا المُنهمِك في التوطئة لموضوعه لم يمس شرابه. بعد أن تبادلا عبارات الكياسة والترحيب المعتادة بدا غايتانو العجوز حائرًا في أمرِ الفتى والغرض من زيارته، خاصّة أنّ الأخير لبث صامتًا ـ ولا يُعقَل أنّه تكبّد عناء تلك المسافة كلّها للسؤال عمّا إذا كانت عائلة مضيفه على خير ما يرام ـ، ثمّ شرع إيليّا في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكلام. لقد ردّد في سرّه هذا الخطاب مرارًا وتكرارًا، وتمعّن في كلّ كلمة، في كلّ صيغة، غير أنّ ما نطق به أخيرًا كان مختلفًا كلّ الاختلاف عمّا ردّده. كانت عيناه تلمعان، كأنّه قاتلٌ يعترف بذنبِه، ويأنس، في السياق، إلى ثمالةِ اعترافه العذبة.

«يا دون غايتانو، قال، لن أكذب عليك، وسأتطرّق مباشرة إلى صلبِ الموضوع. جئتُ خالي الوفاض. أنا لا أملك من متاع الدنيا إلاّ دكّان التبغ اللّعين الذي هو جلجلتي أكثر منه خلاصي. إنّني فقير، وهذه التجارة اللّعينة تزيدني فقرًا. قلّة قليلة من الناس تفهم ما أعني. ولكنّني أعلم يا دون غايتانو أنّك تفهم ما أعني، لأنّك رجل حكيم. دكّان التبغ هو بؤسي الأمرّ، ولا أملك سواه. عندما آتي إلى هذا المكان وأرى الفندق، وعندما أمرّ بالدارة التي تملكها في البلدة القديمة، أقولُ في سرّي إنّك أبديتَ لطفًا زائدًا لمجرّد قبولك الاستماع إليّ. ومع ذلك، يا دون غايتانو، مع ذلك، أريد ابنتك. إنّها تسري في دمي. حاولت، صدّقني، حاولت أن أصغي إلى ما يُمليه العقل. أعرف كلّ الأسباب التي قد تحثّك على رفض طلبي، وهي أسباب محقّة. لقد ردّدتها على نفسي مرارًا. ولكن عبثًا يا دون غايتانو. ابنتك تسري في دمي. ورفضكَ سيولّد شؤمًا قد يودي بنا جميعًا، آل كارمينيلاّ وآل سكورتا معًا. لأنّني مجنون، يا دون غايتانو. هل تفهم جيّدًا ما أقول؟ أنا مجنون».

كان الطبيب العجوز رجلاً فَطِنًا. وأدرك أنّ عبارات إيليّا الأخيرة لم تكن تهديدًا بل وصفٌ لحالته. كان إيليّا مجنونًا، والنساء قد يتسبّبنَ بحال الجنون تلك. أحرى به ألاّ يستفزّه.

فتريّث الرجل ذو اللحية البيضاء والعينين الزرقاوين في ردّه. كان غرضه من التروّي أن يظهر بمظهر الأب الذي يفكّر في طلبِ إيليّا والذي يدقّق مليًّا في حججه ومبرّراته. ثمّ بنبرة الوجيه الرصينة، راح يتحدّث عن الاحترام الذي يكنّه لآلِ سكورتا ـ العائلة الشجاعة التي انتزعت مكانتها الاجتماعيّة بالكدّ والعمل. لكنّه أردف قائلاً إنّه بصفته أبًا لا يستطيع إلاّ أن يضع نُصبَ عينيه مصلحة أولاده. وقال إنّ هذا هو هاجسه الأوحد. الحرص على سعادة ابنته وعائلته. وقال إنّه سيفكّر في الأمر وسيبلّغه بالردّ في أقرب فرصة ممكنة.

في طريق عودته، سلكَ إيليّا صُعُدًا باتجاه دكّان التبغ. كان رأسُهُ مُفرَغًا. فلم يُزِل عنه اعترافُه ثقلَ الهموم التي تعتمل في صدره، لا بل أنهكَ قواه. وما كان يجهله هو أنّه خلال سيره مُطرقًا، عاقدَ الحاجبين، كانت حالٌ من الاضطراب الشديد تسود أجواء فندق «ترامونتاني». فنساء العائلة اللواتي أنبأهنّ حدسهنّ أنّ في الأجواء معضلة غراميّة، سارعنَ، عقبَ انتهاء الخلوة، إلى حثّ غايتانو العجوز على الكشفِ عن أسباب زيارة إيليّا، ولم يستطع الرجل، في آخر الأمر، إلاّ الرضوخ لإلحاحهنّ. فحكى لهنّ ما جرى. وعلى الفور عمّت الدار أصداء صياح وضحكات. كانت والدة ماريّا وشقيقاتها يعلّقنَ على مزايا وسيّئات طالب الزواج المباغت، ويرغمنَ الطبيب العجوز على ترداد قول إيليّا حرفيًّا. «أنا مجنون». هل قال حقًّا: «أنا مجنون»؟ أجل، كان غايتانو يقول مؤكّدًا. حتّى أنّه

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ردّد العبارة مرّتين. كانت زيارة إيليّا أوّل طلب للزواج تشهده عائلة كارمينيلاّ، وكانت ماريّا بكر البنات ولم يتوقّع أحدٌ أن تجري الأمور بمثلِ تلك السرعة. وبينما انهمكت العائلة في سماع الحكاية مردّدةً للمرّة المئة، توارت ماريّا عن الأنظار. لم تشاركهنّ ضحكهنّ، بل احمرّت وجنتاها كأنّهما تلقّتا صفعة. غادرت الفندق وهرعت محاولة اللحاق بإيليّا. لحقت به أمام دكّانه. فوجئ لرؤيتها، وقد تبعته بمفردها، فوقف مذهولاً ولم يلقِ عليها التحيّة. عندما أصبحت على بعد أمتار، قالت له:

«إذًا هذا ما فعلته، جئت إلى دارنا وطلبت يدي من والدي». بدا في عينيها غضبٌ ضارٍ. «أهذه هي تقاليد عائلة المتخلّفين التي هي عائلتك. ألا تسألني أنا. إنّي واثقة من أنّ الأمر لم يخطر ببالك. تقول إنّ مأساة ستحلّ إذا لم تحظ بي. فما الذي تقدّمه لي؟ تذرف الدموع أمام والدي لأنّك لا تملك ما يكفي. تتحدّث عن فنادق، ومنازل. فهل هذا ما كنت لتقدّمه لي لو كانت ظروفك تسمح بذلك؟ قل لي؟ منزل؟ سيّارة؟ أجبني، يا بغلَ الرجال، أهذا ما كنت لتقدّمه؟»

لبث إيليّا مشدوهًا. كان لا يفهم شيئًا ممّا يدور من حوله، وكان صياح الفتاة يزداد حدّة. لذا غمغم قائلاً:

«أجل. هذا ما كنت لأقدّمه لك.

ـ إذًا، كُن على ثقة، أجابته بابتسامة مزدرية جعلتها أكثر بنات غارغانو جمالاً وكبرياء، كُن على ثقة، أنّك حتّى لو ملكت قصر كورتونو، فلن تحظى بي. أنا أغلى من هذا كلّه. فندق، منزل، سيّارة، لا أريد شيئًا من هذا. هل تسمعني؟ أنا

أغلى. هل تفهم، أيّها القرويّ البائس؟ أغلى بما لا يُقاس. أريد كلّ شيء. وأفوز بكلّ شيء».

ما كادت تنهي كلامها حتّى استدارت على عقبيها وتوارت مخلّفةً وراءها إيليّا غارقًا في ذهوله. منذ تلك اللحظة أيقن أنّ ماريّا كارمينيلاّ أصبحت هَوَسَه الحقيقي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انتهى القدّاس وراح آخر المصلّين يغادرون جماعاتٍ بغير انتظام. كان إيليّا منتظرًا عند الباحة، كئيبًا، مُدلّيًا ذراعيه على جنبيه قنوطًا. عندما لمحه الكاهن، سأله إذا كان على ما يُرام، ولمّا لم يُجِبْه، دعاه لاحتساء قدح من الشراب. عندما جلسا سأله دون سالفاتوري بنبرةٍ تلحّ بطلبِ الإجابة:

«ما الخَطب؟

ـ لم أعد قادرًا على الاحتمال، يا دون سالفاتوري، أجاب إيليّا، أكاد أفقد عقلي. أريد... لا أدري. أن أفعل شيئًا آخر، أن أبدأ حياة مختلفة، أن أرحل عن القرية، أن أتخلّص من دكّان التبغ اللعين هذا.

ـ وما الذي يمنعك؟ سأل الكاهن.

ـ الحرِّيّة، يا دون سالفاتوري. ينبغي أن تكون ثريًّا لكي تمتلك حرِّيّتك، أجاب إيليّا، وقد أدهشه عجز دون سالفاتوري عن فهم المغزى من كلامه.

ـ كفّ عن التباكي يا إيليّا. إذا كنت راغبًا في الرحيل عن مونتيبوتشيو أو الشروع في أمرٍ ما لا أدري ما هو، فليس عليك إلاّ أن تبيع دكّان التبغ، وأنت تعلم جيّدًا أنّه سيدرّ عليك مالاً وفيرًا.

ـ أكون بذلك كأنّني أقتل أمّي.

ـ دع أمّك وشأنها الآن. إذا كنت ترغب في الرحيل، بع الدكّان، وإذا كنت لا ترغب في البيع، فكفّ عن الشكوى».

صارحه الكاهن بمكنون صدره بلهجةٍ يعشقها أهل تلك الناحية، صريحة وقاسية ومن دون محاباة.

شعر إيليّا بأنّه لن يقدر على المضيّ في حديثه من دون التطرّق إلى المشكلة الحقيقيّة، والسبب الذي يدعوه إلى لَعنِ السماء: ماريّا كارمينيلاّ. غير أنّه لا يريد التطرّق إلى كلّ هذا، ولا يريد الخوض فيه، وخاصّة مع دون سالفاتوري. نبّهه صوتُ الكاهن من استغراقِه عندما قال له:

«فقط في آخر يوم من حياة المرء يمكنه القول إذا عاش سعيدًا أم لا. قبل ذلك عليه بالسعي قَدرَ المستطاع. اتبع طريقك، يا إيليّا. لا أكثر.

ـ طريقي التي لا تفضي بي إلى مكان، تمتم إيليّا الذي استولت ماريّا على أفكاره.

ـ هذا أمر آخر. أمرٌ آخر، وإذا لم تعالجه، تكون مُذنبًا.

ـ مذنبًا بماذا؟ ملعونًا، بلى!

ـ مُذنبًا، ردّد دون سالفاتوري قائلاً، لعدم الارتقاء بحياتك إلى أعلى نقطة يمكنك بلوغها. دَعْكَ من الحَظّ، ودَعْكَ من القَدَر، واجتهد يا إيليّا. اجتهد. إلى النهاية. لأنّك، حتّى الساعة، لم تفعل شيئًا».

عندما أنهى الرجل العجوز كلامه غادر تاركًا إيليّا بمفرده، بعد أن ربّتَ على كتفهِ بيده الغليظة الخشنة التي تليق بفلاّحٍ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كالابريّ. فكّر إيليّا مليًّا بالحديث الذي جرى بينهما، ووجد أنّ الكاهنَ محقّ. هو لم يفعل شيئًا بعد. لم يفعل شيئًا. كان أوّل ما فعله كرجلٍ بالغ هو ذهابه إلى غايتانو لكي يطلب ماريّا للزواج، وحتّى في زيارته تلك، ذهبَ إليه مطأطئًا، مهزومًا سلفًا. كان الكاهن محقًّا. إيليّا لم ينجز شيئًا. وحان الوقت لكي يجتهد. كان جالسًا بمفرده على شرفة مقهى «دا بيتزوني»، ساهيًا يُحرّك قهوته، وعند كلّ دورةٍ تدورها الملعقة يُتمتم كالمنوَّمِ: «ماريّا، ماريّا، ماريّا...».

منذ حديثه مع دون سالفاتوري، صمّم إيليّا أن يجرّب حظّه ثانية. فهو، بأيّة حال، لا يملك خيارًا آخر. لقد جفاه النوم. وصار عاجزًا عن الكلام. وإذا استمرّ على هذه الحال، لن يمضي عليه شهرٌ قبل أن يفقد عقله تمامًا، ويقفز من أعلى الجرف في مونتيبوتشيو إلى البحر الذي لا يلفظ الأجساد التي يبتلعها. لم يدرِ كيف السبيل للاختلاء بماريّا. فهو لا يستطيع أن يقترب منها لا على الشاطئ ولا في المقهى. ثمّة من يصحبها على الدوام. ففعل ما يفعله عادة القتلة أو اليائسون. تبعها، ذات يوم، في طريق عودتها من السوق. وعندما سلكت زقاقًا في البلدة القديمة حيث لا أثر لكائن حيّ ما عدا القطط الناعسة تحت أشعّة الشمس، اندفع نحوها، كظلّ، وأمسك بذراعها ثمّ ناداها وهو يُدير عينيه في محجريهما كأنّه مصاب بحمّى:

«ماريا...

ـ ماذا تريد؟» صاحت به كأنّها شعرت بوجوده خلفها فلم تفاجأ به.

الجفاء الذي شابَ نبرتها أفقده عقله. فأغضى محملقًا في الأرض ثمّ شملها بنظراته. جمالها يُفقِدُه عقلَهُ. أحسّ بالدم يحتقنُ في وجنتيه، فازدادَ حَنَقًا. كانت قريبة منه. يستطيع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لمسها، احتضانها. غير أنّ نظرتها إليه جعلته يحمرّ خجلاً، جعلته يتمتم كلامًا غير مفهوم. يجب أن تبادر، قال في سرّه. هيّا ابذل ما بوسعك. يجب أن تسرّ لها بما يعتمل في صدرك. كلّ شيء. ولا بأس إذا سخرت منك وعلا ضحكها قهقهةً.

«ماريّا. اليوم أخاطبك أنتِ وليس والدك. أنت محقّة. لقد كنت غبيًّا. قلتِ لي إنّك تأخذين كلّ شيء. هل تذكرين؟ تفوزين بكلّ شيء. هذا ما سمعته منك. والآن جئت لأقول لك إنّ كلّ شيء ملكٌ لك. أعطيك كلّ شيء. حتّى آخر فلس أمتلكه. وهو قليل عليك. قد يمنحك آخرون ما هو أكثر، لأنّني لست الأوسع ثراءً، ولكن لن يقدر أحد على منحك كلّ ما يملك، كما أمنحك أنا. لن أبقي لنفسي شيئًا. خذي كلّ شيء».

كان كلامه مُتدافعًا محمومًا وعيناه تلمعان بتلك الضحكة المريضة التي تُظهرهُ دميمًا. فيما جمدت ماريّا في مكانها، ساكنة الملامح، تحدّق بإيليّا كأنّها تعرّيه بنظراتها.

«أنتَ من عائلة تجّار حقًّا، قالت بابتسامةٍ مزدرية. المال. هو كلّ ما تتحدّث عنه. هل أبدو في عينيك علبة سجائر لكي تعرض شرائي؟ أنتَ تودّ حقًّا أن تشتري زوجتك. لا يسعك أن تشتري بالجواهر والذهب إلاّ الغواني وبنات ميلانو. غير أنّك لا تجيد إلاّ البيع والشراء. هيّا، دعني وشأني. ابحث عن امرأة لك في سوق البهائم، وادفع الثمن الذي تشاء، أمّا أنا، فثمني باهظ، على كلّ حال، ويفوق إمكانياتك».

بعد أن قالت له ذلك، تابعت طريقها. ولكن إيليّا أمسك بذراعها، من دون وعيٍ منه، وبكثير من الفظاظة. كان ممتقع

اللون، مرتعش الشفتين. لِمَ تصرّف على ذاك النحو، هو نفسه لم يدرِ. غير أنّه أمسك ذراعها بقوّة. فكرتان تتصارعان في رأسه. الأولى تدعوه إلى إفلات ذراعها على الفور، وتقنعه بأنّ ما يجري بالغ السخف، وينبغي له أن يتركها ويعتذر. غير أنّ نازعًا أقوى يوسوس له بأن يشدّ على ذراعها بحقد. «أستطيع أن أغتصبها، قال في سرّه. هنا. في هذا الزقاق. الآن. أن أغتصبها. ولا أبالي بالعواقب. إنّها قريبة منّي. ذراعها. هنا. تحاول الإفلات لكنّها لا تملك القوّة. أستطيع أن أضاجعها. وهكذا أفوز بها لأنّها بعد ذلك لن تتزوّج على الإطلاق...

ـ دَعني.»

كأنّ نبرتها الحازمة أحدثت فرقعةً في أذنيه، فأفلتها على الفور. وقبل أن يستردّ رباطة جأشه، وقبل أن يبتسم أو يعتذر، توارت عن أنظاره. كان صوتها حازمًا، متسلّطًا، فانصاعَ له من دون تفكير. التقت نظراتهما للمرّة الأخيرة. كانت نظرات إيليّا خاوية كنظرات رجلٍ مخدّر أو مصابٍ بالأرق. ولو كان متمتعًا بوعيه كاملاً للاحظَ في نظرة ماريّا ما يشبه الابتسامة التي تكذّب جفاء النبرة. نشوة ما برقت في نظرتها كأنّ ملمس يده على ذراعها قد مسَّ فيها ما لم تمسّه كلماته. لكنّ إيليّا لم يلحظ شيئًا من ذلك. لبثَ في الزقاق منهوكًا، محبطًا لما تخلّل اللقاء الذي طالما سعى إليه.

عندما دلفَ مُسرعًا من باب الكنيسة، كان دون سالفاتوري يدخّن سيجارة، وهو أمرٌ لا يفعله الكاهن إلاّ نادرًا، وبمتعةٍ نادرة. كان التدخين يذكّره بحياته في كالابريا، قبل الرهبنة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عندما كان هو ورفاقه، في الثانية عشرة من عمرهم، يمجّون، بمتعة بالغة، السيجارة التي غَنِموها سرقةً أو اختلاسًا.

«ما الخطب؟ سأل دون سالفاتوري الذي أقلقته سحنة إيليّا.

ـ قُضيَ عليّ»، أجابه قائلاً، ومتحرّرًا من عِقَد الخجل، راح يسرد، للمرّة الأولى، على مسمعِ أحدٍ ما قصّة غرامه. حكى له كلّ شيء. ليالي الأرق، الهَوَس، الرهبة التي تستبدّ بكيانه عندما يلتقيان وجهًا لوجه. أصغى الكاهن لبعض الوقت، ثمّ حين بدا له أنّه سمع الكفاية، رفع يده مُشيرًا على إيليّا بالسكوت وقال له:

«اسمع يا إيليّا. قد أكون عونًا للموتى لأنّني أجيد الصلاة، وقد أكون عونًا في تربية الأولاد لأنّني ربّيت أولاد أخي بعد مماته، أمّا في موضوع النساء، فكلاّ، لا أستطيعُ شيئًا من أجلك.

ـ ما العمل إذًا؟ سأل إيليّا، يائسًا.

ـ ما العمل؟ إنّي من أهل كالابريا، وهناك، حين يُضنينا الحبّ، نرقص التَرَنْتيلاّ. وغالبًا ما ينجمُ عن الرقصُ شيء، قد يكونُ نعمةً وقد يكون فاجعة».

لم تقتصر نصيحة دون سالفاتوري لإيليّا على ذكرِ رقصة الترنتيلاّ، بل أرفقها باسم امرأة عجوز، مقيمة في البلدة القديمة، ومن أصل كالابري، وقد تُعنى بأمره إذا ذهب إليها عند منتصف الليل حاملاً معه صفيحة من زيت الزيتون.

وهذا ما فعله إيليّا. ذات مساء، طرق باب المنزل المتواضع. وانتظر طويلاً قبل أن يُفتَح له. وإذا بعجوز ضئيلة الحجم، مغضّنة الوجه، واقفة بالباب أمامه، ثاقبة النظرة، رخوة الشفتين. وكان أوّل ما تبادر إلى ذهن إيليّا لدى رؤيتها أنّه لم يلمحها من قبل في القرية. نطقت بعبارات لم يفهمها. لم يكن كلامها بالإيطاليّة أو بلهجة أهل مونتيبوتشيو، بل لعلّها عاميّة كالابريّة. لم يدرِ إيليّا بماذا يجيب، قدّم لها صفيحة الزيت فتهلّل وجهها. قالت بنبرٍ حادّ: «**ترنتيلاّ؟**»، كأنّ اللفظَ وحده يُبهجها، ودعته للدخول.

كان البيت مؤلفًا من حجرة واحدة ـ على غرار المنازل القديمة. حصير. مدفأة حطب. دلوٌ لمختلف الاستعمالات. والأرضيّة من طين جاف. كان شبيهًا ببيت رفايلي، بقرب الميناء، حيث أقام آل سكورتا لدى عودتهم من نيويورك. من

https://telegram.me/maktabatbaghdad

دون أن تنبسَ بحرفٍ واحد، وضعت العجوز قنّينة شرابٍ مُسكر على المنضدة، وأشارت عليه بأن يسكب لنفسه قدحًا وغادرت المنزل. انصاع إيليّا لرغبتها. جلس إلى المنضدة وسكب لنفسه قدحًا. حسبَ للوهلة الأولى أنّه صنفٌ من الغرابًا أو الليمونتشينو، غير أنّ طعمَ الشراب بدا غريبًا، لا يُشبه شيئًا ممّا تعوّده من قبل. احتساه بجرعة واحدة وسكب قدحًا ثانيًا لعلّه يعرف ما هو. كان الشراب يتدفّقُ في حلقِه مثل حمم البركان، وكان له طعم الحصى. «لو أنّ لأحجار الجنوب طعمًا، لكان هذا طعمها»، قال إيليّا في سرّه بعد أن تجرّع القدح الثالث. هل يُعقل أنّ حصباء التلال تُعصَرُ لاستخراج هذا الشراب؟ استسلم إيليّا للسخونة التي يشيعها في جسمه. لا يفكّر في شيء. عندئذ فُتِح الباب مجدّدًا وإذا بالعجوز الضئيلة قد عادت بصحبة رجلٍ أعمى، أسنّ منها. لم يسبق لإيليّا أن لمح الرجل، هو أيضًا، في البلدة. كان ضامر الجسم نحيلاً، قصير القامة كالمرأة العجوز. انتحى ركنًا وأخرج من جعبته طبلة. ثمّ راح العجوزان يُنشدان أهازيج الترنتيلاّ القديمة الخاصّة ببلادِ الشمس. واستسلم إيليّا لإيقاع تلك الأهازيج العتيقة التي تحكي جنون الرجال ولسع النساء. كان صوت المرأة العجوز مختلفًا إذ بات أشبه بصوت العذارى الصادحِ الرخيم الذي ترتجّ لنبرته الجدران، وكان الرجل العجوز يضرب الأرضيّة بعقبيه ناقرًا الطبلة بأصابعه، مُصاحبًا غناء المرأة بصوته. سكب إيليّا قدحًا آخر. بدا له أنّ طعم الشراب قد تغيّر. لم يعد عصير حصباء بل نثار شمس (Solleone). «الشمس الأسد»، نجم شهور الصيف الطاغي. كانت نكهة

الشراب هي نكهة العرق المتصبّب من ظهور الرجال وهم يعملون في الحقول. نكهة قلب السحليّة الخافقِ بجنون على الصخر. نكهة الأرض التي تنفلق وتتشقّق متلهّفةً لقطرة ماء. «الشمس الأسد» وما في سلطانه من بأسٍ عنيد، ذاك هو الطعم الذي بقيَ في فَمِ إيليّا.

انتقلت العجوز إلى وسط الحجرة حيث شرعت في الرقص، ودعت إيليّا للانضمام إليها. شربَ قدحًا خامسًا ونهض. شرعا يرقصان، على وقعِ الأهازيج، رقصة العنكبوت. كانت الموسيقى تتردّد صادحةً في رأس إيليّا، كأنّ فرقةً من عشرة عازفين تجمّعوا في الحجرة، فيما الغناء يصدح ثمّ يخفت في جسمِه كلّه. ويفهم معناه العميق. ألمّ به دوارٌ، وراح العرق يتصبّب من ظهره. شعر بأنّ حياته كلّها تواصل جريانها عند قدميه، وراحت العجوز التي بدت، قبل هنيهات، متعبة متباطئة، تقفز راقصةً من حوله. متنقّلةً، هنا وهناك وهنالك. تحوطه. لا تفارقه عيناها. وتبتسم له من أعماقِ شيخوختها الدميمة. أدرك فجأة حقيقة الأمر. بلى. أدرك الآن حقيقة الأمر. والحمّى في دمه. تلك العجوز التي تضحكُ من فمِها الأدرد، هي سحنة القَدَر الذي غالبًا ما سخر منه. كانت هناك بحمّاها وصخبها. أغمض عينيه. لم يقلّد حركات العجوز، بل رقص بمفرده. الموسيقى، بتكرارها العنيد، أشاعت السعادة في نفسه. وكان ذاك الغناء الشاكي العتيق يُنبئه بالحقيقة الوحيدة التي قيضَ له أن يسمعها. الترنتيلاّ مَلَكت كيانه كلّه كما تملك الأرواح الضالّة. وبات يشعر بأنّه يمتلك قوةَ عملاق. وبأنّ العالم كلّه بمتناوله. بأنّه «فولكان» في غارِه المُحَمَّى. كلّ خطوة من خطواته تقدحُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شررًا. وفجأة، سمعَ صوتًا يكتنفُ كيانه. كان صوت العجوز، أو ربّما صوت الموسيقى. أو صوت الشراب. سمع صوتًا يردّد العبارة نفسها. تكرارًا. على إيقاع الموسيقى:

«هيّا اذهب، أيّها الرجل، اذهب، الترنتيلاّ تصحبُكَ، وافعل ما ينبغي لك أن تفعل».

استدار إيليّا نحوَ الباب، وفوجئ إذ ألفاهُ مفتوحًا. لم يفكّر في الالتفات نحو العجوزين. كانت الموسيقى قد امتزجت بكيانه، صادحةً في أعماقِه بقوّة المواكب السحيقة.

غادر منزل العجوز سائرًا في أزقّة البلدة القديمة، كالممسوس. كانت الساعة الرابعة فجرًا، ونامَ الجميع حتّى وطاويط الليل.

لم يخطّط للأمر، لكنّه ألفى نفسه فجأةً أمام دكّان التبغ، عند الباحة. دمه محموم وجسمه يتصبّب عرقًا. دوارٌ يجعل الدنيا تدور من حوله، وفي أذنيه تتردّد ضحكة العجوز. دفعته حمّى الترنتيلاّ، التي تعصر قلبه وتمصّ دمَه، إلى دخول الدكّان فمخزن البضائع حيث أضرم النار بصندوق سجائر. ثمّ، غير آبه بالنيران المشتعلة، غادر الدكّان ووقف على الرصيف المقابل مُستَمتعًا بتأمّل المنظر. اشتدّت النيران بسرعة، وتصاعد دخان كثيف من المخزن. ولم تلبث النيران أن امتدّت إلى الكونتوار. من حيث وقف إيليّا بدا الأمر للوهلة الأولى كأنّ أحدًا ما أشعل نور الكهرباء. ثمّ لم يلبث ذاك النور أن مالَ إلى وهج برتقالي وتطاولت ألسنة اللهب ملتهمةً الجدران متراقصةً ظَفَرًا. صاح

إيليّا كالمعتوه واستغرق في الضحك. كانت روح آل مسكالزوني قد تملّكته فأطلق ضحكات الحقد والتدمير تلك التي طالما تناقلتها سلالته بالوراثة جيلاً بعد جيل. بلى. ليحترق كلّ شيء. إلى الجحيم. السجائر والمال. حياته وروحه. ليحترق كلّ شيء. كان يضحكُ مقهقهًا ويرقص في ضوء الحريق الجحيميّ على إيقاعِ الترنتيلاّ المجنون.

استيقظ الجيران على وجيب المحرقة ورائحة اللهب، وهرعوا إلى الشارع. سألوا إيليّا مستفسرين، ولمّا امتنعَ هذا الأخير عن الإجابة متحصّنًا وراء نظرته الفارغة كمجنون أو أبله، استنتج الناس أنّه مجرّد حادث. فكيف لأحدهم أن يظنّ، لحظة واحدة، بأنّ إيليّا هو من أضرم النار في دكّانه؟ انقسموا جماعاتٍ وهرعوا لإحضار المطافئ. وسرعان ما تجمهر الناس في الشارع. في الأثناء، جاءت كارميلاّ، ممتقعة الوجه، مشعّثة الشعر. كانت ساهيةً لا تفارق عيناها منظر الحريق. وحين شاهد الناسُ المرأة المسكينة مترنّحةً على الرصيف، أدركوا جميعًا أنّ الأمر يتعدّى احتراق دكّان، بل هو احتراق حياة وميراث أسرةٍ بأكملها. بدت الوجوه واجمةً كأنّما تشهد كارثة طبيعيّة هائلة. وفي آخر الأمر اصطحبَ بعض الجيران كارميلاّ لإبعادها عن منظر الحريق المؤلم. فلن ينوبها من البقاء هناك إلاّ العذاب الذي لا يجدي نفعًا.

عندما رأى أمّه ثابَ إيليّا إلى رشده، وأعقبَ حبورَه أسى شديد. وراح يصيح مخاطبًا المحتشدين بقوله:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«هل تشتمّون الرائحة؟ هل تشتمّون رائحة الدخان؟ إنّها رائحة عرق أمّي. ألا تشمّونها؟ وعرق إخوانها أيضًا».

أخيرًا، تمكّن أهل مونتيبوتشيو من السيطرة على النيران. ولم يمتدّ الحريق إلى منازل مجاورة، غير أنّه لم يبق شيئًا من دكّان التبغ. بدا إيليّا محطّمًا كسير النفس، إذ خبا سحر النيران الفاتنة، ولم يبقَ إلاّ المنظر الكئيب: حجارة يتصاعد منها دخان أسود خانق. كان جالسًا على الرصيف، وقد سكتَ إيقاع الترنتيلاّ في رأسه، متأمّلاً سحبَ الدخان، مذهولاً.

كان أهل مونتيبوتشيو يغادرون موقع الحادثة جماعاتٍ، عندما أطلّت ماريّا كارمينيلاّ. أطلّت في ثياب النوم، وشعرها الأسود يغطّي كتفيها. شاهدها قادمة كأنّها طيف، وتقدّمت مباشرةً نحوه. نهض بمشقّة مستعينًا بما تبقّى له من قوّة. أعياه النطق. فأشار بإصبعه إلى دكّان التبغ المحترق. تبسّمت له كما لم تفعل من قَبْل وهمست قائلةً:

«ماذا جرى؟»

لبثَ إيليّا صامتًا.

«هل احترق كلّ شيء؟ ألحّت بسؤالها.

ـ كلّ شيء، أجاب قائلاً.

ـ والآن هل تبقّى لديك ما تقدّمه لي؟

ـ لا.

ـ حسنا إذًا، أردفت ماريّا قائلة. أنا لكَ إذا كنت تريدني».

الأيّام التي أعقبت الحريق كانت أيّام رمادٍ وكدّ. إذ تعيّن رفع الأنقاض وتنظيف الدكّان وإنقاذ ما أمكن إنقاذه. عملٌ شاقّ يستنفد أشدّ الرجال همّةً وعزمًا. كان منظر الأضرار وحده يُحبط الهِمم. الجدران السود والردم الذي يغطّي الأرضيّة وصناديق السجائر المتفحّمة، تجعل الدكّان أشبه بمدينة مهدّمة على أثرِ معركة طاحنة. غير أنّ إيليّا تجاوز المحنة بعناد، ولم تترك، في الظاهر، أثرًا سيّئًا عليه. الحقيقة أنّ حبّ ماريّا محا كلّ شيء. كان محور تفكيره. أمّا دكّان التبغ ففي في المرتبة الثانية. ألفى المرأة التي طالما اشتهاها بجانبِه، وما عاد يُبالي بالأمور الأخرى.

ماريّا وفّت تمامًا بما وعدت به. إذ انتقلت للإقامة في منزل إيليّا. وغداة الحريق، فيما كانا يحتسيان القهوة، صارحها إيليّا بقوله:

«لم أنم الليلة، يا ماريّا. وليس الحريق ما يؤرقني. سنتزوّج. وأنت تعلمين أنّ والدك أوسع ثراءً ممّا قد أحلم يومًا أن أكون. فهل تعلمين ماذا سيقول الناس؟ سيُقال إنّني تزوّجتك طمعًا بمال والدك.

ـ لا أبالي بكلام الناس، أجابت ماريّا بنبرة هادئة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ وأنا أيضًا. لكنّ خشيتي من ذاتي، أنا، أولاً».

رمقت ماريّا رجلَها بنظرات حائرة. لم تفهم مغزى كلامه.

«أعلمُ جيّدًا إلى ما سيؤول كلّ هذا، تابع قائلاً. سأتزوّجك. فيعرض عليّ والدك أن أتولّى إدارة فندق «ترامونتاني». أقْبَل. وأقضي أوقاتي بعد ظهر كلّ يوم من أيّام الصيف وأنا ألعب بالورق مع أصدقائي، بقرب حوض السباحة. لم أخلق لمثل هذه الحياة. آل سكورتا لم يخلقوا لحياة مثل هذه.

ـ أنت لست من آل سكورتا.

ـ بلى يا ماريّا. أنتمي إلى آل سكورتا أكثر من انتمائي إلى آل مانوزيو. أشعر بذلك. صدّقيني. لقد ورثت عن أمّي دم آل مسكالزوني الأسود. أنا من آل سكورتا. أضرم النار بما أحبّ. وسوف ترين، سأضرم النار في فندق «ترامونتاني»، إذا امتلكته ذات يوم.

ـ هل أضرمت النار في دكّان التبغ؟

ـ أجل».

لزِمت ماريّا الصمت لبرهة. ثمّ أردفت قائلة برفق:

«من أجل ماذا خُلِقَ آل سكورتا؟

ـ من أجل عرق الكدّ»، أجاب إيليّا قائلاً.

ساد صمتٌ مطبق بينهما لبعض الوقت. كانت ماريّا تمعن التفكير في معنى كلّ هذا. كأنّها ترى أمام عينيها شريط أحداث الأعوام المقبلة. كانت ماثلة في ذهنها الحياة التي يريد إيليّا أن

تشاطره أيّامها، ثمّ ابتسمت له، بحنان، وبنبرة متفاخرة لا تخلو من حبور، أجابت:

«عرق الكدّ، فليكن ما تريد.»

كان إيليّا متجهّمًا رصين النبرة. وبغية التثبّت أخيرًا من أنّ امرأته قد فهمت جيّدًا معنى كلامه. قال:

«لن نطلب شيئًا من أحد، ولن نقبل هبةً من أحد. سنكون وحدنا، أنت وأنا. لا أملك ما أقدّمه لك. أنا كافر.

ـ ينبغي لنا أوّلاً، أجابت قائلةً، أن نعمل على تنظيف وترميم دكّان التبغ لكي نتمكّن من تخزين البضائع فيه.

ـ لا، قال إيليّا متبسّمًا برفق. ينبغي لنا أن نعقد قراننا».

أقيم حفل الزفاف بعد ذلك بأسابيع قليلة. وبارك دون سالفاتوري قرانهما. ثمّ دعا إيليّا كلّ المدعوين إلى «**المنصّة**» حيث أقام وليمة عامرة. كان ميكيلي، ابن رفايلي، قد أعدّ مائدة ضخمة بين الشباك وبكرات الروافع. أفراد العائلة، كلّهم، هناك. جرى الاحتفال بتلقائيّة وبهجة. كان الطعامُ وفيرًا. في الختام، نهض دوناتو، هادئًا ومتبسّمًا، وبعد أن أمرهم بالصمت، تكلّم قائلاً:

«أخي، لقد تزوّجت اليوم. أراكَ، قبالتي، مرتديًا بدلة العرس. تنحني على عنق زوجتك لتسرّ إليها بأمرٍ ما. وأراك رافعًا كأسكَ نخبَ ضيوفِك، وأراك جميلاً. جمال البساطة والبهجة. لا أسأل الحياة إلاّ أن تبقيكما على حالكما، كما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أنتما، فَتيّين، مُفعمَين شهوةً وقوّة. وأن تجتازا بحرَ السنين من دون عناء. وألاّ تواجهكما الحياة بما ينغّصُ وهي فيها منه الكثير. أتطلّع إليكما اليوم. وأحدّق بنهم الظمآن. عندما يُكتَب لي أن أكابد قسوة الزمان، أن أبكي حزنًا على قَدَري، عندما ألعن الحياة الكلبة، سوف أذكر هذه اللحظات، سوف أذكر وجهيكما المشرقين بالبهجة وأقول في سرّي: لا تلعن الحياة، ولا تشتم القَدَر، واذكر إيليّا وماريّا وسعادتهما، ليوم على الأقلّ، في حياتهما، وفي ذلك اليوم كنتَ، أنتَ، بقربهما».

عانق إيليّا أخاه بقوّة متأثّرًا بما قاله. فيما شرعت ابنتا عمه، لوكريسيا ونيكوليتا، بإنشادِ إحدى أغنيات البوليا التي تردّدها النساء:

«Aie aie aie, Domani non mi importa per niente, Questa notte devi morire con me»[1].

أضحكت الأغنية جميع الحاضرين. واستسلم آل سكورتا لساعاتِ الهناءة، وطالت الأمسيّة على ذلك النحو، مصحوبةً ببهجة نبيذ الصيف العذب.

(١) «آخ، آخ، آخ، لا أبالي بالغد، فقدرك أن تموت معي الليلة».

في غضون الأشهر التالية، شهدت مونتيبوتشيو ظاهرةً غريبة. إذ عرفت البلدة، منذ نهاية الخمسينات، افتتاح دكّانين لبيع التبغ: أحدهما ملك لآل سكورتا والثاني ملك لعائلة أخرى. كانت العلاقة بين العائلتين علاقة احترام وودّ. فالمجال يتسع للجميع ولم تؤدّ بهما المنافسة إلى أيّ شكل من أشكال العداء أو المواجهة، غير أنّ أجواء الوئام تلك لم تشمل نقاط البيع العشوائيّة الأخرى التي ارتجلت في مخيّمات السيّاح والفنادق والمنتجعات والملاهي الليليّة. كان البيع في تلك النقاط يقتصر، في معظم الأحيان، على أعدادٍ قليلة من علب السجائر تسهيلاً لإقامة الزبائن وحرصًا على راحتهم، ومع ذلك كان يسبّب أحيانًا حالاً من الفوضى العارمة ويضرّ بمصالح نقاط البيع المعتمدة.

لم يكن إيليّا وماريّا يملكان المال اللازم لترميم الدكّان وافتتاحه مجدّدًا. لذلك عمدا في البداية إلى بيع السجائر كما يفعل الباعة الجوّالون.

غير أنّ أغرب ما شهدته القرية هو أنّ أهلها رفضوا شراء السجائر من مكان آخر. كان السيّاح يراقبون بدهشةٍ، كلّ يوم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أحد، صفّ المنتظرين الطويل أمام أقذر دكاكين الباحة وأفقرها. لا لافتة ولا كونتوار ولا آلة حاسبة. أربعة جدران. كرسيّان وصناديق سجائر، مكدّسة سويّة الأرضية، يستخرجُ إيليّا الرزمَ منها ملء ذراعيه. في أمسيات الصيف، كان يبيع بضاعته على الرصيف، فيما تنهمك ماريّا، في الداخل، بغسلِ الجدران. وبرغم ذلك كان أهل مونتيبوتشيو يقفون في صفّ طويل أمام دكّانهما. حتّى عندما يقول لهم إيليّا إنّ الصنفَ الذي يطلبونه غير متوافر (نظرًا لاضطراره، بسبب قلّة ماله، إلى اختيار أصنافٍ بعينها)، كانوا يضحكون قائلين: «سنكتفي بالصنف المتوافر!» حاملين بأيديهم محافظ نقودهم.

كان دون سالفاتوري وراء بادرة التضامن تلك. فهو الذي دأب على دعوةِ المصلّين خلال القدّاس، يومًا بعد يوم، إلى التكافل فيما بينهم. وفاقت النتائج كلّ توقّعاته.

لاحظ بسرور بالغ أنّ دعواته إلى التآخي لاقت تجاوبًا، وعندما مرّ ذات يوم من أمام الدكّان واسترعت انتباهه اللافتة المثبّتة مجدّدًا فوق الباب، غمغم في سرّه قائلاً:

«يبدو لي أنّ بعضَ هؤلاء السفلة لن يذهب إلى النار حتمًا».

وبالفعل كانت اللافتة المضيئة قد وصلت من فوجيا في اليوم نفسه. وعليها كتب بالخط العريض: Tabaccheria Scorta Mascalzone Rivendita numero 1. في نظرِ من لم يلق بالاً، بدت اللافتة مطابقةً للافتة السابقة بحذافيرها. اللافتة التي كان آل سكورتا، في صباهم، قد علّقوها فوق باب دكّانهم لدى افتتاحه أوّل مرّة بكثير من الافتخار. أمّا إيليّا، فكان يعلم يقينًا

أنّها مختلفة، وأنّها علامة ميثاق جديد بينه وبين دكّان التبغ. كما كان أهل مونتيبوتشيو يعلمون ذلك، ويتطلّعون إلى الواجهة الزجاجيّة بفخرٍ ضمنيّ، ليقينهم أنّهم أسهموا، قليلاً، في إحياء ذلك المكان من جديد.

عاشَ إيليّا، في تلك الفترة، انقلابًا حاسمًا في مشاعره وأحاسيسه. فللمرّة الأولى في حياته، انصرف إلى العمل بغبطة بالغة. كانت الظروف شديدة القسوة. ويتعيَّن القيام بأعباء لا تُحصى. غير أنّ شيئًا ما تغيّر، إذ لم يعد وارث المُلكِ، بل أصبح، هو، باني المُلك. لم يعد قيّمًا على إدارة ما ورثه عن أمّه، بل بات يكدّ ويشقى لكي يوفّر بعض الرخاء والسعادة لزوجته. استعاد في دكّان التبغ تلك الغبطة التي طالما أبدتها أمّه خلال عملها فيه. وبات يتفهّم ذلك الجنون وذلك الهوس اللذين كانا يصاحبان حديثها عن دكّانها. ينبغي القيام بأعباء كثيرة، ولكي ينجزها، عليه أن يجتهد. أجل. إذ لم تبد حياته من قبل بمثل ذاك الامتلاء.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غالبًا ما يستغرقني التأمّل في حياتي، يا دون سالفاتوري. ما مغزى كلّ ذلك؟ لقد صرفتُ أعوامًا في بناء دكّان التبغ، ليلَ نهار. وعندما أنجزتُ بناءه، وصرتُ أخيرًا قادرة على منحِه لأبنائي، مطمئنّة البال، جرى هدمه. هل تذكر الحريق جيّدًا؟ احترق كلّ شيء. بكيتُ من غِلّي. كلّ شقائي، كلّ ليالي الكدّ مجتمعةً. حادث بسيط، وذهب كلّ شيء أدراجَ الرياح. لم أكن أحسب أنّني سأقوى على العيش من بعدِه. وأعلم أنّ أهل القرية جميعًا حسبوا حسباني. كارميلاّ العجوز لن تعمّر طويلاً بعد احتراق الدكّان. ومع ذلك بقيتُ. أجل. صمدتُ بثبات. انصرف إيليّا إلى ترميم ما تضرّر، بصبرٍ. وكان حسنًا ما أنجزه. لم يعد الدكّان، بعد الترميم، كما كان دكّاني أنا، غير أنّ ما أنجزه كان حسنًا. أبنائي. تشبّثتُ بأبنائي. ولكنّ الأمور انقلبت رأسًا على عقب. فُقِدَ دوناتو. ألعن البحر كلّ يوم لأنّه اختطفه منّي. دوناتو. ما مغزى كلّ ذلك؟ أكثر من حياة، بُنِيَت برويّةٍ، بصبرٍ، بعزمٍ وتفانٍ، أكثر من حياة قصَفَتْها ريحُ الشقاء، أكثر من وعدٍ بالبهجة راودها كحلم ثمّ تمزّق. هل تدري ما الذي يدعو إلى العَجَب في هذا الخضمّ، يا دون سالفاتوري؟ سأقول لك. ذلك أنّ لا الحريق ولا اختفاء دوناتو، قد قرّبا أجَلي. أيّ أمّ سواي كانت لتفقد عقلها، أو كانت لتستسلم للموت. لا أدري

من أيّ طينٍ صُنِعتُ. إنّي صلبة. وصمدتُ. على الرّغم منّي، ومن تفكيري. الأمر أقوى منّي. ثمّةَ فيّ ما يتشبّثُ بالحياة ويصمد. أجل. إنّي صلبة.

بعد دفن جيوسيبّي قرّرتُ أن ألزم الصمت. كنت ألزم الصمت ساعاتٍ بأكملها، ثمّ أيامًا. وأنتَ تعلم ذلك، ففي تلك الفترة جئت للإقامة بيننا. في البداية قوبلت بدعة الصمتِ بشيء من الفضول من قبل أهل القريّة. كانوا يميلون إلى تأويل صمتي على أكثر من وجه. وبعد ذلك تعوّدوا عليه. وصرتم جميعًا تحسبون بأنّني لم أنطق يومًا. كنت أشعر بأنّني بعيدة عن العالم. وهنت قواي. وبدا لي أنّ لا جدوى من أيّ شيء. كانت القرية تعتقد أنّ كارميلاّ من دون آل سكورتا هي لا شيء، وأنّها تفضّل أن تهجر الحياة إذا قيض لها أن تواصلها من دون إخوانها. كانوا مخطئين يا دون سالفاتوري. شأنهم على الدوام. أمر آخر أسكتني طيلة هذه الأعوام. أمر آخر لم أبح به من قبل.

بمضيّ أيام قليلة على دفن جيوسيبي، جاء رفايلي لزيارتي. كان الطقس جميلاً. لاحظت على الفور أنّ نظراته صافية كأنّه غسل عينيه بماء عذب. وابتسامته تنمّ عن تصميم. استمعت إليه. تكلّم طويلاً. ولم يُغضِ لحظةً واحدة. تكلّم كثيرًا وطويلاً ومازلت أذكر كلّ كلمة نطق بها. قال إنّه من آل سكورتا، وإنّه قبل هذا الاسم بفخرٍ كبير. لكنّه قال أيضًا إنّه يلعن نفسَه كلّ ليلة. لم أفهم ما القصد من كلامه، غير أنّني شعرتُ بأنّ كلّ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شيء سينهار. لم أحرّك ساكنًا. وأصغيت. تدارك أنفاسَه قليلاً ثم تابع كلامه لا يلوي على شيء. قال إنّه يوم دفن الخرساء بكى مرّتين. الأولى، في المقبرة، أمامنا. فقد بكى عندها تأثّرًا وتقديرًا للشرف الذي منحناه إيّاه، بحسبه، عندما طلبنا منه أن يكون أخًا لنا. والثانية، مساءً، في فراشه. كان يبكي وهو يعضّ وسادته لكي لا يُصدر صوتًا. كان يبكي لأنّه بقبوله اقتراحنا، بجعله أخًا لنا، صار أيضًا أخًا لي. وليس هذا هو حلمه الذي طالما راوده. ثمّ سكت هنيهات. وكم صلّيتُ عندها أن يتوقّف عن الكلام. ألاّ يقول المزيد. كنت لا أريد أن أسمع شيئًا. كنت أريد أن أغادر على الفور. غير أنّه أردف قائلاً: «لطالما أحببتك.» هذا ما قاله. هكذا. محدّقًا في عينيّ بهدوء بالغ. غير أنّه في ذلك اليوم كان أخي وأقسم أن يتصرّف على هذا الأساس. وقال لي إنّ تلك الصلة أتاحت له أن يقضي حياته بقربي. عجزت عن النطق. وشعرتُ بأنّ الدنيا تدور من حولي. وتابع كلامه، قائلاً إنّه في بعض الأيّام يلعن نفسه ككلبٍ، لأنّه لم يقل لا في المقبرة. كان بوسعه أن يقول لا رافضًا حكاية الأخوة تلك، وأن يطلب يدي للزواج على قبر أمّي. لكنّه لم يجرؤ. قال أجل. وأمسك بالمعزقة التي أعطيناه إيّاها. أصبح أخانا. «قلتُ نعم بدافع الحنان»، قال. وأردف: «أنا من آل سكورتا، يا كارميلاّ، لذلك أجدني عاجزًا عن القولِ إذا كنتُ نادمًا على ما فعلت أم لا».

تحدّث إليّ وعيناه لم تفارقا عينيّ. وشعرتُ بأنّه كان يتوقّع أن أتحدّث إليه بدوري. فلَزِمتُ الصمت. وشعرتُ بانتظاره يطوّقني من كلّ صوب. لم أرتعد. كنت خاوية من الداخل.

ولم أقوَ على النطق بشيء، ولا حتّى كلمة. لا شيء في داخلي. خواء. فنظرتُ إليه. وانقضى الوقت. كنّا جالسين وجهًا لوجه. وأيقن أخيرًا أنّني لن أتكلم. تريّث قليلاً. كان في أعماقه يتمنّى أن أفعل. ثمّ نهضَ متمهّلاً وافترقنا. لم أنطق بكلمة، وتركته يغادر.

منذ ذلك اليوم لَزِمتُ صمتًا مطبقًا. التقينا في اليوم التالي وتظاهرنا بأنّ شيئًا لم يكن. استأنفت الحياة مجراها. سوى أنّي امتنعت عن الكلام. شيء ما، في أعماق نفسي، قد تحطّم. فما كان بوسعي أن أقول له، يا دون سالفاتوري؟ حياتنا انقضت، وصرنا عجوزين. فبماذا أجيب؟ أن نبدأ حياتنا من جديد، يا دون سالفاتوري. كنت جبانة. أن نبدأ حياتنا من جديد، لكنّ الأعوامَ انقضت وانتهى الأمر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

VIII

غَوصُ الشمس

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لمّا شعر رفايلي بأنّ الأجلَ وشيك، استدعى ابن أخته. جاءه دوناتو ولبثا صامتين لبعض الوقت. كان العجوز متردّدًا يرقبُ دوناتو محتسيًا، على مهل، قدح الكمباري الذي قدّمه له. كاد أن يصرف النظر عن الأمر برمّته، لكنّه، في آخر المطاف، وبرغم خشيته ممّا ستطالعه به عينا ابن أخته من نظرات النفور أو الغضب، بادر إلى الكلام بقولِه:

«يا دوناتو، هل تعلم لِمَ أنا خالك؟

ـ أجل، يا خالي، أجاب دوناتو.

ـ لقد أخبروك كيف قرّرنا أن نكون إخوة، يومَ ساعدت خالَيْك، ميمي وبيبّي، في دفن الخرساء.

ـ أجل يا خالي، ردّد دوناتو قائلاً.

ـ وكيف تخلّيتُ، بدوري، عن اسم عائلتي، الذي لا يُعتدّ به، لأحمل اسم سكورتا.

ـ أجل، يا خالي، أخبروني».

سكتَ رفايلي هنيهة. لقد حان الوقت. لم يعد خائفًا، بل بات متلهّفًا لإزالة الحِملِ الثقيل عن صدرِه.

«ثمّة جريمة أودّ الاعتراف بأنّني ارتكبتها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ أيّ جريمة؟ سأل الفتى.

ـ قبل سنواتٍ بعيدة، قتلتُ رجلَ دين. دون كارلو بوتزوني. كاهن مونتيبوتشيو. كان رجلاً دنيئًا غير أنّني أهلكتُ نفسي بقتله.

ـ ولِمَ قتلته؟ سأل دوناتو مشدوهًا لما سمعه من فمِ ذلك الرجل، الذي طالما اعتبره أرقّ أخواله.

ـ لا أدري، أجاب رفايلي مغمغمًا. احتدمَ الموقفُ فجأة. كنتُ أكتمُ في صدري قدرًا هائلاً من الغضب. فغلبني الغضبُ فجأةً.

ـ لماذا كنت تشعر بالغضب؟

ـ أنا جبان، يا دوناتو. لا ترمقني بهذه النظرات. صدّقني، أنا جبان. لم أجرؤ على طلبِ ما كنت أشتهي. ولذلك اعتمل الغضبُ في صدري. ولذلك احتدمَ فجأةً في وجه ذلك الكاهن الأحمق الذي لا قدْرَ له بين الناس ولا قيمة.

ـ عمَّن تتكلّم؟

ـ عن أمّك.

ـ أمّي؟

ـ لم أجرؤ يومًا أن أسألها الزواج منّي».

لبث دوناتو مشدوهًا.

«لِمَ تخبرني بكل ذلك، يا خالي؟ سأله.

ـ لأنّني موشك على الموت، وكلّ شيء سيموت معي. أودّ أن أسرّ لأحد ما بما كتمته في صدري، طوال العمر».

سكت رفايلي. ولم يدر دوناتو ماذا يقول. تساءل، للحظةٍ، إذا كان ينبغي له أن يواسي خاله أو أن يبدي له شيئًا من اللوم. يشعر بالخواء التامّ والدهشة. لم يبقَ ما يُقال. وخاله لا ينتظر أيّ ردّ. لقد تكلّم لكي يفصح عمّا بنفسِه لا طلبًا لمشورة أحد. وخالج دوناتو الشعور بأنّ تلك المحادثة ستغيّر حياته. نهض، مبديًا بعض الحَرَج. رمقه الخال بنظرةٍ متأنّية، فشعر دوناتو بأنّ العجوز يكاد أن يعتذر لأنّه اعترف له بأسراره. كأنّه يؤثِر أن تُدفَنَ قصصه القديمة معه. تعانقا بحرارة وافترقا.

توفي رفايلي بعد ذلك بأيّام معدودة، على شباكه، وسط المنصّة، مفترشًا هدير البحر، هانئًا. ويوم دفنه، حُمِلَ نعشه على أكفّ ابنه ميكيلي، وأبناء إخوته الثلاثة، فيتوريو وإيليّا ودوناتو. كانت كارميلاّ هناك. واجمة. منتصبة القامة. لم تبكِ. ولمّا ساروا بالنعش من أمامها، رفعت يدها إلى فمها وطبعت قبلةً على خشب النعش ـ ما جعل رفايلي يبتسم في موته.

سرى انطباعٌ بين أهل القرية، لدى رؤيتهم النعش وموكب الجنازة، بأنّهم يشهدون نهاية عصر. إذ لم يكن رفايلي هو الذي يُشيّع في تلك اللحظة، بل عائلة سكورتا مسكالزوني بأسرها. كانوا يشيّعون العالم القديم، ذاك الذي شهد الملاريا والحربين العالميّتين، الذي شهد الهجرة والبؤس. كانوا يشيّعون الذكريات القديمة. البشر هباء ولا يخلّفون أثرًا. كان رفايلي يرحل عن مونتيبوتشيو والرجال، على الجانبين، يرفعون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قبّعاتهم ويحنون رؤوسهم، مُدركين أنّهم راحلون، بدورهم، وأنّ رحيلهم لن يُبكّي أشجار الزيتون.

كانت اعترافات الخال قد زلزَلَت عالَمَ دوناتيو. بات ينظر إلى الحياة من حوله بسَقَم بادٍ في عينيه. كان كلّ شيء يبدو في نظره مزيّفًا. وبدا له تأريخ عائلته سلسلةً بائسة من السيَر الخائبة. من الرجال والنساء الذين لم يحظوا بالحياة التي يريدون. خاله لم يجرؤ، طوال حياته، على التصريح بما يعتمل في صدره. فكم من الخيبات الأخرى بقيت طيّ الكتمان في تاريخ العائلة؟ استبدّت به كآبة غامرة. وبات يضيق بالعلاقات بين الناس. لم يبق له إلاّ التهريب. فانصرف إليه زاهدًا فيما عداه. بات يعيش على متن زورقه. لم يكن بوسعه أن يكون غير ذلك: مهرّب. سيّان عنده تهريب السجائر أو المجوهرات أو الكحول أو أكياس الورق المبتذلة، أو أيّ صنفٍ من البضائع الأخرى، فالمهمّ أن يقوم بتلك الرحلات الليليّة، أن ينعم بهنيهات الصمتِ الشاسع والتيهِ البحري.

عند المساء يُبحر، فيبدأ الليل. يبلغ جزيرة مونتيفوسكو، وهي جزيرة صغيرة في عرض البحر قبالة الشاطئ الإيطالي، ومركز أعمال التهريب بمختلف أنواعه. هناك، يفرّغ الألبانيّون شحناتهم المسروقة وتجري عمليّات التبادل. وفي طريق عودته

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يكون زورقه محمّلاً بصناديق السجائر. يُناور في مساره الليلي هربًا من زوارق الجمارك، ويبقى مبتسمًا، ليقينه بأنّه الأفضل، وبأنّ أحدًا لن يتمكّن من الإيقاع به.

كان أحيانًا يصل إلى شواطئ ألبانيا، مستبدلاً زورقه بقارب أكبر حجمًا. ولكن، في قرارة نفسه، لم تكن الرحلات الطويلة هي ما يستهويه. لا. فما كان يستهويه حقًّا هو الإبحار بزورقه على طولِ خطّ الشاطئ، من جُون إلى جُون، كما يتسلّل القطّ بمحاذاة حائط، تحتَ جُنحِ المخالفات العذبة.

كان يبحر في مياه الخضمّ، بصمت، مستلقيًا على الألواح في مؤخّر القارب، مهتديًا بالكواكب. وفي تلك اللحظات يشعر بأنّه لا شيء. ينسى نفسَه. لا أحد يعرفه. ولا أحد يتكلّم. مجرّد نقطة تائهة على صفحة المياه. زورق ضئيل من الخشب المُتمايل فوق المياه. يشعر بأنّه لا شيء ويستسلم للعالم الذي يتسرّبُ إلى داخله. لقد تعلّم لغة البحر، وإرشادات الرياح، وهمس الموج.

لم يبق له سوى التهريب. يحتاج إلى السماء بِسِعتها، مرقّشة بالنجوم البليلة، لكي يروي ظمأه. لم يكن يطلب لنفسِه شيئًا من أحد. ورجاؤه أن يُترَك وشأنه مبحرًا في المياه مخلّفًا هموم العالمِ وراءه.

شعرَ بأنّ الأمور ليست كالمعتاد. كان دوناتو قد أرسى زورقه في الجون الصغير في جزيرة مونتيفوسكو، عند الواحدة بعد منتصف الليل. غير أنّه لم يجد أحدًا تحت شجرة التين حيث اعتاد رامينوتشيو أن ينتظره بصناديق السجائر المهرّبة.

علا صوت رامينوتشيو في هدأة الليل مناديًا بما يشبه الصراخ والهمسِ معًا: «دوناتو، مِن هنا!»

شعر بأنّ الأمور ليست كالمعتاد. تسلّق المنحدرَ متمهّلاً، وسط الحصباء وشجيرات الصبّار، حتّى وصل إلى فتحةِ مغارة ضيّقة. كان رامينوتشيو واقفًا هناك وبيده مصباح جيب. ووراءه خيالان لشخصين جالسين فوق صخرة، صامتين لا يحرّكان ساكنًا.

رمق دوناتو رفيقه بنظرات مستفسِرة، فبادر إلى القولِ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

موضحًا:

«لا تقلق. كلّ شيء على ما يرام. لم أحمل لك سجائر اليوم، ولكنّني جئتك بما هو أفضل. سوف ترى. فيما يعنيك أنتَ، لم يتغيّر شيء. سوف تنزلهما في المكان المعتاد. وهناك يوافيك ماتيو لكي يتولّى أمرهما بحسب اتفاق مسبق. هل توافق؟»

وافق دوناتو بحركةٍ من رأسه. عندئذ دسّ رامينوتشيو رزمةً سميكة من المال في كفّه وهمس في أذنه متبسّمًا: «سوف ترى بنفسِك أنّ هذا العمل يدرّ عليك مالاً أكثر من تهريب السجائر بما لا يُقاس». لم يعدّ دوناتو المال، لكنّه أيقن، من وزن الرزمة، أنّها تحتوي على ثلاثة أو أربعة أمثال المبلغ المعتاد.

صعد الراكبان إلى متن الزورق بصمت. لم يحيّهما دوناتو. بل راح يجذّف مبتعدًا عن المرسى. الراكبان هما امرأة في الخامسة والعشرين تقريبًا، وبصحبتها ابنها الذي يتراوح عمره بين الثمانية والعشرة أعوام. أوّل الأمر بقي دوناتو منهمكًا بالمناورة لإبعاد الزورق عن الشاطئ، فلم يلتفت إليهما، حتّى غابَ الشاطئ عن الأنظار، وأصبحوا في عرض البحر. عندها أدار دوناتو المحرّك ولم يبق له إلاّ أن يلتفت إلى الراكبين. كان الولد قد أسند رأسه إلى ركبة أمّه منصرفًا إلى التأمّل في السماء. فيما استقامت المرأة في جلستها في حلّة جميلة. كان واضحًا من ملابسها ويديها القوّيتين الخشنتين، أنّها امرأة فقيرة، ولكنّ وجهها ينمّ عن كبرياء. بالكاد تجرّأ دوناتو على الكلام. فوجود تلك المرأة على متن زورقه فرضَ عليه بتصرّف بشيءٍ من الاستحياء.

«سيجارة؟» سألَها مادًّا يده بالعلبة. تبسّمت المرأة وقالت

«لا» بإيماءةٍ من يدها. فشعر دوناتو على الفور بأنّه أساء التصرّف. سيجارة. طبعًا لا تريد سجائر. فأشعل سيجارته وفكّر قليلاً ثمّ قال مجدّدًا، مشيرًا بإصبعِه إلى نحره:

«دوناتو. وأنتِ؟»

أجابته المرأة بنبرةٍ أرخت عذوبتها على ظلام الليل.

«ألبا».

تبسّم وردّد «ألبا، ألبا»، مرارًا، كأنّه يقول لها إنّه فهمَ جيّدًا، وإنّ اسمها جميل، ثمّ لم يدرِ ماذا يقول بعد، فلزِمَ الصمت.

لبث طوالَ الرحلة محدّقًا في وجه الولد الجميل، مُنتَبِها إلى الحنوّ في حركات أمّه التي غطّته بذراعيها لكي لا يُصاب بالبرد. أكثر ما أحبّ فيها هو صمتها. ومن دون أن يدري لماذا، خالجه شعورٌ بالافتخار. كان يقودهما بأمان إلى شواطئ غارغانو. ولن يتمكّن أيّ قاربٍ للجمارك أن يعثر عليهما. أليس هو أبرع المهرّبين وأوسعهم حيلة؟ كم كان يرغب البقاء على متن ذلك الزورق، برفقة المرأة وولدها، بعيدًا عن الشاطئ. في تلك الليلة، راودته تلك الأمنية، للمرّة الأولى. أن لا يعود. أن يبقى هناك مبحرًا. على أن يدوم الليلُ إلى الأبد. ليلٌ شاسعٌ يستغرق حياةً بأكملها، تحت النجوم، ورذاذ الملحِ يُعطّر البشرة. حياة ليليّة، يعيشها متنقّلاً، برفقة المرأة وولدها، من موضعٍ إلى موضعٍ على شاطئ الهجرة غير الشرعيّة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انقشعت السماء قليلاً. ولاحَ الشاطئ الإيطالي في البعيد. كانت الرابعة فجرًا، ورسا دوناتو بالزورقِ على مضض. ساعد المرأة في النزول، وحمل الولد، ثمّ استدار ملتفتًا إليها للمرّة الأخيرة، مغتبطًا، وقال لها «وداعًا»، وفي ظنّه أنّ العبارة تحملُ معاني كثيرة. فقد أراد أن يقول لها «بالتوفيق»، وإنّه استمتع برفقتها. وأراد أن يقول لها إنّها جميلة، وإنّه أحبّ صمتها، وإنّ ابنها ولدٌ صالح. وأراد أن يقول لها إنّه يودّ أن يلقاها مجدّدًا، وإنّه يرحّب بها على متن زورقه في أيّ وقت. غير أنّه لم يقل لها إلاّ «وداعًا»، بعينين مشرقتينِ سعادةً، مفعمتين بالأمل. كان واثقًا من أنّ المرأة ستفهمُ كلّ المعاني التي تنطوي عليها تلك العبارة البسيطة، غير أنّها ردّت تحيّته بمثلها وركبت السيّارة التي كانت تنتظرهما. في الأثناء كان ماتيو قد أوقف المحرّك واقترب من دوناتو ليسلّم عليه، تاركًا المرأة وابنها جالسين على المقعد الخلفيّ.

«هل جرت الأمور على خير ما يُرام؟ سأل ماتيو.

ـ أجل»، همس دوناتو قائلاً.

تطلّع إلى ماتيو، وبدا له أنّه يستطيع أن يطرح عليه الأسئلة التي حال ارتباكه دون أن يطرحها على رامينوتشيو.

«مَن هما؟ سأل.

ـ إنّهما مهاجران ألبانيّان.

ـ إلى أين وجهتهما؟

ـ إلى هنا، لبعض الوقت، وبعد ذلك يُنقلان بسيّارة شحن

إلى روما، ومن هناك إلى أيّ مكان في العالم: ألمانيا، فرنسا، إنكلترا.

ـ هي أيضًا؟ سأل دوناتو عاجزًا عن فهم الصلة التي تجمع بين المرأة وبين شبكات تهريب المهاجرين التي يتحدّث عنها ماتيو.

ـ إنّها تجارة مربحة، أكثر من السجائر، أليس كذلك؟ قال الرجل متغاضيًا عن الإجابة. «إنّهم مستعدّون لبذلِ كلّ ما يملكون من أجل هذا العبور. بإمكاننا أن نطلب منهم أيّ مبلغ تقريبًا، ولن يتردّدوا».

ضحك وربّت على كتف دوناتو، ثمّ حيّاه، وركب السيارة التي سرعان ما توارت مصحوبة بأزيز إطاراتها.

مكث دوناتو وحيدًا على الشاطئ. كانت الشمسُ تُشرِقُ بِهُوَيْنا الجلال الملكيّ. والمياه تلمعُ ببريق زهريّ. أخرج من جيبه رزمة المال وعدّ محتواها. مليونا لير. كانت تحتوي على ما يعادلُ المليوني لير من الأوراق النقديّة المدعوكة. وإذا أضيفت إلى المبلغ حصّة رامينوتشيو وماتيو وحصّة زعيم الشبكة، يكون مجموع ما توجّب على المرأة نحو ثمانية ملايين لير. فجأة استبدّ به شعورٌ عميق بالخجل. بالعار. وراح يضحك. تلك الضحكة الضارية الخاصّة بروكو مسكالزوني. كان يضحك كشيطان، لأنّه أيقن للتوّ أنّه سلب تلك المرأة كلّ ما تملك. كان يضحك مردّدًا في سرّه:

«أنا وحش. مليونان. لقد تقاضيت منها ومن ابنها مليونين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ورحت ابتسم لها، وأسألها عن اسمها، وظننتُ أنّها استمتعت بالرحلة. أنا اتعس تعساء البشر. أسرق مال امرأة، وأمصّ دمها، وبعد ذلك تدفعني وقاحتي إلى التحدّث إليها. إنّي فعلاً حفيد روكو. بلا ناموس. بلا خجل. لستُ أفضل من سواي. لا بل لعلّني الأسوأ. أسوأ من الأسوأ. ها قد أصبحت ثريًّا. في جيبي الآن كدّ وشقاء حياة بأكملها، ها أنا ذاهب إلى المقهى للاحتفال، سيشرب الجميع كأسًا على حسابي. كان ابنها يرمقني بعينيه الواسعتين فصوّرت لي أوهامي أنّني ألقّنه أسماء الكواكب وأصوات الرياح. عارٌ عليّ وعار على سلالة المنحطّين التي تحمل اسم السارق الذي هو اسمي».

منذ ذلك اليوم، لم يعد دوناتو كما كان. كأنّ غشاوة انسدلت على عينيه ولازمته حتّى مماته، كما تلازم الندبةُ الوجه حتى الممات.

راح دوناتو يغيب عن الأنظار لفتراتٍ طويلة ومتكرّرة. وغدت فتراتُ إبحاره أطول من المعتاد. أوغل في عزلته من دون كلام، ومن دون تردّد. كان يلتقي أحيانًا ميكيلي، ابن خاله رفايلي، لأنّه اعتاد النومَ في الحجرة التي تشبه الكهف عند المنصّة. رزق ميكيلي ابنًا سمّاه أميليو سكورتا. وكان أميليو هذا هو من أسرّ إليه دوناتو بأقواله الأخيرة. عندما بلغ الصبيّ عامه الثامن اصطحبه على زورقه، كما اصطحبه خالُه جيوسيبّي من قبل، في رحلة بحريّة على إيقاع الموج. غاصت الشمس في الخضمّ، مُنيرةً قممَ الموج بشعاعٍ ورديّ. لبث الصبيّ صامتًا طوال الرحلة. كان يحبّ خاله دوناتو لكنّه لا يجرؤ على طرح الأسئلة عليه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

آخر الأمر، استدار دوناتو ملتفتًا إلى الصغير وخاطبه بصوتٍ رقيقٍ وجادّ قائلاً:

«للنساء عيونٌ أوسع من النجوم».

وافق الولدُ من دون أن يفهم. غير أنّه لم ينسَ تلك العبارة مطلقًا. كان دوناتو يريد الوفاء بعهد آل سكورتا. أن ينقلَ إلى أحد أفراد العائلة خبرةً أو معرفةً. فكّر بالأمر مليًّا. وسأل نفسه مرارًا عمّا حصّله في حياته من معارف أو خبرات. ولم يجد إلاّ تجربة تلك اللّيلة بصحبة ألبا وابنها. عينا ألبا الواسعتان السوداوان اللتان غاص فيهما بمتعة بالغة. بلى، بدت له النجوم ضئيلة قياسًا بحدقتي تلك المرأة اللتين تنوّمان القمر نفسه.

كانت تلك هي الكلمات الأخيرة التي نطق بها. بعد ذلك لم يره أحد من آل سكورتا. لم يهتدِ إلى مرفأ. لم يبق منه سوى نقطة عائمة بين شاطئين، سوى زورق مبحرٍ في الليل. كفَّ عن نقل السجائر المهرّبة وصار مهرِّب مهاجرين لا يستخدم زورقه إلاّ لهذا الغرض. من الساحلِ الألباني إلى ساحلِ بوليا، ذهابًا وإيابًا، يحمّل غرباء وينقلهم إلى حيث الفرص المتاحة بالنجاح: شبّان هزيلون لشحّ الطعام يحدّقون بالساحل الإيطالي بعيون متلهّفة. شبّان ترتعد أيديهم متلهّفين للعمل. سيصلون إلى أرضٍ جديدة. وهناك يبيعون سواعدهم لمن يحتاج إليها، تُقصَمُ ظهورهم لفرط انحنائهم في قطاف مواسم الطماطم في مُلكيّات فوجيا الزراعيّة الكبرى، أو لطولِ انكبابهم، تحت نور المصابيح، في مشاغلِ نابولي المخالفة للقانون. سيعملون

كدوابّ، راضين باستنفاد آخر قطرة من عرقهم، متقبّلين نير الاستغلال وطغيان المال الجائر. يعلمون أنّهم سيتعرّضون لذلك كلّه، وأنّ أجسادهم الفتيّة سوف توسَم إلى الأبد بميسم العمل الذي لا يحتمله بشر، غير أنّهم يستعجلون الوصول. ودوناتو ينظر إلى وجوههم مشرقة فرحًا عندما يلوح الساحل الإيطالي من بعيد، وعيونهم لامعة بتلك اللهفة الكاسرة.

كان العالم يصبّ في زورقه. كأنّها مواسم. يرى أهلَ البلدان المنكوبة وافدين إليه. كأنّه يقيس نبض العالم. يرى الألبانيين والصينيين والنيجيريين. جميعهم يمرّون بزورقه. يرافقهم من ساحلٍ إلى آخر، في ذهابٍ وإيابٍ متواصلين. ولم تعترضه الجمارك الإيطاليّة مرّة واحدة. يُبحرُ في الخضمّ كسفينةٍ شبح، فارضًا على الناس الذين ينقلهم أن يلزموا الصمت فور سماعه هدير محرّكٍ يتناهى من بعيد.

كثير من النساء ركبنَ زورقه. نساء ألبانيات باحثاتٍ عن عملٍ كخادمات في فنادق الساحل، أو في كنف العائلات الإيطاليّة كممرّضات للعجائز. نساء نيجيريّات يبعنَ أجسادهنّ على جانبي الطريق بين فوجيا وباري، تحت مظلّات ملوّنة اتّقاءً لحرّ الشمس. نساء إيرانيّات، منهوكات من التعب، تبدأ رحلتهنّ الفعليّة لدى وصولهنّ إلى الساحل الإيطالي، لأنّهنّ من هناك يقصدنَ أماكن أبعد في فرنسا أو إنكلترا. كان دوناتو يتأمّلُ في حالهنّ، صامتًا. وعندما يلاحظ أنّ إحداهنّ تسافر بمفردها، يسعى دائمًا إلى تدبّرِ طريقة ما لكي يردّ لها مالها قبل أن تغادر

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الزورق. وكلّما فعل، كانت المرأة ترمقه بعينين مشدوهتين، وتشكره بصوتٍ خفيض أو حتّى تنحني لتقبّل يديه، فيقول لها: «من أجلِ ألبا» ثمّ يرتسم بشارة الصليب. كانت ألبا هوَسه. خطر بباله، في البداية، أن يسأل ركّابه الألبانيين إذا كانوا يعرفونها، لكنّه سرعان ما أيقن أنّ سعيه من قبيل العبث. يلبث صامتًا ويدسّ في يد النساء رزمة المال التي تقاضاها منهنّ قبل ساعات. من أجل ألبا. من أجل ألبا. يردّد قائلاً. وفي سرّه يقول: «من أجل ألبا التي سلبتها كلّ ما ملَكَته. من أجل ألبا التي أنزلتها في بلدٍ جعل منها عبدةً على الأرجح». كانت النساء عندئذٍ يلمسنَ خدّه بأطراف أصابعهنّ، مباركةً له ودعاءً من أجله. كنّ يلمسنه برقّةٍ كما يلمسنَ طفلاً، لأنّهن يُدركن أنّ ذاك الرجل الصامت، ذلك المهرّب السَكوت ليس سوى طفلٍ يُخاطب النجوم.

آخر الأمر، اختفى دوناتو تمامًا. إيليّا لم يقلق في البداية. دائمًا كان هناك صيّادون يقولون إنّهم لمحوه من بعيد، أو سمعوه يغنّي كما يحبّ أن يغنّي، ليلاً، في طريق عودته من إحدى رحلاته الغامضة. وكانت أقوالهم تؤكّد أنّ دوناتو لايزال هناك، في مكان ما من ذاك البحر الواسع. وجلّ ما في الأمر أنّ أسفاره باتت أطول فأطول. ولكنّ أسابيع انقضت، ثمّ انقضت شهور، وكان لابدّ لإيليّا أن يقرّ بالحقيقة: والحقيقة أنّ أخاه مفقود.

خلّف ذاك الغياب جرحًا عميقًا في قلبه. وفي بعض ليالي الأرق، كان يصلّي مبتهلاً ألاّ يكون أخوه قد مات غرقًا جرّاء عاصفة. كان الغرق يُرعبه. فيتخيّل اللحظات الأخيرة لتضارب

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الأمواج وصراخ اليائس. وكم بكى إذ راودته، في الخيال، صور تلك الميتة البائسة في عزلتها، ميتة الغرقى الذين لا يملكون، خلال غوصهم في لجّة بلا قعر، إلاّ أن يرتسموا بشارة الصليب.

لم يمت دوناتو جرّاء عاصفة بحريّة. ففي آخر يوم من حياته كان مبحرًا بسكون على صفحة المياه. كان الموج يهدهد زورقه برفق، وأشعّة الشمس الساطعة تنعكسُ على اتساعه الهائل، لافحةً بشرة وجهه. «من العجيب حقًّا، أن يحترق المرء وسط المياه، فكّر في سره. أُحِسّ بالملح. حيثما كان من حولي. على جفوني. على شفتيّ. في حلقي. عمّا قريب سأغدو جسمًا ضئيلاً أبيض، منكمشًا على نفسِه في قعرِ الزورق. عندئذ يكون الملح قد جفّف مائي، وقرض لحمي، وسوف يحفظني كما تُحفظ الأسماك على أرفف السمّاكين. نهشُ الملح. سأموت من نهشِ الملح. غير أنّه موت بطيء، ومازال أمامي متسعٌ من الوقت. متسعٌ من الوقت لتدفق الماء من حولي».

تأمّل طويلاً في الشواطئ، من بعيد، وفي اعتقادِه أنّ الرجوع إليها لايزال ممكنًا. قد يتطلّب الأمرُ جهدًا لأنّ جسمه واهنٌ عقِبَ أيّامٍ قضاها من دون طعام، غير أنّه قادرٌ على ذلك. عمّا قريب لن يعود قادرًا على الرجوع. ولو مَلكَ، عندها، ما في العالم كلّه من عزم، سيبقى الشاطئ خطًّا قصيًّا، ولن تكون محاولة بلوغه سوى كابوس مرعب. كالرجال الذين يغرقون في مياهٍ ضحلة: لا تكمن المشكلة في عمقِ المياه، بل في القدرة على إبقاء الرأس خارجها. عمّا قريب لن يقوى على ذلك. وفي

الأثناء يراقبُ الخطّ العشوائيّ لشاطئ بلاده، متراقصًا عند الأفق كأنّه يودّعه.

صاحَ بأعلى صوته. لا من قبيل الاستغاثة بل التثبّت من أنّ أحدًا هناك لايزال قادرًا على سماعِ صوته. صاحَ. لم يستجب لندائه صوت. لم يجاوبه أحد. بقيَ المنظرُ على حاله. لم يغمز ضوء على الساحل، ولم يقترب قارب. لم يجاوبه صوتُ أخيه. ولو من بعيد. ولو مكتومًا. «أنا بعيد، قال في سرّه. ما عاد العالمُ يسمعني. وأخي، هل يُعزّيه علمُه بأنّني ناديته عندما ودّعتُ هذا العالم؟».

شعر بأنّه فقد القوة الكافية للتراجع. لقد اجتاز العتبة. حتّى لو راوده شعورٌ مفاجئ بالندم، فلن يتمكّن من التراجع. تساءل كم تبقّى له من الوقت قبل أن يفقد وعيه. ساعتان؟ ربّما أكثر. وبعد ذلك للعبور من حال الإغماء إلى الموت؟ عند هبوط الليل ستجري الأمور بسرعة. غير أنّ الشمس لاتزال هناك. تحميه. استدار بزورقه لكي يُصبح قُبالَتها، وأَوْلى الشاطئ ظهره. ما عاد يراه. لابدّ أنّها الخامسة أو السادسة بعد الظهر. والشمسُ تميل إلى الغروب. تواصل هبوطها باتجاه البحر لكي تغيب. كانت الشمس تعكسُ على صفحة المياه بقعةً متطاولةً زهريّة اللون مائلةً إلى البرتقالي فتجعلُ ظهور الأسماك بارقةً بلمعانٍ خاطف. طريقٌ ترتسمُ على صفحة المياه. ناور بالمجذاف لكي يجعل زورقه موازيًا لمحور الشمس، وسطَ دربِ الضياء. ولم

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يبق إلاّ الإبحار قُدُمًا، حتّى النهاية. كانت الشمس تُلهِبُ ذهنَه غير أنّه تابعَ كلامَه حتّى النهاية.

«إنّي أسلكُ الدربَ قُدُمًا. يرافقني سربُ أخطبوطٍ أبيض. الأسماك تحيط بزورقي وتحمله على ظهورها الحرشفيّة. أبتعد. الشمس تدلّني. يكفي أن أتبعَ حرارتها وأحدّق في عينها. وشيئًا فشيئًا يخفّ وهجها في عينيّ. لقد عرفتني. أنا أحد أبنائها. إنّها تنتظرني. سنغوصُ معًا في لجّة المياه. رأسها الهائل المشعّث بالنيران سوفَ يُرعِشُ الماء. فقاقيع بخارٍ ضخمة تتصاعدُ لتبلّغ من خلّفتهم ورائي بأنّ دوناتو مات. أنا الشمس... سرب الأخطبوط يرافقني... أنا الشمس... إلى أبعد ما في البحر...».

أعلمُ كيف ستكون نهايتي، يا دون سالفاتوري. حدسي أنبأني بما ستكون عليه أعوامي الأخيرة. سأفقد عقلي. لا تَقُل شيئًا. لقد شرحتُ لك كيف، بدأت أفقد عقلي بالفعل. سوف تختلط عليّ الأمور. ولن أميّز بين الوجوه والأسماء. سيبدو كلّ شيء مشوّشًا في ذهني. أعلم أنّ ذاكرتي ستغدو، عمّا قريب، صفحةً بيضاء، وعمّا قريب سوف أعجز عن التمييز بين الأمور. سأغدو جسدًا ضئيلاً ضامرًا بلا ذكريات. امرأة بلا ماض. ومثل هذا خَبِرتُه من قبل. في صِغَرنا، أصيبت إحدى جاراتنا بالجنون. فما عادت تذكر اسم ابنها. ما عادت تتعرّف عليه إذا رأته. وبات كلّ ما يحيط بها سببًا لإثارة قلقها. كانت تنسى فتراتٍ بأكملها من حياتها. وغالبًا ما يُعثَر عليها تائهةً في الشوارع ككلبٍ شارد. فقدت كلّ صلةٍ بالعالم الذي يحيط بها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

باتت تعيش بصحبة أشباح. مصيرٌ مثل هذا هو الذي ينتظرني. سوف أنسى ما يحيط بي وأبقى، بالفكر، بصحبة إخواني. سوف تُمحى الذكريات. وهذا أمرٌ حَسَن. وسيلةٌ للاختفاء تلائمني. سأنسى حياتي الخاصّة. وأسيرُ نحو الموت بلا خشية أو تردّد. ولا يبقى شيء لكي أبكيه. النسيان عذب. وسوفَ يُبرئ آلامي. سأنسى أنّ لي ولدين وأنّ أحدهما قد اختطفَ منّي. سأنسى أنّ دوناتو مات وأنّ البحر احتفظ بجثّته. سأنسى كلّ شيء. وتهون المصاعب. وأغدو طفلة. بلى. لحسن حظّي. رويدًا أتشعشعُ وقليلاً قليلاً أموت كلّ يوم. سأتخلّى عن كارميلاّ سكورتا من دون قصدٍ أو تفكير. ويوم مماتي لن أذكر حتّى مَن كنتُ مِن قبل. ولن أحزن لأنّني أرحل عن أهلي، لأنّهم باتوا غرباء في عينيّ.

ليس باليد حيلة إلاّ الانتظار. العلّةُ فيّ. وتدريجًا سوف تمحو كلّ شيء.

لن أتمكّن، يومًا، من التحدّث إلى حفيدتي. سأموت قبل أن تبلغ سنّ الرشد أو، إذا بقيتُ على قيد الحياة لبعض الوقت، فلن أذكر شيئًا ممّا كان ينبغي أن أقوله. ثمّة أمور لا تُحصى. تختلط في رأسي. وعمّا قريب لن أتذكّر شيئًا منها. سوف يتلعثمُ لساني. وأشيع الخوفَ في روعها. كان رفايلي محقًّا، إذ ينبغي للأشياء أن تُقال. لقد حكيت لك كلّ الحكاية. وسوف تخبرها يا دون سالفاتوري. بعد مماتي أو عندما لا يبقى منّي سوى دمية عجوز لا تجيد الكلام، سوف تحكي لها نيابةً عنّي.

آنا. لن أعرف المرأة التي ستكونها بعد سنواتٍ، ولكنّني أودّ أن يبقى فيها شيءٌ منّي.

سوف تحكي لها يا دون سالفاتوري، إنّه ليس من العبث التأكيد بأنّ جدّتها كانت ابنة بولنديّ عجوز يُدعى كورني. وستقول لها إنّنا قرّرنا أن نحمل اسم سكورتا وأن نتحد حول هذا الاسم لكي نشعر بالانتماء.

الريح تودي بكلماتي، ولا أدري إلى أين تحملها. تنثر بعضها فوق التلال. غير أنّك ستحرصُ على أن يبلغها بعضُها.

إنّي عجوز مسنّة، يا دون سالفاتوري. سأسكت الآن. أشكرك لأنّك رافقتني. والآن هلاّ عُدت؟ أنا متعبة. هيّا عُد. ولا تقلق بشأني. سأمكث هنا لبعض الوقت لكي أفكّر للمرّة الأخيرة في كلّ هذا. أشكرك يا دون سالفاتوري. وأقول لك إلى اللقاء. ولا أدري إن كنت سأتعرّف عليك إذا التقينا مجدّدًا؟ الليل عذبٌ. الطقس جميل. سأمكث هنا لبعض الوقت. وكم أودّ أن تودي بي الريحُ أخيرًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

IX

زلزال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قبل دقيقة، كان كلّ شيء على خير ما يُرام، والحياة تسلك مجراها الطبيعيّ، متباطئةً هانئة. قبل دقيقة واحدة، كان دكّان التبغ مزدحمًا بالزبائن على جري عادته كلّ يوم منذ مطلع ذاك الصيف عام ١٩٨٠. عائلات بأكملها جاءت لتزيد من عدد المصطافين المقيمين في مخيّمات الشاطئ. القرية تكنزُ مالاً خلال شهور الصيف الثلاثة ما يكفيها لشهور العام بأكمله. ازداد عدد سكّانها إلى ثلاثة أمثاله. وتغيّر كلّ شيء فيها. فتياتٌ يتوافدنَ عليها، جميلات، متحرّرات، حاملات إليها آخر ما ابتكرته الموضة في الشمال. المال يتدفّق عليها بوفرة. فتتحوّل الحياة في مونتيبوتشيو، خلال ثلاثة شهور، إلى حياة صاخبة زاخرة بالحركة.

قبل دقيقة واحدة، كان المشهد مشهد حشدٍ من الأجساد الفرِحة المُسمَرَّة، مشهد نساء أنيقاتٍ وأطفالٍ فرحين يتراكضون في الباحة. مشهد شرفات مزدحمة. كانت كارميلاّ تراقبَ تدفّق السيّاح على الباحة. أصبحت عجوزًا ذابلة الجسم معتلّة الذهن تقضي أيّامها جالسةً على كرسيّ من القشّ، لصقَ جدار الدكّان. أصبحتِ الظلَّ الذي استشعرت من قبل أنّها ستكونه. هجرتها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذاكرتها وتقوّض ذهنها، كأنّها طفلٌ رضيع في جسد ضامرٍ مجعد. كان إيليّا يعتني بها. استعان بامرأة من القرية لكي تطعمها وتُعنى بملابسها ونظافتها. ما عاد أحد يستطيع أن يكلّمها. ترى العالم بعين قلقة. فكلّ شيء فيه يمثّل تهديدًا. وفي أحيان كثيرة كانت تئنّ متلوّيةً من الألم كأنّ أحدًا يشدّ على معصميها. إذ تنتابها نوبات رعب غامضة. وفي حالات الهياج التي تلمّ بها بين الفينة والفينة، كانت تجول متسكّعة في شوارع الحيّ، وهي تردّد أسماء أخوتها بأعلى الصوت. في كلّ مرّة كان على أحد ما أن يقنعها بالعودة إلى دكّانها وأن يهدّئ من روعها. أصبحت مشوّشة الذهن فلا تتعرّف، أحيانًا، على ابنها إذا رأته. كانت عندها تتفرّس في وجهه قائلةً: «ابني، إيليّا، سيأتي لاصطحابي!» فيغصّ ألمًا مداريًا دموعه. حالة ميئوس منها. كلّ الأطباء الذين استشارهم أجمعوا على ذلك. ولم يبق إلاّ أن تتوفّر لها العناية اللازمة في سيرها البطيء نحو الجنون. كان الزمن يقرض كيانها شيئًا فشيئًا وقد باشر وليمته من الرأس. لم تعد سوى جسد خاوٍ تهزّه تشنّجات الفكر. أحيانًا، يخطر ببالها اسم، تخطر ذكرى. فتسأل، بنبرتها السابقة، عن أخبار القرية. هل بادر أحد إلى إبلاغ دون سالفاتوري شكرهم الجزيل على الفاكهة التي أرسلها لهم؟ كم بلغت آنا من العمر؟ كان إيليّا قد اعتاد لحظات الصفاء المستعادة تلك. والتي لم تكن، في الحقيقة، سوى تقلّصات الفكر. وسرعان ما تغرق، على أثرها، في صمتٍ عميق. ما عادت تسير، ولو خطوات قليلة، إلاّ مصحوبةً، لأنّها إذا سارت بمفردها تاهت في شوارع القرية وراحت تنتحبُ وسط تلك الشبكة المعقّدة من الأزقّة التي باتت غريبة عنها.

لم تذهب ثانية إلى الباحة وراء الكنيسة، حيث كرسيّ الاعتراف القديم. وإذا صادفت دون سالفاتوري لا تلقي عليه التحيّة. كلّ الوجوه أصبحت غريبة. ولا تدري من أين جاء العالم الذي يُحيط بها، كأنّه ولدَ فجأة من لا شيء. لم تعد جزءًا منه. تلازم مكانها، هناك، على كرسيّ القشّ، هامسةً تحدّث نفسها أحيانًا وهي تفركُ أصابعها، أو تأكل اللوز المحمّص مبتهجةً كطفل.

قبل دقيقة، كانت هناك، ساهية العينين. صوت إيليّا يتناهى إلى سمعها من الداخل، مُحدّثًا زبائنه، وكان الصوت وحده كافيًا لينبئها بأنّها حيث ينبغي أن تكون.

فجأة سرت رعدة في أرجاء القرية. لبث الناس جامدين في أماكنهم. هديرٌ أرعشَ الشوارع. كأنّه انبثقَ من لا شيء. هديرٌ غامر. من كلّ صوب وناحية. كأنّ قطارًا يسير مسرعًا تحت الأرض. امتقعت وجوه النساء توًّا إذ شعرنَ بأنّ الأرض تميد تحت خِفافِهنّ الصيفيّة. كأنّما شيء ما يسري في الجدران، والأواني الزجاجيّة ترتجُ مرنّنةً في الخزائن، والمصابيح تتساقطُ على الطاولات، والحيطان تتماوج مثل جنبات الورق. خيّل لأهل مونتيبوتشيو أنّهم شيّدوا قريتهم على ظهر حيوانٍ استيقظ فجأة مُتمَطّيًا من هجعة دهور. وكان السيّاح يحملقون، مشدوهين، في وجوهِ السكّان وعيونهم المذهولة تسأل: «ما الخَطْب؟»

ثمّ علا صوتٌ في الشارع صائحًا، صيحة لم تلبث أن ردّدتها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عشرات الأصوات: «زلزال! زلزال!» وعندئذٍ حلّ ذُعرُ الأذهان محلّ ذهول الأجساد. كان الهدير مدوّيًا يطغى على كلّ صوت آخر. بلى، الأرض تهتزّ، مصدّعةً الإسفلت، قاطعةً خطوط الكهرباء، مُحدثةً شقوقًا غائرة في جدران المنازل، قالبةً الكراسي، مُغرِقةً الشوارع بالردمِ والغبار. كانت الأرض تهتزّ بقوّةٍ لا يقاومها شيء، فيما البشر يستعيدون أحجامهم الحقيقة كحشرات ضئيلة تسعى على سطح الكوكب، مبتهلةً ألاّ تُبتَلع.

لكن فجأة سكت الهدير، وتوقّف ارتجاج الجدران. فما كاد الرجالُ يطلقون اسمًا على غضبِ الأرض الغريب حتّى عادت الأرض إلى استكانتها. ساد الصمت كما يسود سكون ما بعد العاصفة. كان أهل مونتيبوتشيو قد نزلوا، جميعًا، إلى الشوارع. بما يُشبه ردّ الفعل الغريزي، غادروا منازلهم، مُسرعين، خشيةَ أن يحاصرهم الردمُ إذا ما تداعت الجدران مثيرةً سحابة من الغبار والحصى. كانوا خارج منازلهم كالمُسَرْنِمين. مُتطلّعين إلى السماء بعيون مشدوهة. فيما النساء ينتحبن. ارتياحًا أو خوفًا. والأولاد يصيحون بأعلى صوتهم. لبثَ أهل مونتيبوتشيو، في جمهرتهم، حائرينَ، عاجزين عن النطق. يتبادلون نظرات الذهولِ فيما بينهم، سُعَداء لبقائهم على قيد الحياةِ، ومازالت الرعشةُ الخفيّة تسري في كيان كلّ واحد منهم. ما عادت الأرض هي التي تُصدر هديرًا متصلاً حتّى أجسادهم، بل الخوف الذي سرى في أوصالهم بدل الهدير وجعلَ أسنانهم تصطكّ هَلَعًا.

قبل أن تغصّ الشوارع بالنداءات والصياح ـ قبل أن يُحصي كلٌّ منهم أفراد أسرته، وقبل أن تدور التعليقات حول البليّة وسط هرج ومرج ـ، خرج إيليّا من دكّان التبغ. كان قد بقي في دكّانه خلال الهزّة، ولم يستطع أثناءها أن يفكّر في شيء، حتّى في احتمال موته. هرع إلى الشارع. وراحت عيناه تقلّبانِ الرصيفَ بحثًا وتوجّسًا، وهو يصيح بأعلى صوته: «ميوتشيا! ميوتشيا!» غير أنّ صياحه لم يُنبِّه أحدًا. لأنّ الباحة كلّها، تحوّلت، في الأثناء، إلى حاوية صراخ ونداء. وطغى على صراخِ إيليّا صخبُ الحشد الذي دبّت فيه الحياة المستعادة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على الهُوَيْنا كانت كارميلا تجوب الشوارع التي غطّاها الردم والغبار. تسير مثابرةً كما لم تفعل منذ زمن بعيد. كأنّ قوّةً مستجدّة أيقظت جسمها. تشقّ طريقها بين الجموع، مجتنبةً مكامن الصدوع في الطريق. وتحدّث نفسَها بصوت خفيض. كان كلّ شيء يتداعى في ذهنها. الزلزال. إخوانها. كورني العجوز المحتضر. كان الماضي يطفو مجدّدًا كرواسب منصهرة. وكانت، هي، تنتقلُ من ذكرى إلى ذكرى. ويطالعها حشدٌ من الوجوه. ما عادت مكترثة لما يدور حولها. نساء، في الشارع، رأينها وناديَنها ثمّ سألنها إذا كانت على مايرام، وإذا كانت الكارثة قد قوّضت منزلها، غير أنّها لم تُجِب. سارت قُدُمًا، بعنادٍ، غارقةً في أفكارها. وسَلَكت صُعُدًا شارع «داي سوبليتشي». كان الشارع ممتدًّا على طول الشاطئ، شديد الانحدار، فاضطرّت للتوقّف مرارًا لالتقاط أنفاسها. وفي كلّ مرّة كانت تنتهز توقّفها هنيهاتٍ لكي تشمل القرية بنظرة متأمّلة. كانت ترى الرجال خارج البيوت وقد شمّروا عن سواعدهم يعاينون الجدران لتقدير الأضرار. وترى الأولاد يطرحون أسئلةً يعجز الكبار عن الإجابة عنها. لِمَ زلزلت الأرض؟ هل ستعاود الكرّة؟ ولأنّ الأمّهات عجزن عن الردّ، أجابت، هي، هي التي لم تتكلّم منذ زمن بعيد. «أجل،

ستهتزّ الأرض ثانية، ستهتزّ الأرض. لأنّ الموتى جائعون»، قالت بصوت خفيض.

ثمّ تابعت سيرها مخلّفةً وراءها القرية وصخبها. بلغت نهاية شارع «داي سوبليتشي» ثمّ انعطفت، يمينًا، سالكة طريق سان جوكوندو، وصولاً إلى بوّابة المقبرة. كانت المقبرة هي غايتها. لقد نهضت عن كرسيّها الخشبي لا تراودها إلاّ فكرة واحدة: الذهاب إلى المقبرة.

بدا أنّها استعادت شيئًا من السكينة عندما دفعت البوّابة. ولاحَت ابتسامةُ صِبا أخيرة على وجهها المسنّ.

في اللحظة التي سلكت فيها كارميلاّ ممرّات المقبرة، خيّم على مونتيبوتشيو سكونٌ غامر. كأنّ أهل القرية، جميعًا، راودتهم الخاطرة نفسها، في اللحظة نفسها. خوفٌ واحدٌ ساكنَ روعَ الجميع، وكلمة واحدة نطقت بها جميع الألسن. «الهزّة الارتداديّة». فكلّ زلزالٍ تتبعه هزّة ارتداديّة. لا محالة. سوف تضرب القرية هزّة ثانية. وهي وشيكة. فلا جدوى من الابتهاج وعودة الناس إلى منازلهم مادامت الهزّة الارتداديّة لم تحدث بعد. لذا وقفَ أهل مونتيبوتشيو متلاصقين عند الساحة، وعند الباحة، وفي الشوارع. بعضهم هرع لإحضار أغطية وإنقاذ مقتنياته الثمينة تحسّبًا للضربة الثانية. ثمّ أقاموا جميعًا في انتظار المأساة الوافدة.

وحده إيليّا كان يتنقّل من مكان إلى آخر، مُؤمِنًا، مخترقًا الجموع سائلاً كلّ من يعرفه: «أمّي؟ هل لمحت أمّي؟» ولكنْ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عِوَضَ الإجابة كان الناسُ يقولون له مردّدين: «اجلس يا إيليّا. ابقَ هنا. انتظر قليلاً. الهزّة الارتداديّة وشيكة. ابقَ معنا». غير أنّه لا يصغي، ويتابع طريقه سائلاً، مفتّشًا، كأنّه طفل تائهٌ وسطَ الزحام.

عند الساحة سمع صوتًا يصيح به قائلاً: «لقد رأيت أمّك، لقد رأيتها. سَلَكَت طريق المقبرة». ومن دون أن يحاول التثبّت من هويّة القائل انطلقَ راكضًا باتجاه المقبرة.

جاءت الهزّة الثانية على نحوٍ مباغت، فأوقعت إيليّا على الأرض. ألفى وجهه ممرّغًا بالتراب، وسطَ الشارع. كان هدير الأرض مسموعًا تحته. كأنّ سيلاً من الأحجار يتدفّق تحت بطنه، تحت ساقيه، تحت راحتيه. الأرض تتمطّى ثمّ تنكمش فيتحسّس كلّ انقباضٍ من انقباضاتها. وكان الهديرُ يتردّد في عظامِه. بقي على حالِه هنيهاتٍ، جبينُه سويّة التراب، ثمّ سَكَنَت الأرض. لم تكن فورتها سوى صدىً بعيد لغضبٍ عابر. كأنّ الأرض تنبّه، بطلقة إنذار ثانية، ذاكرةَ البشر إلى وجودها. فهي حاضرةٌ، هنا. زاخرة بالحياةِ، تحت أقدامهم. وذات يوم، قد يدفعها ضيقها بهم وغضبها منهم، إلى ابتلاعهم جميعًا.

حالما سَكَنَ الهدير، نهض إيليّا عن الأرض. كان الدمُ يسيل على خدّه من جُرحٍ أصيبَ به، عند قوس الحاجب، جرّاء سقطته. غير أنّه لم يحاوِل أن يمسح الدمَ عن وجهه، بل انطلق مجدّدًا باتجاه المقبرة.

كانت البوّابة محطّمةً، سويّة الأرض. قفز فوقها سالكًا الممرّ الرئيسي. كانت الشواهد متداعية، وشقوقٌ كثيرة في الترابِ كأنّها آثار جروح على جسدِ نائم. التماثيل مفتّتة وبعض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

صلبان رخاميّة تهاوت بين العشب. كانت الهزّة قد ضربت المقبرة أيضًا. كأنّ جيادًا هائجة اجتازت الممرّات عَدْوًا، فوطأت التماثيل وقَلَبت الجرّار وباقات الورد اليابس. تداعت المقبرة كقصرٍ شُيّد فوقَ رمالٍ متحرّكة. ألفى إيليّا نفسه أمام صدعٍ في الأرض يعترض طريقه وسط الممرّ. فراح يتأمّل فيه صامتًا. الأرض هنا، لم تلتئم تمامًا. وفي تلك اللحظة أيقن أنّ بحثه عن أمّه من دون جدوى. وأيقن أنّه لن يراها ثانية. لقد ابتلعتها الأرض. ولن تعيدها إليه. ولهنيهاتٍ عبقت في الأجواءِ الحارّة رائحةُ أمّه.

زلزلت الأرض وابتلعت، إلى أبعد ما في جوفها، جسد كارميلاّ المسنّ المُتعَب. لم يعد بوسعِه أن يفعل شيئًا. فارتسم بشارة الصليب. ومكث طويلاً، مُطرِقًا، في مقبرة مونتيبوتشيو، وسط الجرار المحطّمة والأضرحة المنبوشة، ولمسة الرياح الحارّة التي تجفّف الدمَ على خدّه.

آنّا، أصغي إليّ، هذه كارميلاّ العجوز تحدّثكِ بصوت خفيض... أنتِ لا تعرفينني... لبثتُ لفترةٍ طويلة امرأة مسنّة فاقدة العقل لا تقربينها... لم أكن أتكلّم على الإطلاق... ولم أكن قادرة على التعرّف على أحد... اسمعي يا آنّا، سأحكي لك كلّ شيء هذه المرّة... أنا كارميلاّ سكورتا... وُلِدتُ مرارًا، وفي أعمار مختلفة... من يدِ روكو وهي تداعب شعري وُلِدتُ أوّلاً... ثمّ، فيما بعد، على ظهر المركب الذي أقلّنا في طريق عودتنا إلى أرضنا البائسة، ولِدتُ ثانيةً من نظراتِ أخويّ إليّ... من العار الذي غمرني عندما انتقوني دون المصطفّين جميعًا، أمروني بالوقوف على حدة...

انشقّت الأرض... أعلم أنّها انشقّت من أجلي... أسمع نداءَ أهلي. لست خائفة... انشقّت الأرض... يكفي أن أسقط في الشقّ... فأذهب إلى باطن الأرض حيث سأنضمّ إلى أهلي... ما الذي أخلّفه ورائي؟... آنّا... كم أودّ أن تسمعي الناسَ يتحدّثون عنّي... آنّا، اسمعي، اقتربي قليلاً... أنا سفرةٌ خائبة إلى أقاصي الأرض... أنا أيّام من الكآبة عند قدمي أكبر مدن العالم قاطبةً... كنتُ مسعورة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وجبانة ونبيلة... أنا جفاف الشمس وشهوة البحر.

لم أستطع الاستجابة لطلبِ رفايلي، ومازلت إلى اليوم أبكي لأنّني لم أفعل... آنا... حتّى النهاية لم أقدر إلاّ أكون أختًا لآل سكورتا... لم أجرؤ يومًا أن أكون لرفايلي... أنا كارميلاّ سكورتا... أختفي الآن... ولتغلق الأرضُ أديمها ورائي.

X

زَيّاح القدّيس إيليا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان إيليّا قد استيقظ متأخّرًا، مُصابًا بصداع. لم تخفّ وطأة الحرّ طوال اللّيل، فلم ينعم إلاّ بفتراتٍ متقطّعة من النوم. وكانت ماريّا قد أعدّت له إبريق القهوة وذهبت لكي تفتح الدكّان. نهضَ بتثاقلٍ والعرقُ يتصبّب من عنقِه. كان مشوّشَ الذهنِ لا يفكّر في شيء سوى أنّ يومه سيكون طويلاً: فهو يوافق العيد السنوي لشفيعه القديس إيليّا. مياه الدوش الباردة عدّلت مزاجه، ولكن فور خروجه من تحتها وارتدائه قميصًا أبيض عاوده الإحساس بوطأة الحرّ والرطوبة مجدّدًا. الساعة لم تتجاوز العاشرة. ما يعني أنّ اليوم سيكون حارًّا جدًّا.

في ساعة مماثلة تكون شرفة بيته الضيّقة ظليلةً. وضع عليها كرسيًّا خشبيًّا ليحتسي قهوته، يحدوه الأمل في نسمة هواء منعش. كان يسكنُ منزلاً أبيض متواضعًا ذا سطحٍ مُسَنَّم من القرميد الأحمر. على غرار منازل مونتيبوتشيو التقليديّة. الشّرفة في الطبقة الأولى: عبارة عن مساحةٍ متعدّية حتّى الرصيف، يحوطها سياج. جلس هناك محتسيًا قهوته محاولاً أن يستعيد صفاء أفكاره.

صِبيةٌ يلهون في الشارع. جيوسيبّي الصغير، ابن الجيران، والأخَوان ماريوتّي وآخرون لا يعرفهم إلاّ بالمرأى. يُحاكونَ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قتلَ كلاب الحيّ، أو صَرع أعداءٍ وهميين أو مطاردة بعضهم بعضًا. يتصايحون. يتراكضون. يختبئون. وعبارة أطلقها أحد الصِبية حين صاح برفاقه قائلاً: «محظور على أيّ منّا أن يذهبَ إلى أبعد من كرسيّ **العجوز**». رفع إيليّا رأسه، مراقبًا ما يدور في الشارع. كان الصِبيةُ يطاردون بعضهم بعضًا مختبئين وراء السيّارات المركونة على طول الرصيف. جالَ إيليّا بعينيه على الأرجاءِ علّه يلمح العجوز المعنيّ الذي جعله الصِبيةُ معلمًا لحدود ساحة لهوهم، فلم يجد أحدًا. «ليس أبعد من كرسيّ **العجوز**»، ردّد الأولاد صائحين. عندها فقط أدرك أنّه المعنيّ. فابتسم. إنّه، هو، **العجوز**. كان هو العجوز الجالس على كرسيه، هناك، الذي جعله الصِبية حدودًا لمساحة سباقهم. إذ ذاك، شرد بفكرِه، ساهيًا عن الأولاد وعن صياحهم وطلقاتهم الناريّة المتوهّمة. تذكّر أنّ أخواله، جميعًا، جلسوا، من قبل، كما يجلس هو اليوم، أمام منازلهم. وأنّ الصِبيةَ، آنذاك، كانوا يرون أنّهم عجائز، وأنّ أمّه، قبل وفاتها، كانت تجلس على ذاك الكرسيّ، كرسيّ القشّ نفسه، مستغرقةً، لساعات ما بعد الظهر بأكملها، في مشاهدة شوارع القرية وتملّي صخَبها حتّى الثمالة. واليوم، حان دوره. أصبح عجوزًا. انقضت حياة بأكملها. ابنته صارت في العشرين من عمرها. آنا. ابنته التي لا تشبع عيناه منها. بلى. انقضى الزمان. وحان دوره في الجلوس على كراسي القشّ، عند الناصية، مُراقبًا الصِبية الذين يتراكضون من أمامه.

هل عاش سعيدًا؟ كان يمعنُ التفكير في تلك السنوات كلّها. كيفَ تُقوَّمُ حياة رجل؟ كانت حياةً كغيرها. زاخرةً، على

التوالي، بالبهجة والدموع. فقدَ أعزّاء. أخوالَه. أمَّه. أخاه. وخَبِرَ الألم، أن يبقى وحيدًا، بلا جدوى. غير أنّ فرحته لاتزال، غير منقوصة، لوجود ماريّا وآنّا، ففي وجودهما معه عوضُ كلّ شيء. هل عاش سعيدًا؟ عاودته ذكرى السنوات التي أعقبت حريق دكّان التبغ وزواجه. بدت له ذكريات بعيدة، كأنّها من حياة أخرى. وفكّر مليًّا في تلك السنوات وبدا له أنّه لم يعرف، خلالها، لحظة من الراحة. سعى جاهدًا وراء المال. وكدّ في عمله حتّى صارت لياليه أقصر من فترات القيلولة. ولكن، بلى، عاش سعيدًا. كان خاله، خاله فايلوك العجوز، محقًّا عندما خاطبه ذات يوم قائلاً: «عليك الاستفادة من عرقك»، ذاك ما اختبره بالضبط. عاشَ سعيدًا ومنهوكًا. وسعادته نجمت عن ذاك التعب. كافح. وتشبّث بصموده. والآن، وقد أصبح العجوز الجالس على كرسيه، الآن وقد تمكّن من استئناف تجارته، ومن توفير حياة لائقة لزوجته وابنته، الآن وقد أصبح قادرًا على التمتّع بسعادةٍ غامرة لا تشوبها خشية ولا بؤس، بات يفتقد ذلك الشعور الغامر بالسعادة. كان يعيش في رخاءٍ وطمأنينة، الأمر الذي يُعتَبَر إنجازًا في حدّ ذاته، وصار موسَرًا، لكنَّ سعادته، تلك السعادة البريّة، المنتزعة انتزاعًا من صلبِ الحياة، قد أصبحت ذكرى.

جيوسيبّي الصغير نادته أمّه. فنبّه صوتُ الأمّ، الدافئ، القويّ، إيليّا من شروده. رفع رأسه. كان الأولاد قد تواروا فجأةً مثل سربٍ من الجراد. نهضَ. سوف يبدأ نهاره. فاليوم عيد القدّيس إيليّا. والجوّ حارّ. وعملٌ كثير ينتظره.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غادر منزله مجتازًا الباحة صُعُدًا. تغيّرات كثيرة طرأت على القرية. حاول أن يتذكّر ما كانت عليه قبل خمسين عامًا. ما عدد المتاجر التي عرفها في طفولته ومازالت قائمة؟ جاء التحوّل تدريجيًّا. استلم الأبناء أعمالَ آبائهم، واستبدلت اللافتات بلافتاتٍ جديدة، ووسّعت المصاطب. كان إيليّا يسير وسط شوارع مكسوّة بالزينة لمناسبة العيد، ورأى في ذلك السمة الوحيدة التي لم تتغيّر. حرارة التقوى لدى أهل القرية، أنارت، في ذلك اليوم، كما في الماضي، واجهات البيوت والمحال. أشرطة من اللمبات الكهربائيّة الملوّنة عُلّقت متدلّيةً من الرصيفِ إلى الرصيف المقابل. عبر أمام بائع الملبّس. عربتان فُرِشَت عليهما صنوفُ الكرميلّة وعِرق السوس والمصّاصات وشتّى أنواع السكاكِر التي تغوي الأولاد بمتع مباحة. وعلى مقربةٍ، ابن فلاّح يقترحُ على الصغار جولةً على ظَهر بغلٍ، مجتازًا الباحةِ، ذهابًا وإيابًا، من دون كلل. كان الأولاد يتشبّثون بالدابّة، بشيء من الخوف في البداية، ثمّ يتوسّلون إلى آبائهم بالسماح لهم بجولة ثانية. توقّف إيليّا. تذكّر الحمار العجوز، موراتّي. حمار خاليهِ المدخّن. كم امتطاه هو وأخوه دوناتو، متهلّلين كفاتِحَيْن؟ وكم توسّلا إلى الخال ميمي أو الخال بيبّي لكي يسمحا لهما بجولةٍ على ظهره؟ كانا يعشقان الحمار العجوز. وكم كان يغلبهما الضحكُ

إذا شاهداه وهو يدخّن حزمة سويقات القمح. وكم صفّقا له بحماسة إذا بصق العقَبَ المحترق بلامبالاة جملٍ صحراوي، وبنظرةٍ جامحةٍ ماكرة. لقد أحبّا تلك البهيمة العجوز. مات الحمارُ موراتّي جرّاء سرطان الرئة ـ ما يُثبِت، في آخر الأمر، للمشكّكين أنّه كان يُدخّن فعلاً ويبتلعُ الدخان كالبشر. لو عاش الحمار موراتّي لفترة أطول، لكانَ أحاطه برعاية خاصّة، ودلّله. ولأحبّته ابنته. راح يتخيّل ضحكات آنّا الصغيرة لرؤية الحمار المدخّن. لكان اصطحب ابنته الصغيرة في جولةٍ على ظهر الحمار عبر شوارع مونتيبوتشيو على مرأى أولاد الحيّ المشدوهين. ولكن موراتي مات، وصار لمحةً من زمنٍ بائدٍ بدا إيليّا أنّه آخر مَن يتذكّره. إذ ألحَّ عليه كلّ ذلك، اغرورقت عيناه بالدموع. لا بسبب الحمار، بل لأنّه استعاد ذكرى أخيه دوناتو. عاودته ذكرى ذلك الصبيّ الغريب، الصموت، الذي شاطره لهوه واطّلع على أسرارِه كلّها. كان له أخٌ، بلى. وكان دوناتو هو الشخص الوحيد الذي يستطيع إيليّا أن يحدّثه عن طفولته وهو يعلم يقينًا أنّه سيفهمه. رائحة الطماطم المجفّفة في منزل الخالة ماتيا. الباذنجان المحشو كما تعدّه الخالة ماريّا. التراشق بالحجارة مع صِبية الأحياء المجاورة. لقد عاش دوناتو كلّ ذلك، كما عاشه هو. ويستطيع أن يتذكّر، بالدقّة نفسها وبالحنين نفسه، تلك السنوات البعيدة. غير أنّ إيليّا كان وحيدًا في ذلك اليوم. دوناتو لم يرجع إليه، وخلّف غيابه غضونًا عميقة تحت عينيه، غضون أخٍ يَتِمَ من أخيه.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كانت الرطوبةُ تجعل البَشَرَةَ دَبِقةً. فما من نَسَمٍ يجفّف عرق الأبدان. سار إيليّا متمهّلاً لكي لا يبتلّ قميصه، حريصًا على محاذاة الجدران الظليلة، حتّى بلغ بوابّة المقبرة الكبيرة البيضاء فَدَخلها.

في ساعةٍ مماثلة من يومِ عيدِ الشفيع، تكون المقبرة مقفرة. فالعجائز ينهضنَ باكرًا ويقصدنَ قبور أزواجهنّ الراحلين لتزيينها بالنبات والزهور. وبعد أن يغادرنَ يخيّم عليها خواءُ السكون مجدّدًا.

سار متوغّلاً عبر الممرّات، وسط الرخام الأبيض الذي تلهبُه الشمس. كان يسير متمهّلاً، مغضّنًا أجفانه لكي يقرأ أسماء الموتى المنقوشة على الحجر. كلّ عائلات مونتيبوتشيو كانت هناك. آل تافاليوني، وآل بيسكوتي، وآل إسبوسيتو، وآل دي نيتيس. خَلَفًا عن سَلَف. أبناء عمومة وعمّات. جميعهم. أجيال بأسرها متجاورة في حديقة من رخام.

«أعرف أناسًا هنا أكثر ممّا أعرفُ من أهل القرية الحاليين، قال إيليّا في سرّه. لم يُخطئ الأولاد فيما قالوا هذا الصباح. أنا عجوزٌ ضامر. جميع أهلي تقريبًا باتوا هنا. وأحسبُ أنّ هذا هو المعيار الذي به يُقاسُ أثر السنين».

منحته تلك الخاطرة بعضًا من الارتياح الغريب. كان خوفه من الموت يتضاءلُ عندما يفكّر في مَن عرفهم وسلكوا قبله ذلك الدرب. على غرار طفل يرتعد أمام الهوّة التي ينبغي له أن يتجاوزها، غير أنّه يراقب رفاقه وهم يقفزون فوقها ويجتازونها إلى الجهة المقابلة، فيستجمع شجاعته ويحدّث نفسه قائلاً: «إذا استطاعوا، هم، أن يقفزوا، فأنا أستطيع». ولم يكن إيليّا يحدّث نفسَه بغير ذلك. إذا كانوا جميعهم موتى، ولم يكن أحدٌ ليفوقه شجاعة وبأسًا، فهذا يعني أنّ بإمكانه، هو بدوره، أن يموت.

كان يقتربُ من القطاعِ الذي دُفِنَ فيه أفراد عائلته. كلّ واحد من أخواله دُفِنَ مع زوجته. لم يعثروا على مدفنٍ يتسع لآل سكورتا جميعًا، لذلك ألحّوا على طلبهم بأن تكون مدافنهم متجاورة. تراجع إيليّا بضع خطوات، وجلس على مقعدٍ. من هناك كان بمقدوره أن يراهم جميعًا. الخال ميمي «يا مَنْيَك». الخال بيبّي «الكرش الملآن» والخال فايلوك. لبث لبعض الوقت على تلك الحال. تحت أشعة الشمس. غافلاً عن القيظ. غير مكترث للعرق المتصبّب من ظهره. كان يفكّر مجدّدًا في أخواله كما عرفهم. والقصص التي سردوها على مسمعه. لقد أحبّ أولئك الرجال الثلاثة بقدر ما يقوى قلبُ طفل على الحبّ، أكثر ممّا أحبّ أباه ـ الذي غالبًا ما بدا في عينيه غريبًا ـ مُرتبكًا وسط لقاءات العائلة، عاجزًا عن توريث أبنائه حفنة ضئيلة من ذاتِه، بينما لم يغفل أخواله لحظة واحدة عن رعايته وشقيقه، دوناتو، بأريَحيّة الرجال الناضجين، الزاهدين بالعالم، حيالَ طفلينِ بريئَين حَديثَي الوفادة. لم يتمكّن من حصرِ ما ورثه عنهم في قائمة واحدة. أقوال.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إيماءات. وقيم أيضًا. كان يُدركُ أنّه صار أبًا وأنّ ابنته توبّخه أحيانًا على بعض المناحي في تفكيره التي تصفها بالقديمة والمتحجّرة. مثلاً صمته المطبق حيال كلّ ما يمتّ بصلةٍ إلى المال. العهد. حسن الضيافة. والضغينة العنيدة. تلك الصفات ورثها عن أخواله. وهو يعلم ذلك.

كان إيليّا هناك، جالسًا على مقعدِه، مطلقًا العنان لأفكاره الممتزجة بالذكريات، مبتسمًا، وسط أحاديث بدا أنّها تتناهى إلى سمعهِ من جوف الأرض. أهي هلوساتٌ رفعها قيظ الشمس كالأبخرة في رأسه؟ أم أنّ المدافن راحت تطلق سراحَ نزلائها لبعض الوقت؟ بدا له أنّ غشاوةً قد اكتنفت بصرَه وشاهد أخواله هناك، على بعدِ مئتي متر أو أقلّ. شاهدهم: دومينيكو وجيوسيبّي ورفايلي، ثلاثتهم حول منضدة من خشب، يلعبون بالورق كما يروق لهم أن يفعلوا، عند الباحة، عصرًا. لبثَ مشدوهًا لا يحرّك ساكنًا. كان يراهم بوضوح. صاروا أسنّ قليلاً مما عَهِدُهم، ولكن بالكاد احتفظ كلّ منهم بخصاله المميّزة وحركاته وقوامه كما كان تمامًا. كانوا يتضاحكون. والمقبرة مُلكٌ لهم وحدهم. فيما الممرّات تردّد أصداءً عذبة لورق اللعب الذي يُرمى بقوّة على الطاولة.

بجانب الطاولة، على حدة، كانت تجلس كارميلاّ تراقبُ لعبهم، موبّخة أحد إخوانها إذا أساء اللعب، ومؤازرة آخر إذا تعرّض لمشاكسة الآخرين.

قطرة عرق سالت من حاجبي إيليّا اضطرته إلى إغماض

عينيه. أيقن أنّ أشعّة الشمسِ ازدادت حدّة. فنهض. ومن دون أن تفارق عيناهُ مشهدَ أهلِه الموتى، ابتعد وهو يسير القهقرى. عندما ابتعد قليلاً تلاشت أحاديثهم. فارتسم بشارة الصليب وترحّم عليهم سائلاً الله، بخشوع، أن يدعهم منغمسين في اللعب بالورق، مادامت الدنيا دنيا.

ثمّ استدار مغادرًا.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على الأثر شعر برغبةٍ ملحّة في التحدّث إلى دون سالفاتوري. ليس كما يتحدّث ابن الرعيّة إلى كاهن الرعيّة ـ فإيليّا لم يكن من أبناء الرعيّة المواظبين على حضور القدّاس ـ بل حديث رجلٍ إلى رجل. ذلك أنّ الكالابريّ العجوز كان لايزال حيًّا على إيقاعِ الشيخوخة البطيء. أمّا مونتيبوتشيو فقد حظيت بكاهنٍ جديد من مواليد باري يُدعى دون لينو. كان يستهوي نساء القرية. كنّ يعشقنه ولا يقلعنَ عن الترداد أنّه حان الوقت لكي تحظى مونتيبوتشيو بكاهن عصريّ يتفهّم مشكلات العصر ويجيد التعاطي مع الشبّان. وبالفعل، تمكّن دون لينو أن يستميل الشبّان إليه. كان مستودع أسرارهم. ويجيد العزف على الغيتار خلال السهرات الطويلة على الشاطئ، في فصل الصيف. كما اكتسبَ ثقة أمّهاتهم. فلا يتوانى عن تذوّق الفطائر التي يصنعنها في بيوتهنّ ويستمع مبتسمًا إلى مشاكلهنّ الزوجيّة، بكلّ تحفّظ وإصغاء. كانت مونتيبوتشيو فخورة جدًّا بكاهنها. مونتيبوتشيو بأسرها ما عدا العجائز الذين ارتأوا أنّه رقيق الحاشية. فهؤلاء استهوتهم صراحة دون سالفاتوري ورعونته الجبليّة وصنّفوا «الباريزي» في منزلةٍ أدنى من سلفِه[1].

(١) نسبةً إلى مدينة باري (في منطقة بوليا).

دون سالفاتوري رفض الرحيل عن مونتيبوتشيو. أراد أن يقضي أيّامه الأخيرة، وسط رعيّته، وفي كنيسته. وعلى الرغم من الاستحالة التي تعترض كلّ راغبٍ في معرفة سنّه الفعليّة، يمكن القول إنّه كان مسنًّا مفتول العضلات وذا نظرة حادّة كنظرة العقاب. على مشارف الثمانين، كأنّ الزمنَ غَفِلَ عنه، وأبطأ الموت في موافاته.

وجده إيليّا في جنينتِه واقفًا وسط العشب وبيده فنجان قهوة. فدعاه دون سالفاتوري إلى الجلوس بجانبه. ذلك أنّ مودّة عميقة تربط بين الرجلين. تبادلا أطراف الحديث قليلاً، ثمّ صارح إيليّا صديقه بما يعتمل في صدرِه:

«الأجيال تتعاقب، يا دون سالفاتوري. فما معنى تعاقبها؟ هل تبلغُ غايةً في آخر المطاف؟ خُذ عائلتي مثلاً. آل سكورتا. كلّ فردٍ منهم كافحَ على طريقته. وأفلح كلّ فرد منهم، على طريقته، في أن يتجاوز قدرات نفسه. من أجل ماذا؟ لكي أكون، أنا، نهاية المطاف؟ هل أنا حقًّا أفضل ممّا كان عليه أخوالي؟ كلاّ. إذًا ما جدوى ما بذلوه؟ لا شيء. دون سالفاتوري. لقد بذلوا كلّ شيء من أجل لا شيء. إنّها الحقيقة المُرّة.

ـ أجل، أجاب دون سالفاتوري قائلاً، الأجيال تتعاقب. ولا يُسأل أحدٌ إلاّ بذلَ ما وسِعه، ثمّ تسليم الأمانة والتخلّي عن مكانه لسواه».

صمتَ إيليّا لبعض الوقت. ما يستهويه لدى الكاهن هو أسلوبه في معالجة الأمور من دون تبسيط أو تحويلها إلى أوجهٍ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إيجابيّة. كثير من رجال الكنيسة يرتكبون هذا الخطأ. يبيعون الفردوس لرعيّتهم، ما يدعوهم إلى الوعظ الرخيص. أمّا دون سالفاتوري، فلا. كأنّ إيمانه لا يوفّر له أيّ عزاء.

«كنتُ أتساءل، أردف الكاهن قائلاً، قبل مجيئك يا إيليّا، عمّا آلت إليه أحوال هذه القرية. المشكلة هي نفسها. على مستوى أعمّ. أخبرني، ما أخبار مونتيبوتشيو.

ـ كيسٌ من المال فوق كومة من الحصباء، قال إيليّا بكثير من المرارة.

ـ أجل. المال أفقدهم عقولهم. الرغبة في تحصيله. والخوفُ مِن فَقْدِه. المال هوسهم الوحيد.

ـ ربّما، تابع إيليّا قائلاً، ولكن ينبغي لنا الإقرار بأنّ أهل مونتيبوتشيو ما عادوا يموتون جوعًا. ولم يعد أولادهم يصابون بالملاريا، وصارت بيوتهم مزوّدة بالمياه الجارية.

ـ أجل، قال دون سالفاتوري. لقد جمعنا ثروات ولكن مَن ذا الذي سيقوّم ذات يوم حجم الإفقار الذي ترافق مع هذا التطوّر؟ حياة القرية فقيرة. حتّى أنّ هؤلاء الحمقى لم يتنبّهوا إلى أمرٍ كهذا».

قال إيليّا في سرّه إنّ دون سالفاتوري يبالغ في تقديره، لكنّه فكّر، في الوقت نفسه، في حياة أخواله. فما بذله أخواله من أجل بعضهم بعضًا، هل بذله هو من أجل أخيه دوناتو؟

«حان دورنا، نحن، لكي نموت الآن، يا إيليّا». نطق الكاهن بعبارته تلك بنبرةٍ استسلام.

«أجل، أجاب إيليّا. حياتي أصبحت ورائي. حياةٌ من السجائر. تلك السجائر التي بعتها، كلّها لا شيء. ليست سوى ريح ودخان. لقد هدرت أمّي عرقها، كما هدرتُ أنا وزوجتي عرقنا على علبِ الأعشاب اليابسة تلك التي تبخّرت بين شفاه الزبائن. تبغٌ تبدّد دخانًا. وهذا يشبه حياتي. نفخاتٌ مبدّدة في الرياح. كلّ هذا لا شيء. إنّها حياة غريبة هذه التي مجّها الناسُ على دفعاتٍ متشنّجة أو بنفخاتٍ كبيرة مطمئنّة، في أمسيات الشتاء.

ـ لا تخف. سوف أرحل قبلك. مازال أمامك بعض الوقت.

ـ أجل.

ـ يا للخسارة، أردف الكاهن قائلاً. لقد أحببتهم كثيرًا، أبناء رعيّتي الفقراء. وأكاد لا أقوى على الافتراق عنهم».

تبسّم إيليّا. بدت له الملاحظة مستهجنة بعض الشيء على لسان رجل دين. فماذا عن السلام الأبدي، وغبطة الكائن المدعو إلى الجلوس عن يمين الربّ؟ وهمّ بلفتِ صديقه إلى التناقض في كلامه، لكنّه لم يمتلك الجرأة الكافية.

«يُخيّل إليّ أحيانًا أنّك لست كاهنًا فعليًّا، قال مكتفيًا بهذا القدر، متبسّمًا.

ـ لم أكن كاهنًا طوال حياتي.

ـ والآن؟

ـ الآن أفكّر في الحياة، فيتملّكني الحنق لاضطراري إلى الرحيل عنها. أفكّر في الربّ ولا يكفي الإيمان بحِلمِه لكي يُبرئني من ألمي. أحسب أنّني غاليتُ في حبّ البشر فما عدتُ

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أقوى على الرحيل عنهم. فقط لو أعلم، علم اليقين، أنّني سأطّلعُ، بين الفينة والفينة، على أحوال مونتيبوتشيو وأخبارها.

ـ يجب أن نسلّم الأمانة، قال إيليّا، مردّدًا عبارات الكاهن نفسها.

ـ أجل». وخيّم عليهما صمت، ثمّ انفرجت أسارير دون سالفاتوري وأضاف قائلاً: «الزيتون خالد. ثمرة الزيتون لا تدوم. بل تنضج وتفسد. لكنّ الزيتون يتعاقب، بعضه تلو البعض، بتكرار غير متناه. كلّه مختلف، غير أنّ سلسلة توالده لا تنتهي. الزيتون له الشكل نفسه، اللون نفسه، وتنضجه الشمس نفسها، وله المذاق نفسه. إذًا، بلى، الزيتون خالد. كالبشر. التعاقبُ اللامتناهي نفسه للحياة والموت. سلسلة التوالد الطويلة لبني البشر لا تتوقّف. عمّا قريب، سيحين أجلي. فالحياة تنتهي. غير أنّ الأشياء تستمرّ لآخرين سوانا».

سَكَت الرجلان. ثمّ انتبه إيليّا فجأةً أنّه تأخّر عن دكّان التبغ، فاستأذنَ صديقه العجوز بالانصراف. وعندما شدّ على يده مودّعًا، بدا له أنّ دون سالفاتوري يودّ أن يضيفَ شيئًا، غير أنّه أحجم في اللحظة الأخيرة، وافترق الرجلان.

«ولكن ماذا تفعل؟»

كان إيليّا أمام باب دكّانه. وأنوار المساءِ تغشى الواجهات. الساعة قاربت الثامنة، وفي روعِ إيليّا، هي لحظةٌ مقدّسة. كانت أنوار القرية مضاءة. جموعٌ داكنة تحتشد على أرصفة باحة غاريبالدي. جموعٌ واقفة وصاخبة. موكب الزَيّاح في طريقه إلى الباحة. وإيليّا يريد أن يكون هناك، أمام دكّانه، ليشاهده، كما كانت أمّه تفعل، قبلَه. يقف منتظرًا، والجموع محتشدة من حوله.

«ولكن ماذا تفعل؟»

كان ينتظر ابنته. قال لها ذاك الصباح: «عرّجي على الدكّان من أجل الزَيّاح»، ولمّا قالت أجل من دون اكتراث كأنّها لم تسمع، ألحّ قائلاً: «لا تنسي، عند الثامنة، أمام الدكّان». فضحكت ولامست خدّه قائلةً بنبر: «أجل يا أبي، كالعادة في كلّ عام، لن أنسى».

شارفَ الموكب على الوصول وهي لم تأت بعد. فاستشاطَ إيليّا برطمةً وغضبًا. مع أنّ الأمر بسيط. فالقرية صغيرة، وحتّى الوافد الغريب لن يضلّ طريقه فيها. للأسف الشديد. إذا لم تأتِ، فهذا يعني أنّها لم تفهم شيئًا. وسيتعيّن عليه أن يشاهد الموكب بمفرده. كانت آنّا صَبيّة جميلة. غادرت مونتيبوتشيو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وهي في الثامنة عشرة لكي تدرس الطبّ في بولونيا. فترة دراسة طويلة انصرفت إليها بشغفٍ كبير. إيليّا هو الذي حثّها على اختيار بولونيا. كانت الفتاة تفضّل الانتقال إلى نابولي، ولكن إيليّا ارتأى، حِرصًا على مصلحة ابنته وسلامتها، أن تذهب إلى بولونيا. فهي، من بين أفراد عائلة سكورتا، أوّل من غادر القرية سعيًا وراء النجاح في الشمال. ولم يكن في وارد أحد أن تعمل، بعد أبيها، في دكّان التبغ. إيليّا وماريّا كانا يرفضان الفكرة من الأساس، أمّا الفتاة فلم يكن مثل هذا الاحتمال حتّى في حسبانها. وبهجتها، اليوم، لا توصف لكونها طالبة في مدينة جامعيّة جميلة تعجّ بفتيان ذوي نظرات معسولة. لقد أتيح لها أن تستكشف العالم. وإيليّا فخورٌ بذلك. إذ قيض لابنته أن تفعل ما لم يفعله هو عندما أشار عليه خاله دومينيكو بالرحيل. كانت أوّل الناجين من تلك الأرض المقفرة التي لا تعطي شيئًا. والأرجح أنّ رحيلها عنها نهائي. فغالبًا ما كان إيليّا وماريّا يتناقشان في الأمر: الاحتمال الأكبر هو أن تلتقي شابًّا هناك، فتستقرّ حيث هي، وقد تتزوّج. وليس مستبعدًا أن تغدو، عمّا قريب، امرأة أنيقة المظهر، مزدانة بالحليّ، كالنساء اللواتي يقصدنَ شواطئ غارغانو لقضاء شهرٍ فيها، خلال فصل الصيف.

كان ذلك كلّه يتزاحمُ في رأسه، وهو واقفٌ بلا حراك على الرصيف، عندما لاحَت عند أوّل الشارع راية القديس إيليّا مُرفرفةً بتؤدة، فوق رؤوس المارّة. وصل الموكب. وفي مقدّمه رجلٌ شديد البأس، مُكابد، يحملُ ساريةً خشبًا ثبّتت عند طرفها الأعلى راية مستطيلة بألوان القرية. كان يتقدّم متباطئًا، تحت

ثقلِ بدلته المخملِ، حريصًا على السارية لكي لا تعلق الراية بلمبات الكهرباء التي مدّت أشرطتها بين أعمدة الإنارة العموميّة. ووراء حامل الراية كان الموكب يتقدّم. بات السائرون في مجال البصر. فانتصبَ إيليّا في وقفته. وسوّى ياقة قميصه، ثمّ شبك كفّيه وراء ظهره، ولبث منتظرًا. كان في أوجّ استيائه من تصرّفات ابنته الشقيّة التي تطبّعت بطباع أهل ميلانو، عندما أحسّ بيدٍ فتية نحيلة تندسّ في يده. فالتفت. وإذا بآنّا واقفة بقربه. متبسّمة. تملأها بعينيه. امرأة شابّة مفعمة بكلّ ما يزخر به الصبا من لامبالاة وفرح. فقبّلها إيليّا وأفسح لها مكانًا بجانبه، مبقيًا يدها بيده.

وصلت آنّا متأخّرة لأنّ دون سالفاتوري اصطحبها إلى كرسيّ الاعتراف القديم. حدّثها لساعاتٍ وحكى لها كلّ شيء. كأنّ صوت كارميلاّ العجوز المتهدّج لامسَ عشبَ التلال. وتبدّدت من ذهن آنّا الصورة التي طالما حفظتها عن جدّتها ـ امرأة مسنّة، مضطربة العقل، واهنة الجسم، دميمة. لقد حدّثتها كارميلاّ من فم الكاهن. وباتت آنّا تحملُ، في سرّها، أسرار نيويورك ورفايلي. ومن دون أن تدرك سببًا لذلك، شعرت بأنّ تلك الأسرار تمنحها القوّة، لا بل تمنحها قوّة لا تُضاهى.

توقّف الموكب لبعض الوقت. ومعه توقّف كلّ شيء. خيّم الصمت على الجموع فبدت خاشعةً، ثمّ عاودت المسيرة تقدّمها على إيقاع أبواق الجوقة وصنوجها. كان مرور الموكب لحظة نعمى. وموسيقى تغمر النفوس. شعر إيليّا بأنّه جزءٌ من كلّ. كان تمثال القدّيس إيليّا يقترب محمولاً على أكتاف ثمانية رجال متصبّبين عرقًا. بدا متراقصًا بين الجموع، متمايلاً بتؤدة، مثل زورق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

على صفحة المياه، على إيقاع مسيرة الناس المتمايلة. كان أهل مونتيبوتشيو يرتسمون بشارة الصليب لدى مروره بهم. وفي تلك اللحظة تلاقت نظرتا إيليّا ودون سالفاتوري. بادره الكاهن بإيماءةٍ من رأسه، مرفقة بابتسامة، ثمّ باركه. فعاودت إيليّا ذكريات السنوات الماضية عندما سرق مداليات القدّيس ميكيلي فطاردته القرية بأسرها لتعاقبه على فعلة الكافرين تلك. ارتسم بشارة الصليب بخشوعٍ لكي يمتلئ قلبُه بدفء ابتسامة الكاهن العجوز.

عندما بلغ موكبُ التمثال دكّانَ التبغ، شدّت آنّا بقوة على يد أبيها، فشعر بأنّه كان مخطئًا. فقد تكون ابنته أوّل الراحلين عن القرية، لكنّها ابنة مونتيبوتشيو فعلاً. إنّها تنتمي إلى تلك الأرض. نظرتها من تلك الأرض، وكذلك افتخارها. وعندئذ همست في أذنه قائلة: «لا شيء يشفي غليل آل سكورتا». فلم يُجب. فاجأته العبارة، وفاجأته النبرة الهادئة الواثقة التي صاحبتها. ما الذي عنَته بقولها؟ هل أرادت أن تشير إلى سيّئةٍ ما في طباع آل سكورتا، وقد تنبّهت إليها الآن؟ أم أرادت أن تقول له إنّها تعرف جيّدًا ظمأ آل سكورتا المزمن، وإنّها تشاطرهم ظمأهم، لأنه كان مصدر قوّتهم ولعنتهم؟ فكّر في ذلك كلّه ثمّ بدا له فجأة أنّ معنى العبارة بسيط جدًّا. فآنّا هي فرد من عائلة سكورتا. أو أنّها أصبحت للتوّ من آل سكورتا. على الرّغم من اسم مانوزيو الذي تحمله. بلى. هذا هو معنى كلامها. لقد اختارت للتوّ آل سكورتا. كان يتملاّها بعينيه. نظرتها العميقة الساحرة. آنّا. آخر أبناء سكورتا. لقد اختارت الاسم. واختارت سلالة أكَلَة الشمس. ذلك النهم الذي لا يشبع، جعلته

نهمها. لا شيء يشفي غليل آل سكورتا. تلك الرغبة الجامحة في التهام السماء، وفي شربِ النجوم. أراد أن يجيبَ بعبارة ما غير أنّ عزف الموسيقى صدح مجدّدًا في تلك اللحظة، طاغيًا على تمتمات الجموع. لم يقل شيئًا. وشدّ بقوّة على يد ابنته.

في تلك اللحظة انضمّت إليهما ماريّا عند باب الدكّان. هي أيضًا تقدّمت في السنّ لكنّها حافظت على ذاك البريق البرّي في نظرتها، والذي أثار، فيما مضى، جنون إيليّا. وقفوا متلاصقين، متعانقين، وسط الحشد، يغمرهم شعورٌ طاغٍ. كان الموكب هناك. أمامهم. وقد أثملتهم الموسيقى الصادحة. القرية بأسرها احتشدت في الباحة. أيدي الأطفال تقبض على حبّات الملبّس. وعطر النساء يعبق في الأرجاء. كلّ شيء كما كان. وقفوا منتصبي القامات أمام دكّان التبغ. بفخر. لا على نحوِ افتخار الخيلاء الذي يبديه الموسرون الجدد، بل افتخار التواضع لأنّهم شعروا بأنّ تلك اللحظة هي اللحظة الحقيقة.

ارتسم إيليّا بشارة الصليب. وقبّل أيقونة العذراء المتدلّية من عنقه التي حفظها هديّة من أمّه. مكانه هنا. بلى. إنّه يقين لا يرقى إليه الشكّ. مكانه هنا. ما من احتمال آخر. أمام دكّان التبغ. وفكّر مليًّا في ديمومة تلك الحركات، تلك الصلوات، تلك الآمال.. ووجد فيها كُلَّ العزاء. لقد كان بشرًا، قال في سرّه. مجرّد بشر. وكان كلّ شيء على مايرام. دون سالفاتوري كان محقًّا في ما قاله. فالبشر، شأن الزيتون في مونتيبوتشيو، خالدون.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تذييل

فيما أنهي هذا الكتاب يحضرني، بالفكر، جميعُ مَنْ شرّعوا في وجهي أبوابَ تلك البِقاع فأتاحوا لي أن أكتبه. والداي اللذان أورثاني عشق إيطاليا. ألكسندرا التي اصطحبتني على خطى اكتشافها الجنوب ومنحتني متعةَ وشرفَ التأمّل فيه من خلالِ عينيها المحبّتين المُشرِقتَيْن. ريناتو وفرانكا ونونّا ميوتشيا وزيا سينا وزيا غرازييلاّ ودومينيكو وكارميلاّ ولينو وماريياّ وأنطونيو وفيديريكا وإميليا وأنطونيو وأنجيلو.. امتنانًا لضيافتهم وعاطفتهم. الحكايات التي حكوها لي. الأطباق التي جعلوني أتذوّقها. والساعات التي قضيتها بصحبتهم في عذوبة أيّام الصيف. لِما نقلوه إليّ، من دون أن يدروا، مِن عَدوى ذاك التعاطي مع الحياة الذي لا أصادفه إلاّ في تلك البقاع ولهُ في نفسي، على الدوام، أبلغ الأثر. عسى أن يجدوا في هذه الصفحات بعضًا من ذواتهم. ففي ذلك أقلّ ما يُنصفهم: إذ رافقوني في أحلك ساعات الخصومة مع الصفحة البيضاء. لأجلهم كُتبت هذه السطور.. ولعلّها لا تعرِبُ إلاّ عن الآتي: كم كانت ثمينة في نظري تلك اللحظات التي قضيتها تحت شمس بوليا!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وُلِد آل سكورتا ملطّخين بالعار لأنّ سلالتهم نشأتْ من اغتصاب شَقيٍّ لعانس. في مونتيبوتشيو، بلدتهم الصغيرة في جنوب إيطاليا، يحيون في عَوَزٍ، ولن يموتوا أثرياء. غير أنّهم عاهدوا أنفسهم على توارث القليل الذي منّت به الحياةُ عليهم، من جيلٍ إلى جيل. لذا كانت ثروتُهم، ما عدا دكّان التبغ المتواضع الذي أنفقوا عليه «نقود نيويورك»، ثروةً لامادّية قد تكون تجربة في الحياة، أو ذكرى أو حكمة أو لحظة فرح عابرة. وقد تكون سرّاً كالسرّ الذي تبوح به كارميلاّ العجوز لكاهنِ مونتيبوتشيو السابق، خشيةَ أن تفقدَ مَلَكةَ الكلام.

لوران غُوْدِه هو روائيّ وكاتب مسرحيّ فرنسي، صَدرتْ له أعمالٌ مسرحية عدّة، وثلاث روايات: صراخ (٢٠٠١)، وموت ملك تسونغور (٢٠٠٢)، وشمس آل سكورتا التي حازت جائزة غونكور، أبرز الجوائز الأدبية الفرنسية، عام ٢٠٠٤.

مكتبة بغداد

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب. ١١ - ٤١٢٣ بيروت